د. محمّد عمَارة

الغرب والإسلام

أين الخطأ؟.. وأين الصواب؟..

مكتبة الشروق الدولية

الغـــــرب والإســــلام

أيـن الخـطـأ؟.. وأيـن الصــــــواب؟؟

الطبعـــة الأولى
١٤٢٤ هـ ـــ ٢٠٠٤ م



شارع الفتح ـ أبراج عثمان أمام المريلاند ـ روكسى ـ القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٣٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

دكتور محمد عمارة

الغرب والإسلام

أين الخطأ؟.. وأين الصواب؟؟



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

تمهيد..

العداء الغربى للإسلام.. لماذا؟؟

من بين المليارات الستة، التى هى تعداد البشرية اليوم، يبلغ تعداد المسلمين قرابة المليار ونصف المليار.. أى قرابة ربع البشرية.. وفيهم أعلى نسبة للخصوبة والتوالد، الأمر الذى يرشح نسبتهم إلى سكان العالم للزيادة باطراد..

والعالم الإسلامى، الذى تعيش فيه الأغلبية الساحقة للمسلمين، يمثل وطنًا مترابط الأوصال، وسهل الاتصال، تبلغ مساحته خمسة وثلاثين مليونًا من الكيلومترات المربعة.

وترابط أقاليم هذا العالم الإسلامى قد أتاح التفاعل الثقافى، والحضارى بين شعوبه، حتى قبل التقدم الحالى فى وسائل الاتصال، وهو يتيح - فى ظل ثورة وسائل الاتصال - المزيد من الترابط بين أمة الإسلام.. وذلك فضلاً عن أن تطلع شعوب وأقاليم هذا العالم الإسلامى لمزيد من الترابط والتضامن والاتحاد، ليس مجرد حلم مستقبلى، وجزء من الظاهرة المعاصرة نحو التكتلات الإقليمية والثقافية والاقتصادية، وإنما هو - فوق ذلك - إحياء وتجديد للترابط الأممى الذى عرفه هذا العالم، فى ظل الخلافة الإسلامية، لأكثر من عشرة قرون، كانت فيها هذه الأقاليم والدول والإمارات كيانات متميزة فى ظل الوحدة الجامعة لدار الإسلام ولأمة الإسلام..

فى ظل هذا التاريخ الطويل، كان العالم الإسلامى هو «العالم الأول» على ظهر هذا الكوكب، بينما لا يتعدى عمر الغرب - كعالم أول - قرنين من الزمان!..

وفى ظل ذلك التاريخ الإسلامى، بنى المسلمون الحضارة الإسلامية الزاهرة، التى تفاعلت مع كل المواريث الحضارية القديمة، وأحيت علوم القدماء - فراعنة.. وفُرْسًا.. وهنودًا.. وإغريقًا - ثم أسهمت فى التطوير الهائل لهذه العلوم، وأضافت إليها الإبداعات الجديدة.. ثم كانت مصدرًا رئيسيًا فى النهضة الأوروبية الحديثة، ومنارة سطعت أضواؤها على مختلف الحضارات.

ولقد تفردت هذه الحضارة الإسلامية بكونها الحضارة العالمية التى تبلورت وازدهرت فى ظل المرجعية الدينية الإسلامية، بل وكأثر من آثار هذه المرجعية الدينية، فلم يكن نهوضها وازدهارها - كغيرها - على أنقاض الدين.. وبعد الثورة على الدين!..

ولقد بنى المسلمون هذه الحضارة المتميزة، مشركين معهم فى هذا البناء الحضارى كل الأقليات الدينية والثقافية، التى احتضنها الإسلام، وحررها من القهر الدينى والحضارى، فأصبحت هذه الحضارة الإسلامية هى حضارة الأمة، على اختلاف مللها ونحلها ولغاتها ومذاهبها، الأمر الذى تفردت به هذه الحضارة الإسلامية بين الحضارات.. عندما أصبحت «إسلاميتها» جامعة للأقليات، وليست طاردة لهذه الأقليات..

كذلك، بنى المسلمون هذه الحضارة الإسلامية، وصنعوا التاريخ الإسلامى، فى ظل أشرس التحديات.. فلقد حررت فتوحاتهم الإسلامية الأولى الشرق من قهر القوى الاستعمارية القديمة - الفرس الأكاسرة .. والروم البيزنطيين - ثم قهر المسلمون تحديات الحروب الصليبية، التى دامت قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠هـ، ١٠٩٦ - ١٢٩١م].. وعلى أيديهم تمت الهزيمة الأولى للمغول، الذين أبادوا الأخضر واليابس فى كثير من الدول والشعوب.. وفى العصر الحديث، هزموا «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] الذى دوّخ أوروبا.. ثم كانت

بلاد الشرق الإسلامى المقبرة التى دُفنت فيهـا أحلام الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية - الإنجليزية.. والفرنسية.. والهـولندية.. والبرتغالية -.. واليوم، يصنع المسلمون تـاريخًا من الصمود والمـقاومة لأحلام الإمـبريالية الأمـريكية، وشريكتها الصهيونية، ساعين إلى إلحاقهما بمصير الغزاة والمستكبرين!..

* * *

وإذا كان المسلمون يمثلون - اليوم - نحو ربع تعداد البشرية.. فإنهم يمثلون نصف المتدينين بالديانات السماوية - والنصف الآخر تمثله الديانات الوضعية فى آسيا-..

لكن المقـارنة بين الإسـلام وبين الديانات السـمـاوية الأخرى تشـيـر إلى أن الإسلام - فى الحـقيـقة والواقع - إنما يمثل الأكثـرية العظمى للمتـدينين بالدين السماوى والشريعة الإلهية، وذلك بشهـادة العلماء والثقاة من الباحثين الغربيين، الذين قارنوا بين صمود الإسلام وحيويته وصحوته وإحيائه فى العالم الإسلامى، وامتداداته خارج عالم الإسلام، وبين تراجع النصـرانية وانحسار التدين بها، فى إطار الحضارة المسـيحية الغربية، التى هزمت علمـانيتُها مسيـحيتَها، وهمّـشتها، وأصابتها بالإعياء والذبول.. حتى لقـد غدت المسيحية - بالمعنى الدينى الحق - أقليـة فى الغرب «المسيـحى»:.. وغدا الغـرب - الذى ظل قرونًا قلب الـعالم المسيحى - فراغًا من المسيحية، بالمعنى الدينى الصحيح والصريح!..

يشهد على ذلك، القس الألمانى - عالم الاجتـماع - «جوتفرايد كونزلن»، فيقول:

«لقد مثّلت العلمانيـة: تراجع السلطة المسيحية.. وضياع أهميـتها الدينية.. وتحوّل معـتقـدات المسيـحية إلـى مفاهيم دنـيوية.. والفصـل النهائى بين المعـتقدات الديـنية والحقوق المدنية.. وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين..

لقد نبـعت العلمانية من التنوير الغـربى.. وجاءت ثمرة لصـراع العقل مع الدين، وانتصاره عليـه، باعتباره مجرد أثر لحـقبة من حقب التاريخ البـشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى..

ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملاً.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون، والنظام، والسياسة، والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هى التى تضع القانون.. وهى التى تمنح الحرية الدينية..

ولقد قدمت العلمانيةُ الحداثة باعتبارها دينًا حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هى العقل والعلم، لكن.. وبعد تلاشى المسيحية.. سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة عن أسئلة الإنسان، التى كان الدين يقدم لها الإجابات... فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين.. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة بنفسها، بل وتُفَكِّكُ أنساقها – العقلية والعلمية – عدميةُ ما بعد الحداثة. . فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة.. فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث. وتحققت نبوءة «نيتشه» [١٨٤٤ – ١٩٠٠م] عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون (نجمهم) الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه».. وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ – ١٩٢٠م]: «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»!..

ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاش، بل تزايد.. وفى ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة – من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخارقة.. والاعتقاد بالأشباح.. وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسيوية.. والإسلام، الذى أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا فى المجتمعات الغربية..

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا.. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوروبى، عندما أصبح معبدها العلمى

عتيقًا!..».. ففقد الناس «النجم» الذى كانوا به يهتدون: وعد الخلاص المسيحى.. ثم وعد الخلاص العلمانى»![1].

هذه شهادة الخبير الألمانى - فى الاجتماع وفى اللاهوت - القس «جوتفرايد كونزلن» على المأزق الذى تعيشه المسيحية فى الغرب.. لقد همّشتها العلمانية.. ثم دخلت العلمانية مرحلة العجز والإفلاس، فغدت المجتمعات الغربية فضاء مفتوحًا للعقائد الأخرى، الأمر الذى يهدد الغرب بالتحول عن كونه قلب العالم المسيحى - كما حدث من قبل للمسيحية الشرقية، بعد ظهور الإسلام، عندما أصبح الشرق قلبًا للعالم الإسلامى، بعد أن كان قلب العالم المسيحى القديم!-..

إن الإيمان - فى أوروبا المسيحية - بوجود إله خالق لهذا الكون، لا يتعدى ١٤٪.. والذين يذهبون إلى الكنيسة لا يتجاوزون ١٠٪.. وهم يذهبون إلى كنائس قد خانت مسيحيتها، فغدت «أندية» تجتذب روادها بحبال لا علاقة لها بأى دين من الأديان - بالحفلات الراقصة.. والموسيقى الصاخبة.. بل وفتح الأبواب لزواج الشواذ!-..

حتى لقد تنبأ البعض بزيادة عدد المسلمين فى انجلترا - بعد سنوات - على عدد الأنجليكانيين الملتزمين دينيًا!!..

وهذه النصرانية الغربية تتوزعها ثلاث كنائس، لكل منها «قانون إيمان» خاص، يحتكر الخلاص لها وحدها!.. فهى - فى الحقيقة - ثلاثة أديان، بينما الإسلام دين واحد.. وحتى فى المذاهب - داخل الإسلام الواحد - فإن أهل السنة يبلغ تعدادهم أكثر من ٩٠٪ من أمة الإسلام..

* * *

وأمام هذا الذى أصاب، ويصيب النصرانية - بسبب العلمانية والعلمنة - من حق المسلمين أن يشعروا بالعزة؛ لأن العلمانية - التى حملها الاستعمار

الغــربى فى ركابه إلى الشــرق الإسلامــى - لم تحرز تقــدمًا يذكــر، رغم دعم الاســتعــمار لهــا فى الأوساط الإســلاميــة، على امــتداد أكــثر من قــرنين من الزمان! . . بل قد زادت تحدياتُها الإسلامَ قوةً وحيويةً وإحياءً، فأخذت الصحوة الإسلامــية الحــديثة والمعاصــرة تؤكد على شــمولية الإســلام للدين والدولة. . والدنيا والآخرة. . وعلى ضرورة إسلاميــة النهضة الحضارية. . وأسلمة العلوم الاجتماعــية والإنسانية والفنون والآداب. . والاحتكام فى القــانون إلى الشريعة الإسلاميــة، والقانون - الفقــه - الإسلامى. . وذلك فضلاً عن منظومــة القيم والأخلاق. . كــما اندفــعت جمــاهير المــسلمين نحو الالتــزام الدينى، وتحكيم معايير الحلال والحرام فى أنماط العيش والكسب، والإنفاق، وأساليب الحياة. . وغــدت رايات الإسلام هــى التى تظلل حــركات التــحــرر الوطنى ومــقاومــة الاستعمار على امتداد عالم الإسلام. .

فبينما يكــتب كثيرون من علماء الغرب ومفكريــه عن «موت الغرب» - بعد أن أعلنت الحداثة الغربية «موت الإله»!- تمتلئ المكتبات بالكتابات التى تتحدث عن «يقظة الإسلام»، وعن «الصحوة الإسلامية». . و«المد الإسلامى». .

وإذا كنا قد قدمنا شهــادة غربية على مأزق المسيحية -ومعــها العلمانية- فى الغــرب. . فإننا نقــدم شهــادة -غربــية هى الأخــرى- على مقــاومة الإســلام للعلمــانية، واستــعصائــه على العلمنة، وعلو نجمــه فى سماء التــدين بديانات السماء. .

ففى مجلة «شئون دولية - International Affairs»- الصادرة فى «كمبردج» - يناير سنة ١٩٩١م - «مــلف» عن الإســلام، فيــه دراســتــان عن «الإســلام والمسيــحيــة» و«الإسلام والماركــسية»، كــتبــهما اثــنان من علماء الاجــتمــاع: د. «إدوارد مــورتيــمــر» ود. «إرنست جــيلنر». . وفى هاتــين الدراســتين تعليل للحملة الغربية على الإسلام، يُرجع ســبب هذه الحملة - التى تصاعدت عقب سقوط الشيوعية - إلى استعصاء الإسلام على العلمنة، الأمر الذى جعل ثقافته

صامدة أمـام الثقافة الغـربية التى تعيش مأزق المسـيحية والعلمـانية، ولا أدرية وتفكيكية وفوضوية وعدمية ما بعد الحداثة. . يقول هذان العالمان:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهـديد يحل محل التهديد السوفيتى.. وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزًا فى المتناول.. فالإسلام رافض لأى تمييز بين ما لله وما لقيصر .. وهو لا يسمح لمعتنقيه بأن يصبحوا مواطنين فى دولة علمانية.. إنه استثناء مـدهش وتام جدًا من النظرية التى يعتنقـها علماء الاجتـماع، والتى تقول: إن المجـتمع الصناعى والـعلمى الحديث يُحـلّ العلمنة محل الإيمـان الدينى.. فلم تتم أية علمنة فى عالم الإسلام، وسيـطرة هذا الدين على المؤمنين به هى سيطرة قوية، بل هى أقوى الآن مما كـانت عليه من مـائة سنة مضت.. إنه مـقاوم للعلمنة فى ظل مـختلف النظم السياسـية -راديكالية.. وتقليدية.. وبين بين-.. وعـمليات الإصلاح الذاتى تتم فى العـالم الإسـلامى باسم الإيمان الديـنى، وليس على أنقـاض هذا الإيمان .. الأمـر الذى مكن العالم الإسـلامى من الإفلات من المعضلة التى جـعلت مجتمـعات أخرى ضحـية للاضطراب والإذلال؛ بسـبب إضفاء الـغرب الطابع المثالى عـلى نموذجه فى التحديث، الأمر الذى جعلها تقف منه موقف المحاكاة والتقليد..

ذلك هو التفـسير الأساسى لمقـاومة الإسلام المرموقـة للعلمنة.. ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلى وحقيقى للثقافة العلمانية الغربية [ثقافة الشك واللا أدرية.. ثقـافة الأخـصائيين الذين لا روح لهم والعلمـاء الذين لا قلوب لهم] كان الإسلام، من بين ثقـافات الجنوب، الهدف المباشر للحملة الغـربية الجديدة على الإسلام..»!.

إذن. . فهذه الحمـلة الغربية الشرسة على الإسلام - بشـهادة هذه الدراسات العلمية الغربية - لـيست نابعة من عيوب جوهرية وحقيقـية فى الإسلام - كما يزعم البعض - . . ولا هى نابعـة من الجهل بحقيـقة الإسلام - كمـا يحسب كثير من المسلمين -. . وإنما هى نابعة - بـشهادة هؤلاء العلماء الغربيين - من إفلاس المسـيحـية الغـربية. . وإفـلاس العلمانيـة الغربية، أى إفـلاس «الدين

الكنسى» و«الدين الحداثى»، فى الغرب الحديث والمعاصر.. ومن فشل الغرب الاستعمارى فى إدخال الإسلام وأمته وعالمه إلى النفق العلمانى المظلم الذى دخل فيه الغرب، الأمر الذى جعل الكثيرين يتحدثون - ثقافيًا.. ودينيًا.. وديموجرافيًا - عن «موت الغرب» و«صحوة الإسلام»!..

تلك هى حقيقة الأسباب الموضوعية والجوهرية الكامنة وراء الهجمة الغربية على الإسلام، وهذا هو السبب فى شدة الضربات التى يحاول بها الغرب معاجلة صحوة الإسلام.. وإلا فلو كان الإسلام هزيلاً لما استأهل هذا الضرب الشديد!..

وهذه الحقيقة - التى شهد بها العلماء الغربيون - تدعو المسلمين إلى الاعتزاز بإسلامهم، ولكن دون غرور.. وتدعوهم إلى مواجهة هذه الهجمة على دينهم، ليس بهذه المحاولات البلهاء التى يريد أصحابها تزيين الإسلام بالمساحيق الغربية، كى يرضى عنه الغربيون.. وإنما إلى مواجهة هذه الهجمة بالكشف عن حقائق الإسلام، ليعلمها الذين لا يعلمون - فى الغرب وغير الغرب - وبكشف الدعاوى الكاذبة، التى تستر وتزيف الأسباب الحقيقية لهذه الهجمة الغربية على الإسلام..

كذلك، يجب أن نكشف الزيف الذى تمارسه هذه الحملة على الإسلام، عندما يزعم أقطابها أنهم إنما يهاجمون «الأصولية الإسلامية»، ولا يهاجمون «الإسلام».. فسبر غور كتابات هؤلاء الكُتّاب الغربيين، إنما يكشف عن أن حديثهم، بل وتعريفهم «للأصولية الإسلامية» إنما هو التعريف «لحقيقة الإسلام»..!..

فالأصولية - فى المصطلح الإسلامى .. والفكر الإسلامى.. والتراث الإسلامى - هى الانطلاق من الأصول - أصول الدين.. وأصول الفقه - وهما علمان من أبرز علوم العقلانية الإسلامية.. العقلانية التى تفقه الأحكام،

وتفقه الواقع المعيش، ثم تعقد القران بين الفقهين والقراءتين . . ومن ثم، فالأصولية الإسلامية هى على النقيض من «الأصولية المسيحية» و«الأصولية اليهودية»، اللتين مثلتا وتمثلان الجمود والحرفية والتقليد، ومعاداة العلم والعقل والتجديد. . والوقوف - ببلادة - عند ظواهر النصوص. .

والكتّاب الغربيون، الذين يهاجمون الإسلام تحت غطاء مصطلح «الأصولية الإسلامية»، يكشفون هم أنفسهم عن هذه الحقيقة - حقيقة أن مقصدهم فى الهجوم هو الإسلام - . . ويشهد بذلك الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» - وهو مفكر استراتيچى - عندما يتحدث عن الأصوليين الإسلاميين، الذين يدعو - نيكسون - الغرب - أمريكا وأوروپا الغربية والشرقية - إلى «**الاتحاد لمواجهة خطرهم الداهم بسياسة واحدة**» .

هؤلاء «الأصوليون الإسلاميون» - فى تعريف نيكسون. . وباعترافه-

« * **هم المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضى..**

* **ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية..**

* **وينادون بأن الإسلام دين ودولة..**

* **وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار**»!..(٢).

وعلى هذا الدرب - فى تعريف «الأصولية الإسلامية» - يسير المفكر الاستراتيچى الأمريكى «فرانسيس فوكوياما»، والمفكر الاستراتيچى الأمريكى «صموئيل هنتنجتون»، اللذان يصفان الأصولية الإسلامية «بالفاشية، وبأنها تشكل تحديًّا أيديولوچيًا هو فى بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية»!. . ثم إذا بهذه الأصولية الإسلامية عندهما ليست كذلك إلا لأنها: «**الإسلام، الذى هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدال**

بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الأمريكية المسيطرة فى السياسة الدولية.. فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم. فهو وحده قد ولّد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: الدولة العلمانية نفسها.. ومن ثم فإن الصراع الحالى ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية، الأصولية - الفاشية الإسلامية - التى ترفض الاستهلاكية الغربية، والحداثة الغربية: والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه - فصْل الدين عن الدولة-..»[٣].

فالحرب الغربية المعلنة على ما يسمونه بـ«الأصولية الإسلامية»، هى - فى الجوهر والحقيقة - معلنة على حقيقة الإسلام، لا لشىء إلا لأنه المستعصى الأول - بل الوحيد - على العلمنة، أى على الذوبان فى النموذج الحداثى الغربى، والرافض - من ثم - للوقوف ذليلاً أمام هذا النموذج الغربى موقف التقليد والمحاكاة!.. وهو موقف إسلامى يجعل من التدين بالأصول الإسلامية طاقة إيمانية تفجّر فى المسلم طاقات العزة والسيادة والغَلَب، فلا يرضى بالتبعية - السياسية.. والفكرية.. والاقتصادية.. والأمنية - للمركزية الغربية، والهيمنة الغربية... وهذا هو جوهر ما يخشاه الغرب ويحاربه الغربيون فى الإسلام!..

تلك هى الأسباب الحقيقية التى تشهد بها وتعلنها الشهادات الغربية.. للهجمة على الإسلام.. وهى أسباب تدعو المسلمين - وهم يخاطبون الغرب، ويقدمون إليه حقائق الإسلام - أن يتحدثوا من موقع العزة والاعتزاز بالإسلام - دونما تكبّر أو غرور - .. وألا يقعوا فى خطأ - بل خطيئة - تقديم التنازلات التى تزيّف الإسلام، على أمل أن يرضى عنه هؤلاء الذين يعادونه، لأنهم يعرفونه، ويعرفون حقيقته، وليس بسبب جهلهم له، كما

يحسب بعض السطحيين والجهلاء!. . وصدق الله العظيم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

* * *

وحقيقة أخرى من حقائق هذه الهجمة الغربية على الإسلام، هى أن عداء هؤلاء الذين يناصبون الإسلام العداء، ليس لأن المسلمين يغايرون الغرب فى الدين، ولا لأنهم يمارسون من الشعائر الدينية الإسلامية ما يخالف شعائر النصرانية الغربية. . فالديانات الوضعية، هى الأخرى، تغاير النصرانية الغربية فى الشعائر والاعتقادات، ومع ذلك فإنها لا تحظى بعشر معشار ما يحظى به الإسلام من العداء. .

ذلك أن الذى يناصب الإسلام العداء من الغربيين هم أولئك الذين يعرفون أنه ليس مجرد شعائر ومناسك وعبادات: ولا مجرد مالك لأقدم وأعرق المواريث الحضارية العالمية، وإنما هو، مع كل هذا وفوقه:

* «توحيد»، يجعل المؤمنين به يرفضون الخضوع لكل الطواغيت، وفى مقدمتها طاغوت الهيمنة الغربية وإمبرياليتها. .

* و«مشروع نهضوى»، يعنى - عندما يوضع فى التطبيق - ليس فقط تحرير ضمائر المسلمين وعقولهم من الهيمنة الثقافية الغربية، وإنما - أيضًا - تحرير أوطان العالم الإسلامى من القواعد العسكرية الغربية. . وتحرير محيطات العالم الإسلامى وبحاره من الأساطيل العسكرية الغربية. . وتحرير سياسات حكومات العالم الإسلامى من التبعية للمركزية الغربية. . ومن ثم إعادة الأمة الإسلامية إلى مكانتها الطبيعية فى مقدمة الأمم والحضارات. .

* والإسلام، مع ذلك وفوق ذلك، دعوة لتحرير ثروات العالم الإسلامى من استغلال الرأسمالية الغربية، المتوحشة.

إن العالم الإسلامى يمثل - فى الثروات-:

- «العالم الأول» فى البترول.. والغاز.. والمنجنيز.. والكروم.. والقصدير.. والبوكسيت.

وإذا كان مخزون البترول فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى النرويج - بحر الشمال - لن يزيد عمره - مقارنًا بالإنتاج الحالى - على عشر سنوات.. وعمره فى كندا ثمانى سنوات.. فإن عمر هذا المخزون فى العالم الإسلامى سيجعل هذا العالم هو المصدر الوحيد للطاقة على النطاق العالمى، فى المستقبل من الزمان.. فعمر المخزون الإيرانى ٥٣ عامًا.. وعمر المخزون السعودى ٥٥ عامًا.. وعمر المخزون فى الإمارات العربية المتحدة ٧٥ عامًا.. وعمر المخزون فى الكويت ١١٦ عامًا.. أما فى العراق، فعمر المخزون النفطى ٥٢٦ عامًا!!..(٤).

هذا غير بترول عالم الإسلام فى بحر قزوين.. وفى السودان ووسط أفريقيا..

تلك هى «كعكة الطاقة» التى تعض عليها الإمبريالية الأمريكية لتتحكم فى عالم القرن الواحد والعشرين!!..

- كما يمثل العالم الإسلامى - فى الثروات الخاضعة لاستغلال الشركات الغربية متعددة الجنسيات - يمثل العالم الثانى فى النحاس والفوسفات.

- والعالم الثالث فى الحديد..

- والعالم الخامس فى الرصاص..

- والعالم السابع فى الفحم.

- وفى العالم الإسلامى: أطول أنهار الدنيا.. وأقدم فلاح علم البشرية فن الزراعة.. والأرض الزراعية الصالحة لتكون سلة غذاء تحرر المليار ونصف المليار مستهلك من التبعية الذليلة للاستيراد والاستهلاك من الغرب.. كما أن فيه من

الشواطئ المترامية للبحار والأنهار والمحيطات ما يجعله مصدرًا عظيمًا للثروة السمكية . .

- وفى هذا العالم الإسلامى من الفوائض النقدية . . ومن مصادر التمويل للتنمية الاقتصادية ما يحقق الانعتاق من عبودية الديون الغربية، التى رهنت وترهن اقتصادات وثروات المسلمين وإرادتهم وحريتهم وكرامتهم لدى مراكز الهيمنة الاقتصادية الغربية . . ويكفى أن الزكاة وحدها، وخاصة «زكاة الركاز» التى تمثل ٢٠٪ من الثروات المركوزة فى الأرض - وأغلب ثروات العالم الإسلامى مركوزة فى الأرض - يمكن أن تتحول إلى صندوق تنموى يجعل تنميتنا بالحلال . . كما يجعلها مصدرًا لتحررنا! . .

- كذلك، يصدّر هذا العالم الإسلامى إلى الشمال - الأوروبى والأمريكى - بأرخص الأسعار - ٤٠٪ من المعادن . . و٣٥٪ من النفط . . و٩٣٪ من القصدير . . و٦٥٪ من الخشب . . و٤٠٪ من القطن . . بينما يحرمه الغرب من التقنيات التى تحقق استقلاله الاقتصادى وتنميته المستقلة . . بل ويحرمه الآن - بعد أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م فى أمريكا - من تعلم العلوم الدقيقة وتقنياتها . . بل وحتى من الدوريات العلمية، كما صنع مع العراق طوال سنوات الحصار! . . وذلك لاغتيال العقل العلمى فى بلاد الإسلام! . . والحيلولة دون امتلاك المسلمين استقلالهم الاقتصادى . . وامتلاكهم لأسلحة الردع التى تحمى هذا الاستقلال! . .

وفى هذه الميادين - ميادين التحرير لثروات العالم الإسلامى - تكمن المقاصد العظمى للتحرير، التى تتغياها الصحوة الإسلامية، التى يسمونها **«الأصولية التى تريد استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضى، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والمناداة بأن الإسلام دين ودولة، واتخاذ الماضى الإسلامى هداية للمستقبل الإسلامى»**.

لهذه الأسباب - الفكرية . . . والثقافية . . والاقتصادية - يتعرض الإسلام

لهذه الهجمة الغربية الشرسة والظالمة.. وليس بسبب الجهل به، أو لعيوب كامنة فيه.

* * *

إن المشهد الاقتصادى العالمى، الذى تريد الرأسمالية الغربية المتوحشة الحفاظ عليه، و تكريسه، معتبرة إياه «نهاية التاريخ» !.. يقول:

- إن ٢٠٪ من سكان العالم - هم أبناء الشمال - يستأثرون بـ ٦٨٪ من خيرات العالم.. بينما يعيش ٨٠٪ من البشرية - هم سكان الجنوب - على فتات ١٤٪ من ثروة العالم!..

- وإن ٢٢٥ فرداً من أبناء الشمال يملكون ما يوازى ملكية مليارين ونصف المليار من أبناء الجنوب - أى نحو نصف البشرية!..

- وإن ثلاثة أفراد فى أمريكا يملكون ما يساوى ملكية ٤٨ دولة عضواً فى الأمم المتحدة - أى قرابة ثلث أعضاء الأمم المتحدة!..

- وإن أكبر التجارات فى هذا المشهد الاقتصادى الغربى - الذى يعولمونه - هى تجارة السلاح والدمار.. تليها تجارة المخدرات.. تليها تجارة الدعارة!..

- وإن الشركات الرأسمالية الغربية - متعددة الجنسيات، ومتعدية القارات - التى تستنزف ثروات الجنوب - وفى القلب منه عالم الإسلام - هذه الشركات تقترض الدولارات من بنوك «وول ستريت» - بنيويورك - بفائدة قدرها ٦٪ لتعيد إقراضها لدول الجنوب بفائدة تتراوح بين ٢٠٪ و٥٠٪.. فتمتص دماء الشعوب، التى غدت صادراتها عاجزة عن سداد فوائد هذه الديون، ناهيكم عن أصول الديون!..

- وإن تدنى القدرة الشرائية لـ٨٠٪ من البشرية - سكان الجنوب - قد جعل رءوس الأموال المالية الغربية، الباحثة عن الأرباح السريعة والفاحشة، تنصرف بعيداً عن ميادين الإنتاج والخدمات، فتوظف ٩٧٪ من حجمها فى السمسرة

والمضاربات والمقامرات والمغامرات فى البورصات!.. الأمر الذى يحرم الإنتاج والخدمات من ثمرات رءوس الأموال هذه.. ويزيد من حدة البطالة والفقر فى عالم الجنوب - بل والشمال أيضًا - ويصيب اقتصاديات كثير من الدول بالهزات والكوارث والأزمات.

- وإن هذه الرأسمالية الغربية المهيمنة توظف ٩٠٪ من العقول العلمية- بشكل مباشر أو غير مباشر - فى صناعة السلاح والدمار ومتعلقاتها!..(٥).

ذلك هو المشهد الاقتصادى العالمى البائس، الذى يريدون - بمحاربة الإسلام- الحفاظ عليه، وتكريسه، وجعله «نهاية التاريخ».. لأنهم يعلمون أن اليقظة الإسلامية.. التى يسمونها «الأصولية» - تسعى منذ نشأتها - فى القرن التاسع عشر، على يد جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] - إلى تحرير اقتصادات العالم الإسلامى من هذا الاستغلال الغربى.. وهى قد أعلنت - على لسان الأفغانى قبل مائة وخمسين عامًا: **«أن غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية هى:**

- ثروة المسلمين للمسلمين..

- وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الإسلامى هى لهم، يتنعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها.

- ونفض اليد من رءوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية..

- وتحطيم نواجذ أوروبا، النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين، والمعادن، والغابات، وقُطُر الحديد، والجمارك. العقود التى ما دامت خارجة من أيدى العالم الإسلامى فسيظل عالة على الغرب»!(٦).

فمنذ فجر الصحوة الإسلامية الحديثة -التى يسمونها «الأصولية»- كان تحرير ثروات العالم الإسلامى من الاستغلال الغربى هدفًا رئيسيًا من أهدافها، أما

«الدروشة»، والوقوف عند التدين الشكلى، بإطالة اللحى، وتقصير الثياب، واستفراغ الطاقات والأوقات فى الجزئيات والثانويات.. فهو ما يسعد به ويتعايش معه هؤلاء الذين يشنون الحرب الصليبية على الإسلام؛ لأنهم يدركون المقاصد الحقيقية لصحوة الإسلام..

* * *

لكن..

لأن الغرب ليس كتلة واحدة صماء.. وليس كلُّ الغربيين ضالعين فى مشروع الهيمنة الغربية على العالم - والمظاهرات والاحتجاجات ضد العولمة.. وضد الحروب على العالم الإسلامى شواهد على ذلك-..

ولأن إسلامنا يعلّمنا العدالة التى تتنافى مع التعميم والإطلاق فى الأحكام.. فيتحدث قرآننا الكريم - مثلاً - عن أهل الكتاب فيميّز بين فرقائهم وفرقهم ومذاهبهم، مستخدمًا صيغ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٥] - ﴿كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٩] - ﴿طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٩] - ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].. وحتى فى حديث القرآن الكريم عن اليهود قتلة الأنبياء... الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.. والذين هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا.. والذين لعنهم الله لخروجهم عن شريعة موسى، عليه السلام، ولتحالفهم مع الوثنية العربية ضد التوحيد الإسلامى- حتى هؤلاء، لم يعمم القرآن الأحكام عليهم جميعًا، وإنما ميز بين فرقائهم، فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ

قَـائِمَـةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْـجُـدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: ١١٢- ١١٥]

لأن إسلامنا يعلمنا العدالة والموضوعـية فى النظر إلى الآخرين، فإن واجب المسلمين أن يقدموا حقـائق الإسلام للجماهير الغربية، التى هى ضحـية الثقافة المغـشوشـة، والفكر العنصرى، والزيف الإعـلامى، المتدفق مـن مراكـز قوى الهيمنة الإمبريالية، والذى يغترف - فى عدائه للإسلام، وتزييفه لحقيقته - من مخزون «الذاكرة الصليبية» القديمة.. فحاجة هذا الإنسان الغربى - الذى تضلله الأكاذيب الثـقافـية الموروثة، والتـزييف الإعلامى المعـاصر، والمؤسـسات التى أقامتها الرأسمالية الغربية للكذب - باسم صناعة الصورة وتوجيه الرأى العام - والتى يرتزق أصحـابها من «صناعـة الكذب»!، مصداقًـا لقول الله، سبـحانه وتعـالى، فى قـرآننا الكريم: ﴿وَتَجْـعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقـعـة: ٨٢].. إن حاجة هذا الإنسان الغربى إلى معرفـة حقيقة الإسلام، تفرض على المسلمين الاهتمام بتقديم هذه الحقيقة إلى هذا الإنسان.

وكمـا يمثل هذا الأمـر «حاجة ثـقافيـة.. وضرورة علمـية»، فـإنه يمثل - للمـسلمين - القيـام «بفريضـة دينية، وتكليف إلهى»، فـريضة أن ندعـو إلى الإسلام بالكلمة الطيـبة - التى شبهها القرآن الكريم بالشجرة الطيـبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].... وأن نحاور ونجادل طلاب الحقيقة والمحـتاجين إليها بالحكمة والموعظة الحسنة.. وبالتى هى أحسن - وليس فقط الحـسن!- رجاء أن تحل المودة بيننا وبين الذين يناصبـوننا العداء، مـحل هـذا العـداء: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ

عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].. فهى فريضة من فرائض الإسلام: أن نُبلِّغ دعوة الإسلام.. ونقيم الحجة على صدق الإسلام.. ونزيل الشبهات عن حقائق الإسلام.. وذلك فضلاً عن أن فى ذلك التحقيق لمقاصد الإسلام فى التعارف بين المسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب والثقافات والحضارات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]

فمن منطلق العزة الإسلامية، التى أراد الله، سبحانه وتعالى، لنا أن تكون من عزته وعزة رسوله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].. ومن منطلق الاعتزاز بالإسلام، الذى يمثل القوة الصاعدة على النطاق العالمى - رغم حالة الاستضعاف المفروضة على أهله- ومن منطلق نزع سلاح كُتّاب الإمبريالية، والهيمنة «الأمريكية - الغربية» والصهيونية.. وتجريدهم من «حججهم» الزائفة.. ومن منطلق تعريف الذين لا يعرفون حقائق الإسلام، وهو مقصد إسلامى أصيل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

من هذه المنطلقات جميعها نقدم فصول هذا الكتاب، التى تتناول عددًا من القضايا المثارة فى فضاءات الثقافة الغربية أساسًا حول الإسلام.. بمنهاج موضوعى، يعرض حقائق الإسلام مقارنة بما لدى الآخرين.. راجين أن تجد هذه الحقائق الإسلامية بسبيلها إلى العقول والقلوب التى تنشد «الحق».. الذى هو اسم من أسماء الله الحسنى.. وأن يكون «العدل» هو الميزان الذى توزن به هذه الحقائق.. «فالعدل» - هو الآخر - اسم من أسماء الله الحسنى..

والله الموفق إلى الصواب.. والهادى إلى سواء السبيل.

الهوامش:

(١) جوتفرايد كونزلن [مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا] ص ٢٢ - ٣٦، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(٢) نيكسون [الفرصة السانحة SEIZE THE MOMENT] ص ١٤٠. ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

(٣) فوكوياما - وهنتنجتون [نيوزويك] الأمريكية - العدد السنوى - ديسمبر ٢٠٠١م - فبراير ٢٠٠٢م-..

(٤) ملحق «الوسط» - صحيفة [الحياة] - لندن - فى ١٧-١- ٢٠٠٣م.

(٥) البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة [تقرير التنمية البشرية] لسنة ١٩٩٨م. انظر مقالات: صلاح الدين حافظ، ود. محمود عبد الفضيل ومحمد سيد أحمد، والسيد ياسين - [الأهرام] - القاهرة - فى ١٦ - ٩، ١٥ - ٦ - ١٩٩٨م، و١١ - ٣ - ١٩٩٩م. و: د. أحمد شوقى [مغزى القرن العشرين] المكتبة الأكاديمية- القاهرة.

(٦) لوثروب استودارد [حاضر العالم الإسلامى] - تعليقات: شكيب أرسلان - ترجمة: عجاج نويهض. المجلد الأول. جـ ١ ص ٣٢٨. طبعة بيروت سنة ١٣٩١هـ سنة ١٩٧١م.

صورة الآخر فى السماحة الإسلامية

السماحة - فى المصطلح الحضارى، العربى الإسلامى -: هى الجود.. أى العطاء بلا حدود.. وهى المساهلة واللين، فى الأشياء والمعاملات، دونما انتظار مقابل أو ثمن، أو حاجة إلى جزاء..

فشارع الإسلام، سبحانه وتعالى، قد شرعه لهداية العالمين، ولتحقيق مصالحهم الشرعية المعتبرة. ومقاصد شريعة هذا الإسلام هى تحقيق الضرورات، والحاجيات، والتحسينات للاجتماع الإنسانى، ومطلق الإنسانية، فى المعاش والمعاد.. والله، سبحانه وتعالى، غنى عن الخلق، الذين شرع لهم هذا الهدى الدائم، وأفاض عليهم هذه السماحة والجود بلا مقابل، وبلا حدود..

ولهذه الحقيقة، خلا الإسلام من كهانة الأحبار والرهبان، الذين استغلوا أهل دياناتهم مقابل إرشادهم إلى التدين بتلك الديانات.. فالمسلم يأخذ دينه من الشارع، مباشرة، ودون مقابل، وهو يؤوب ويتوب إلى بارئه، مباشرة، ودون وساطات ولا إتاوات..

ولذلك كانت السماحة صفة لصيقة بالإسلام، ومميزة لهذا الإسلام.. كما كانت صفة واقعية، تجسدت فى أمته وحضارته وتاريخه، ولم تكن مجرد «مثاليات» استعصت على التطبيق.. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**إنى أرسلت بحنيفية سمحة**» -رواه الإمام أحمد- و«**أحبُّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة**» -رواه البخارى والإمام أحمد-..

* * *

وليس جديدًا أن يكتب كاتب عن سماحة الإسلام، ولا أن يقارن بين هذه السماحة الإسلامية ونظائرها فى الأنساق الدينية والفلسفية والحضارية الأخرى..

لكن الذى تريد أن تقوله هذه الصفحات هو أمر متميز تميزًا نوعيًا فى الكتابة حول هذا الموضوع.. فهى تريد أن تقول، من خلال الأصول والمبادئ والقواعد الإسلامية.. ومن خلال تطبيقاتها العملية فى الحضارة الإسلامية، وفى التاريخ الإسلامى: **إن السماحة قد بدأت، فى التاريخ الإنسانى، بظهور الإسلام، وإنها قد بلغت فيه مستوى متميزًا، لا نظير له خارج الإسلام..**

* لقد ظهر الإسلام، على يد رسوله محمد بن عبد الله ﷺ وليس فى العالم دين ولا حضارة تعترف بالآخر، أو تسالم الآخرين..

فاليهودية التلمودية، قد تحولت إلى «ديانة عنصرية» يقول لها «عهدها القديم» إن اليهود -بحكم الولادة والعرق والدم والجنس.. وليس بحكم التدين والصلاح والتقوى- هم شعب الله المختار، وأبناؤه وأحباؤه! ..كما يقول لهم «عهدهم القديم» هذا: إن علاقتهم بالآخرين -كل الآخرين- ليست فقط الكراهية واللعن والإنكار، بل المطلوب منهم أن «يأكلوا» الشعوب الأخرى أكلاً!.. فإبادة الآخرين -عندهم- تكليف إلهى: «..**والآن اقتل كل ذكر بين الصغار، وكل امرأة عرفت رجلاً ضاجعها**» [سفر الأعداد: ١٧:٣١] «**لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. مباركًا تكون فوق جميع الشعوب.. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم**» [سفر التثنية. إصحاح ٧: ٦، ٧، ١٤- ١٦]..

ولقد وصف القرآن الكريم هذه العنصرية اليهودية، المنكرة للآخر، بحكم كونه آخر، ولحقه فى الكرامة، بل وفى الوجود.. وصفها القرآن الكريم فقال: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾ [آل عمران: ٧٥]، ﴿**وَقَالَتِ**

الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾ [البقرة: ١١٣]، ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ** ﴾ [البقرة: ١١١]. .

* * *

* ولقد بادلت النصرانية اليهودية إنكارًا بإنكار. . فطبقت على اليهود ذلك المبدأ الظالم الذى ابتدعوه ونسبوه -زورًا وبهتانًا- إلى الذات الإلهية، عندما زعموا أن الله يعاقب الخلف بذنوب السلف حتى أربعة أجيال!. . «**فالرب - [عند اليهود]- لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع**» [سفر العدد. إصحاح: ١٤- ٨].

طبَّقت النصرانية على اليهود هذا «المبدأ» الظالم، وامتدت به إلى الأبد، فوضعت فى صلواتها لعن كل أجيال اليهود بذنب موقف أجدادهم الأولين من المسيح، عليه السلام!. .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإنكار النصرانى للآخر عندما أشار إلى دعواهم احتكار النجاة والجنة والخلاص ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ** ﴾ [البقرة: ١١١]. . ﴿ **وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾ [البقرة: ١١٣].

ولقد تجسد هذا الإنكار المتبادل للآخر، فى الواقع والممارسة والتطبيق، ثورات واضطهادات طفحت بها كتب التاريخ حيثما وجد اليهود والنصارى فى أى مجتمع من مجتمعات التاريخ. .

* * *

* ونفس هذا الإنكار للآخر، واحتقاره واضطهاده، وتجريده من الإنسانية وحقوقها صنعته «الحضارة» الغربية، فى بداياتها الإغريقية وفى طورها الرومانى. .

ففى «أثينا» - التى ينسبون إليها ابتداء الديموقراطية- كانت هذه الديموقراطية:

احتكـار القلة من الفرسـان الأشراف الملاك، الذين يجتمعون فى ميـدان أثينا، يمارسون الديموقراطية، ويتمتعون بجميع حقوقها.. أما غيرهم من البشر، فإنهم كانوا -برأيهم- «برابرة وهمجًا»، لا حظ لهم فى الديمـوقراطية، ولا نصيب لهم من أية حقوق للإنسان!.

وكذلك كـان حال هذه «الحضارة» فى طورها الرومـانى.. فعلى الرغم من إبداعـها القـانونى، الذى تبلور فى «مدونة» الإمـبراطور «جـستنـيان» [٥٢٧-٦٦٥م] إلا أن هذا القانون إنما كان حقًا من حـقوق السادة الفرسان، والأشراف الرومان.. أمـا الشعوب الأخرى، فلقـد كانوا -برأيهم- «برابرة»، لا حق لهم فى أن يطبق عليهم قانون السادة الرومان!..

* * *

* وإذا شئنا الإشارة إلى «دراسـة حالة تطبيقية» لهـذا الذى ساد العالم، من إنكار للآخـر، واضطهـاد كل طرف لكل آخـر - قـبل ظهـور الإسـلام وإبان ظهوره- فـيكفى أن نشير إلى «حالة مـصر».. فلقد شـاع فيها اضطهـاد أتباع «إخناتون» (١٣٨٠- ١٣٦٢ق.م] لأتباع المـعبود «آمـون».. فلما انتصـر أتباع «آمون» بادلوا أتباع «إخناتون» إنكارًا بإنكار واضطهادًا باضطهاد..

فلما ظهـرت النصرانيـة، وعرفت طريقـها إلى مصـر حول منتـصف القرن الميلادى الأول، لقيت هذه النصرانية إنـكارًا شديدًا واضطهادًا اقترب من الإبادة على يد وثنية الرومان المستعمرين والوثنية المصـرية.. ولقد بلغ هذا الاضطهاد الذروة فى عهد الإمبراطور «دقلديانوس» [٢٤٥- ٣١٣م]، الذى حوّل النصارى إلى طعام للأسود والنيران وأسماك البـحار!.. حتى لقد أرخ نصارى مصر - ولا يزالون- بعهده، وسموه «عصر الشهداء»![1]..

فلما تدينت الدولة الرومـانية بالنصرانيـة، فى عهد الإمبـراطور «قسطنطين» [٢٧٤- ٣٣٧م] مارست النصرانية -الرومانيـة والمصرية- الاضطهاد ضد الوثنية المصرية، فهدمت مـعابدها، وسحلت وذبحت فلاسفتها، وأحـرقت مكتباتها،

وعبثت بالآثار المصرية عندما حولت بعضًا منها إلى كنائس وأديرة.. حتى لقد قاد الأسقف «تيوفيلوس» -الذى تولى البطريركية المصرية ما بين سنة ٣٨٥م وسنة ٤١٢ م -«حملة اضطهاد عنيفة ضد الوثنيين، واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية، وتدمير مكتبتها وإشعال النار فيها.. وطالت هذه الإبادة مكتبات المعابد» وتم السحل والحرق لفيلسوفة الأفلاطونية الحديثة، وعالمة الفلك والرياضيات «إناتيه» [٣٧٠- ٤١٥م].. وذلك فضلاً عن تحطيم التماثيل..(٢)

ثم ما لبث الإنكار والاضطهاد أن أعملا قانونهما وسيوفهما -بعد اختلاف المجامع النصرانية حول طبيعة المسيح عليه السلام-فمارست النصرانية الرومانية- «الملكانية»- الإنكار والاضطهاد ضد النصرانية المصرية - «اليعقوبية»- فهرب النصارى المصريون إلى الصحارى والمغارات والكهوف.. وهرب رأس الكنيسة المصرية، البطرك «بنيامين» [١-٤١هـ ٦٢٣-٦٦٢م] ثلاثة عشر عامًا، حتى استدعاه وأمّنه وأكرمه، وحرر كنائسه وردها إليه قائد الفتح الإسلامى «عمرو ابن العاص [٥٠ق.هـ- ٤٣هـ ٥٧٤- ٦٦٤م] فاتحًا بذلك أولى صفحات كتاب السماحة والتسامح فى تاريخ مصر والمصريين!..

كان هذا هو حال الدنيا، وواقع العالم، وموقف أصحاب الديانات والحضارات من الآخر عندما ظهر الإسلام [٦١٠م- ١٣ق.هـ].

لم تكن هناك سماحة مع الآخر على الإطلاق.. بل لم يكن هناك اعتراف بالآخر على الإطلاق.. فماذا قدم الإسلام فى هذا الميدان؟..

* * *

* لقد بدأ الإسلام بوضع «لبنات عالمية إنسانية جديدة»، وغير مسبوقة.. بدأ بالتأكيد على أن الله، سبحانه وتعالى، هو رب العالمين ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ١].. وليس رب شعب دون شعب، ولا أمة دون غيرها من الأمم.. ثم أكد على أن الإنسان الذى كرمه الله بأن نفخ فيه من روحه، ليكون ربانيًا هو آدم أبو البشر أجمعين ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن**

صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٨، ٢٩].. ولذلك، فإن التكريم الإلهى هو لمطلق الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].. وليس هذا التكريم حكرًا لشعب من الشعوب، ولا لأبناء دين من الأديان أو حضارة من الحضارات..

ونفى الإسلام أن يكون التفاوت فى مراتب القرب من الله، سبحانه وتعالى، ثمرة «للصفات اللصيقة» -[العنصرية]- وجعل هذا التفاوت والتفاضل ثمرة لمعايير متاحة ومفتوحة أبوابها أمام كل إنسان.. فالتقوى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، هى معايير الصلاح فى المعاش والمعاد ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].. ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]..

ولم يحتكر الإسلام النجاة لأبناء شريعة دون الشرائع الأخرى التى جاءت بها الرسالات السماوية فى إطار الدين الإلهى الواحد، وإنما أكد على أن ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].. وأشار إلى أن الذين آمنوا بوحدانية الذات الإلهية، وبالغيب واليوم الآخر والحساب والجزاء، وعملوا صالحًا فى حياتهم الدنيا، وفق أية شريعة من الشرائع الإلهية الحقة، لا يمكن أن يستووا بالذين جحدوا الحق بعد أن عرفوه، فكفروا بالألوهية الواحدة، وبالغيب، ولم يعملوا صالحًا، وتنكبوا كل شرائع السماء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]...

ورفض الإسلام كل الفلسفات والأنساق الفكرية التى زعمت واجتمعت على أن العنف والقتال وسفك الدماء هى «غريزة.. وجِبِلَّة» مركوزة فى طبيعة الإنسان.. وقرر أن القتال استثناء، وليس القاعدة، وشذوذ عن طبيعة الفطرة السوية، وأنه مكتوب ومفروض على هذا الإنسان، بل ومكروه من الإنسان الذى يرتقى إلى المستوى الحقيقى للإنسان.. قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة،

غير المسبوقة، عندما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].. وبيَّنت السنة النبوية هذه الحقيقة القرآنية عندما قال رسول الله ﷺ: **«لا تتمنَّوْا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله»** - رواه الدارمي..

بل بلغ الإسلام على هذا الدرب غير المسبوق إلى الحد الذى أوجب فيه العدل حتى مع من نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].. ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة:٢]..

بل العدل حتى مع من نقاتل ردًا لعدوانه علينا ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]..

كما سن الإسلام قواعد «للفروسية الإسلامية»، غير مسبوقة ولا ملحوقة، فى تاريخ الحروب.. فالرسول ﷺ، قد **«نهى عن قتل النساء والولدان»** -رواه مالك فى [الموطأ]-.. وكان إذا بعث سرية قال لهم: **«أغزوا باسم الله، فى سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغُلّوا - [أى لا تخونوا]- ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا»** -رواه البخارى ومسلم ومالك فى [الموطأ]..

ولقد صاغ أبو بكر الصديق [٥١ق.هـ- ١٣هـ ٥٧٣- ٦٣٤م] وهو على رأس دولة الخلافة الراشدة.. هذه السنة النبوية «وثيقة لشمائل الفروسية الإسلامية» عندما أوصى «يزيد بن أبى سفيان» [١٨هـ ٦٢٩م] وهو يودعه أميرًا على الجيش الذاهب إلى الشام، فقال له: **«إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله.. وإنى أوصيك بعشر: لا تقتلن امرأة. ولا صبيًا. ولا كبيرًا هرمًا. ولا تقطعن شجرًا مثمرًا. ولا تخربن عامرًا. ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة. ولا تحرقن نخلاً. ولا تفرّقنّه. ولا تَغْلُل. ولا تجبن..»** -رواه مالك فى [الموطأ]..

فشملت أخلاقيات الفروسية الإسلامية آداب التعامل مع الإنسان..

والحيوان.. والنبات.. والجماد.. لأن «الخليقة- الطبيعة» كلها حية، تسبِّح خالقها، وإن لم نفقه لغاتها فى التسبيح، فالعلاقة الإسلامية بها هى علاقة تآخٍ ورفق وارتفاق، وليست علاقة قهر وتدمير واستغلال..

وفوق كل ذلك، حصر الإسلام أسباب ومبررات استخدام هذه الضرورة وهذا الاستثناء -القتال- فى أمرين اثنين، هما: رد العدوان عن العقيدة، ليتحرر الضمير، ويكون الدين كله لله.. ورد العدوان عن الوطن -الذى هو وعاء إقامة الدين-وذلك بردع الذين يخرجوننا من ديارنا أو يظاهرون على إخراجنا من الديار ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧-٩]..

بل حتى هذا القتال - الاستثنائى.. المكروه.. والمفروض -قد جعله الإسلام «تدافعًا»، المقصد من ورائه تعديل المواقف، وتحقيق التوازن العادل، ليحل محل الخلل الفاحش، وصولاً إلى التعايش بين الفرقاء المختلفين.. وليس «صراعًا» يستهدف أن يصرع طرف الطرف الآخر، فيلغيه.. فالتعددية والاختلاف والتمايز سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وإذا كان «الصراع» ينتهى بإلغاء هذه التعددية، والقضاء على الآخر ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨].. فإن المقصد الإسلامى هو الإبقاء على التعددية، وتحقيق التوازن والتعايش بين فرقائها -بالتدافع لا بالصراع- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]..

فالتدافع سبيل للحياة، ولإصلاح الحياة.. بينما الصراع هو طريق الفناء..

***

صنع الإسلام ذلك كله، حتى مع المشرك الذى يعبد الأوثان والأصنام من دون الله . .

أما مع أصحاب الشرائع الدينية، الذين جاء الإسلام وكل منهم ينكر الآخر، ويلعنه فى صلواته، ويصب عليه ألوان الاضطهادات والإبادات - بحسبان ذلك مما يقربه إلى الله!! . . فإن الإسلام- فى تعامله مع أهل هذه الشرائع- قد أضاف إلى تقريره وحدة الألوهية والربوبية لكل العالمين، ولكل عوالم المخلوقات . . أضاف إليها عقيدة الإيمان بكل الكتب السماوية التى نزلت . . وجميع النبوات والرسالات التى سبقت . . وسائر الشرائع الإلهية التى توالت منذ آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام . .

فوحدة الدين والملة عبر التاريخ الإنسانى تجعل جميع الأنبياء أبناء أب واحد- دين واحد- وتجعل شرائعهم المتعددة تنوعًا فى إطار الدين الواحد -فأمهاتهم- شرائعهم- شتى، وأبوهم -دينهم- واحد . . وصدق رسول الله ﷺ عندما أكد هذه الحقيقة، فقال: «**الأنبياء إخوة من عَلاَّت، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد**» - رواه البخارى ومسلم وأبو داود- . . ﴿**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾ [البقرة: ٢٨٥] . .

وبهذا الأفق الإسلامى فى السماحة، احتضن الإسلام الكل، وجعل الإيمان فيه شاملاً لكل ما أوحت به السماء على مر تاريخ الوحى إلى كل الرسل والأنبياء . . وبذلك، ولأول مرة فى التاريخ، **جعل الإسلام «الآخر» جزءًا من «الذات»، فتجاوز، بهذا المستوى غير المسبوق فى السماحة، مجرد الاعتراف بالآخرين، والقبول بالآخرين.**

ولهذا كان الحديث الإيجابى، والمنصف، والموضوعى عمّا لدى الآخرين . . فكتبهم، التى يعترف علماؤهم هم بتلفيقها، ووضعها، وتحريفها(٣)، لم يعمم القرآن الكريم عليها هذا التحريف، وإنما تحدث عن هذه الكتب فقال: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ**

التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٢ - ٤] . . وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦] . .

ولم ينهِ الإسلام الذين آثروا الشرائع الأخرى عن الاحتكام إلى ما بأيديهم من الكتب، بل أمرهم بتحكيمها ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] . . ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] . .

ووجدنا تطبيقات هذا الموقف، غير المسبوق، فى حوار الصحابى «حاطب ابن أبى بلتعة» [٣٥ق.هـ - ٣٠هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م] مع «المقوقس» عظيم القبط بمصر، عندما حمل إليه «حاطب» كتاب رسول الله ﷺ سنة ٧هـ، سنة٦٢٨م، فقال له: «**إننا ندعوك إلى الإسلام: الكافى به الله فقد ما سواه، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به**»![(٤)] . .

كذلك بلغ الإسلام على درب العدالة والموضوعية والإنصاف، الحد الذى جعله لا يهمل الفروق الدقيقة بين فصائل وتيارات أى «آخر» من الآخرين . . فلم يعمم الأحكام ولا الأوصاف على أهل الكتاب، وإنما رأينا قرآنه الكريم يقول: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣] . . ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] . . ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]- . . فلا يسوى القرآن، ولا يعمم الأحكام والأوصاف على فصائل أهل الكتاب وتياراتهم

وفرقهم. ثم يقعّـد لقاعدة «عدم التعمـيم» هذه، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. .

ولـم يقف الإسلام بهـذا الأفق، غير المسبـوق، فى السماحة والتـسامح عند «الآخر»، المتـدين بديانات سماوية فـقط -أهل الكتاب من اليهـود والنصارى- وإنما امتد به ليـشمل المتدينين بالديانات الوضعـية. . فتركـهم، هم أيضًا، وما يدينون، وعاملهم، فى الدولة الإسلامـية، معاملة أهل الكتاب. . فـعندما فتح المسلمون فـارس -وأهلها مجوس، يعـبدون النار، ويقولون بإلهين، أحـدهما للخيـر والنور، والثانى للشر والظلمـة -عرض أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب [٤٠ق.هـ - ٢٣هـ - ٥٨٤- ٦٤٤م] رضى الله عـنه، أمـرهـم على «مـجلس الشـورى» -مجلس السـبعـين- الذى كان يجـتـمع بمسجـد المدينة، فى مكان محدد، وأوقات محددة. . «وكان عمر يجلس معهم فيه، ويحدّثهم عمّا ينتهى إليه من أمر الآفاق» والولايات والأقاليم - فقال لأعضاء مجلس الشورى:

- **كيف أصنع بالمجوس؟**

فوثب عبد الرحمن بن عوف [٤٤ق.هـ- ٣٢هـ- ٥٨٠- ٦٥٢م] فقال:

- **أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «سنّوا فيهم سنّة أهل الكتاب»**(٥)..

فعوملـت الديانات الوضعية مـعاملة الكتابية. . وجـاء الفقهاء فـقعّدوا هذه السنة النبوية، وهذا التـطبيق الراشدى لها، فـقالوا: لقد كـانت لهذه الديانات كتب ثم ضاعت. .

وحتى ندرك سـمو هذا الأفق الإسلامى الجديـد، فى السماحة والتـسامح، والذى بدأ الإسلام به التاريخ الحقـيقى للسماحة فى مسيرة الإنسـانية وشرائعها وفلسفـاتها وحضـاراتها، نلفت الأنظار إلى حـقيقـة أن الإسلام لم يصنع هذا الاعـتراف «بالآخـر»، والقـبول لهـذا «الآخـر»، وتمكين «الآخـر» من إقامـة عقائده. . لم يصنع الإسلام كل ذلك باعتبـاره مجرد «مباح»، وحق من حقوق

هذا «الآخر»، وإنما جعل ذلك فريضة إسلامية، وشرطًا لاكتمال الاعتقاد بعقائد الإسلام! . .

وأكثر مـن هذا، وفوقه. . فإن الإسـلام لم يقف بذلك الأفق السامى، عند «الآخر» الذى يبادل الإسلام اعـترافًا باعتراف، وقبولاً بـقبول، وإنما صنعه مع «الآخر» الذى ينكر الإسـلام ويجحده ويكفر بمقومـاته- وكل الآخرين، الذين ينكر كل واحد منهم صاحبه، يجتمعون جميعًا، حتى هذه اللحظة، على إنكار الإسلام وجحوده والكفران به. . فـلا يؤمنون بأن قرآنه وحى سماوى، ولا بأن رسوله مبعوث إلهى، ولا بأن ما جاء به دين إلهى - ومع كل ذلك، وبرغمه، كان هذا هو موقف الإسـلام -غير المسبوق وغير الملحـوق- فى الاعتراف بكل الآخرين، الذين ينكرونه ويجحدونه. . بل لقد تجـاوز الاعتراف بهم، والقبول لهم، ووصل إلى حد جعلهم جزءًا من «الذات»، ذات الدين الإلهى الواحد. . وذات الأمة الواحدة. . بل وجـعل تمكينهم من حرية إقامة جـحودهم بالإسلام شرطًا من شروط اكتمال عقيدة الإسلام، وإسلامية دولة الإسلام! . .

فهل فى تاريخ الدنيا والأمم والحـضارات والشرائع والثقافـات والفلسفات - قبل الإسلام وبعده- سماحة شبيهة بهذه التى بدأت بالإسلام. . والتى تفرد بها الإسلام؟ . .

* * *

* ولـم يكن هذا الذى قرره الإسـلام، وابتكره، وأنجزه مـجرد «فكر نظرى» كتلـك الوصايا «الصـوفية- المثـالية» التـى تضمنتـها كتب سـابقة علـى القرآن الكريم، لم تعرف طريـقها إلى أية تطبـيقات فى ممارسات ومـجتمـعات الذين «حُمِّلوها فلم يحملوها. . واستحفظوا عليها فلم يحفظوها». .

وإنما تحـوّل هذا الـذى قـرره الإسـلام، وابتكره إلى «حـيـاة. . ودولة. . وحضارة. . وتاريخ». .

* ففى دولة المدينة، التى رأس حكومتها رسول الله ﷺ نص «دستورها» - [الصحيفة- الكتاب]- على التعددية الدينية لرعية هذه الدولة الإسلامية الأولى، وعلى مساواة العدل والإنصاف فى حقوق المواطنة بين هذه الرعية المختلفة والمتعددة فى الدين.

لقد حوّل الإسلام «القبائل» إلى لبنات فى بناء «الأمة» الجديدة، وجعل أبناء الشرائع الدينية المتعددة لبنات أصيلة فى هذه الأمة الواحدة، وفى رعية هذه الدولة الإسلامية الواحدة.. حتى إن تاريخ الفكر الإسلامى لم يعرف مصطلح «الأقلية»، وإنما عرف «الأمة الواحدة»، التى جعل الإسلام تنوعها واختلافها- فى الشرائع الدينية.. وفى الشعوب والقبائل.. وفى الألوان والأجناس.. وفى الألسنة واللغات والأقوام.. وفى المناهج والثقافات والحضارات والعادات والتقاليد والأعراف -سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. فنص «دستور» الدولة الإسلامية الأولى- الذى وضعه الرسول ﷺ عقب الهجرة إلى المدينة- على أن «**لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَر عليهم.. وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم.. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه..**»(٦).

وهكذا أسس هذا «الدستور» -فى الدولة الإسلامية الأولى- لكامل المساواة والإنصاف فى حقوق المواطنة وواجباتها، على نحو غير مسبوق وغير ملحوق فى الإطار غير الإسلامى، منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا..

ويزيد من عظمة هذا الإنجاز لهذه التعددية وهذه المساواة، أنها لم تتم على أنقاض الأديان المختلفة، وفى ظل استبعاد هذه الأديان، كما هو الحال مع حقوق المواطنة فى الدول العلمانية، وإنما هى تعددية ومساواة بين فرقاء

يحتفظون بتنوعهم الدينى واختلافاتهم العقائدية. . كما أن هذه التعددية وهذه المساواة فى حقوق المواطنة لم تتم على أنقاض المرجعية الإسلامية، وبسبب استبعادها -كما يريد العلمانيون- وإنما الذى أنجزها هو الإسلام، والتى حكمتها هى المرجعية الإسلامية، التى نص عليها هذا «الدستور» عندما قال: «وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ»(٧). .

* وفى أول احتكاك بين هذه الدولة الإسلامية الأولى وبين النصارى، عندما اتسعت دائرة حدودها فشملت رعية نصرانية -هم نصارى «نجران»- كتب لهم رسول الله ﷺ عهداً وتعاقداً دستوريّاً قنن فيه هذه التعددية الدينية فى رعية الدولة، وكامل المساواة والإنصاف فى حقوق المواطنة وواجباتها، وجاء فى هذا العهد: «ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يُغَيَّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا يُحشَرون [أى لا يكلفون بالقتال]، ولا يعشّرون [أى لا يدفعون العُشر الذى يدفعه التجار الأجانب]، ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقّا فبينهم النَّصَف غير ظالمين ولا مظلومين.. وأن أحمى جانبهم، وأذُبّ عنهم وعن كنائسهم وبِيَعِهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، حيث كانوا من جبل أو واد أو مغار أو عمران أو سهل أو رمل. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا، من بر أو بحر، شرقًا وغربًا، بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملّتى...ولا يدخل شىء من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين..

ولا خراج ولا جزية إلا على من يكون فى يده ميراث من ميراث الأرض، ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثله، ولا يُجار عليه، ولا

يُحَمّل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتها، ولا يُكَلّف شططًا، ولا يُتَجَاوز به حد أصحاب الخراج من نظرائه.

ولا يكلف أحد من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران، فإنه ليس على أهل الذمة مباشرة القتال، وإنما أُعطوا الذمة على أن لا يُكلّفوا ذلك، وأن يكون المسلمون ذُبّابًا عنهم، وجواراً من دونهم، ولا يُكْرَهوا على تَجهيز أحد من المسلمين إلى الحرب الذى يلقون فيه عدوهم، بقوة وسلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا من تلقاء أنفسهم، فيكون من فعل ذلك منهم وتبرع به حُمد عليه، وعُرف له، وكُوفئ به. ولا يُجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرهًا على الإسلام ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويُخفض لهم جناح الرحمة، ويُكف عنهم أذى المكروه حيث كانوا وأين كانوا من البلاد.

ولا يُحَمَّلوا من النكاح -[الزواج]- شططًا لا يريدونه، ولا يُكْرَه أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يُضارّوا فى ذلك إن منعوا خاطبًا وأبوا تزويجًا؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوه ورضوا به. وإذا صارت النصرانية عند المسلم -[زوجة]- فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها فى الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شىء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

ولهم، إن احتاجوا فى مرمّة بيعهم وصوامعهم أو شىء من مصالح أمورهم ودينهم، إلى رفد -[مساعدة]- من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يُرفدوا على ذلك ويُعاوَنوا، ولا يكون ذلك دَيْنًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله، وموهبة لهم، ومنّة لله ورسوله عليهم.

... لأنى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، بالعهد الذى استوجبوا حق الذمام، والذّب عن الحرمة، واستوجبوا أن يُذَبّ عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..».

وإذا كانت الدهشة تتملك قلوب وعقول أهل هذا العصر الحاضر من هذا السخاء فى المساواة والعدل والإنصاف الذى أعطاه الإسلام ودولته «للآخر الدينى»، قبل أربعة عشر قرنًا، فإن هذه الدهشة -دهشة الذين لا يعرفون حقيقة الإسلام- ستزداد وتتعاظم عندما يعلمون -وتعلم الدنيا- أن الإسلام لم يطلب من هذا «الآخر الدينى» مقابل كل هذا السخاء فى «الحقوق» سوى «واجب واحد»، هو أن يكون هذا «الآخر» لبنة فى جدار الأمن الوطنى والحضارى للدولة الإسلامية، وأن يكون ولاؤه كاملاً للدولة والوطن، وانتماؤه خالصًا للأمة، التى هو جزء أصيل فيها، وألا يكون ثغرة اختراق لحساب أى من الأعداء..

فنص ذلك العهد والميثاق الدستورى -الذى عقده رسول الله ﷺ مع نصارى «نجران» - على هذا الواجب، عندما جاء فيه: «**واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم فى دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه، منها: ألا يكون أحد منهم عينًا ولا رقيبًا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلانيته، ولا يأوى منازلهم عدو للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا -[يساعدوا]- أحدًا من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم..**

وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤوهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئًا من الواجب عليهم..»(٨).

هكذا بلغ الإسلام القمة -غير مسبوق ولا ملحوق- عندما جعل «الآخر» يحافظ على اختلافه ومغايرته، وحرس وحمى هذه المغايرة وهذا الاختلاف، مع جعل هذا «الآخر» جزءًا من «الذات»، أى الأمة الواحدة، ورعية الدولة

الواحدة. . وعندما جعل كل ذلك جزءًا من الاعتقاد الإسلامى، والتكليف الإلهى والسنة النبوية، والسياسة الشرعية، وعهد الله وميثاقه، وليس مجرد حق من حقوق الإنسان، يمنحه حاكم ويمنعه آخرون! . .

* * *

* ولقد استمرت هذه السنة الإسلامية مرعية فى الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى، على امتداد هذا التاريخ. .

فجميع الفتوحات الإسلامية قد دارت كل معاركها ضد جيوش القوى العظمى الباغية والغازية التى استعمرت الشرق لعدة قرون -الفرس. . والروم- ولم تحدث معركة واحدة بين جيوش الفتح الإسلامى وبين أهل البلاد التى فتحها المسلمون، بل إن أهل هذه البلاد قد ساعدوا الجيوش الإسلامية بالدعم المادى والمعنوى، وأحيانًا بالقتال ضد الفرس وضد الروم، مع بقائهم على دياناتهم المغايرة للإسلام، والموافقة لديانات الفرس والروم! . . صنع ذلك أهل العراق. . ونصارى الشام. . وأقباط مصر. .

وعندما حررت الجيوش الإسلامية بلادهم، حررت -كذلك- ضمائرهم من الاضطهاد الدينى الذى عانوا منه عدة قرون، فتُركوا- لأول مرة فى تاريخهم- وما يدينون، وأصبحوا جزءًا من رعية الدولة الإسلامية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وظلوا أغلبية غير مسلمة فى بلادهم لعدة قرون، حتى دخل منهم من دخل فى الإسلام دون إكراه، بل ودون ترهيب، وفى أحيان كثيرة دون ترغيب! . . وبقى من بقى منهم على نصرانيته أو يهوديته أو زرادشتيته، شاهدين بذلك على هذه السماحة غير المسبوقة التى جاء بها الإسلام، والتى وضعتها دولته وحضارته فى الممارسة والتطبيق. .

وكما جعل الإسلام هذا «الآخر الدينى» جزءًا أصيلاً من الأمة الواحدة والرعية الواحدة للدولة الإسلامية، فتح أمام هذا «الآخر» باب الإسهام فى بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، وذلك بعد أن استوعب الإسلام كل المواريث

الحضارية السابقة، التى قهرها الغزاة -الإغريق والرومان- فأحياها الإسلام، وترجم المسلمون علومها وفنونها، فدخلت تلك المواريث فى النسيج الجديد للحضارة الإسلامية الجديدة، فكان الإحياء الإسلامى لعلوم وفنون وفلسفات مدارس «الإسكندرية» و«أنطاكية» و«جنديسابور» وغيرها، الإنقاذ الإسلامى للتراث الحضارى الإنسانى من القهر والضياع، الأمر الذى جعل الحضارة الإسلامية الجديدة، بالنسبة لشعوب البلاد التى دخلت فى الدولة الإسلامية، الطور الجديد لحضارتهم الوطنية والقومية، التى بنوها مع المسلمين فى ظلال مرجعية الإسلام.. فأصبح هذا «الآخر الدينى» جزءًا من «الذات» الوطنية والقومية والحضارية، مع بقاء التنوع الدينى حقّا مقدسًا من حقوق الضمير، لا سلطان عليه إلا لله؛ لأن الدين لله وحده، ولا يمكن أن يتأتى تدين حق مع أى لون من ألوان الإكراه..

* * *

* وكما فتح الإسلام الأبواب أمام هذا «الآخر الدينى» للإسهام فى بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، ترك هذا «الآخر» ليدير دولاب «الدولة» ودواوينها، حتى وجدنا مستشرقًا ألمانيّا حجة -هو «آدم متز» [١٨٦٩- ١٩١٧م] يشهد هذه الشهادة التى تقول: **«لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»!**[٩]..

ووجدنا المستشرق الإنجليزى «سير. توماس أرنولد» [١٨٦٤- ١٩٣٠م] يعلن عن سماحة الإسلام عندما يقول -وهو الشديد التدين بالنصرانية-: **«إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة. وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدى المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح..»**[١٠].

ولقد صدّق على هذه الشهادة، وفصّل مجملها الكاتب والمؤرخ النصرانى اللبنانى «چورچ قرم»، عندما حصر أسباب التوتر الطائفى، التى عرضت لفترات قليلة وعابرة، فى تاريخ المجتمعات الإسلامية، فى ثلاثة أسباب:

١- المزاج الشخصى المختل لحكام، اضطهدوا الأغلبية مع الأقليات..

٢- والظلم والاستعلاء الذى مارسته الزعامات والقيادات النصرانية واليهودية، التى تولت الوزارة وقبضت على جهاز الدولة المالى والإدارى، والتى كانت سوط عذاب للأغلبية الفقيرة من المسلمين، الأمر الذى ولّد ردود أفعال وفتنًا لم تقف عند الذين ظلموا وحدهم دون سواهم..

٣- واستجابة قطاعات محدودة من أبناء الأقليات الدينية لغوايات المستعمرين والغزاة لبلاد الإسلام، الأمر الذى ولّد ردود أفعال وفتنًا لم تميز - فى الأقليات- بين القلة التى سقطت فى شباك الغواية والخيانة وبين جمهور هذه الأقليات..

حصر هذا الباحث النصرانى هذه التوترات الطائفية -العارضة فى التاريخ الإسلامى- بهذه الأسباب الثلاثة، وكتب يقول:

«إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين فى الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصى، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا فى عهد المتوكل [٢٠٦- ٢٤٧هـ ٨٢١-٨٦١م] الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة. وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله [٣٧٥- ٤١١هـ- ٩٨٥-١٠٢١م] الذى غالى فى التصرف معهم بشدة.

العامل الثانى: هو تردى الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار.

أما العـامل الثالث: فهـو مرتبط بفتـرات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامـية، وقيـام الحكام الأجانب بإغراء واستـدراج الأقليات الدينية غـير المسلمة إلى التـعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة.. إن الحكّام الأجـانب - بمن فيهم الإنجليز - لـم يحجموا عن استـخـدام الأقليـة القـبطية فـى أغلب الأحيـان ليـحكمـوا الشعب ويـستنزفـوه بالضرائب -وهذه ظـاهرة نلاحظها فى سوريا أيضًـا، حيث أظهـرت أبحاث «جب» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجـال الاقتصادى أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصـارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز فى جبال لبنان سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٠م. ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها، فى أماكن عـديدة، أعمال ثأر وانتقـام ضد الأقليات المسيـحية -ولا سيـما الأرمن- التى تعاونت مع الغازى.

بل إنه كثيراً مـا كان موقـف أبناء الأقليات أنفـسهم من الحكم الإسـلامى، حتى عندما كان يعـاملهم بأكبر قدر من التسامح، سـببًا فى نشوب قلاقل طائفـية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميـين فى الابتزاز، وفى مراعاتهم وتحيزهم، إلى حـد الصفاقة، أحيـانًا، لأبناء دينهم، مـا كان يندر أن تصـدر منهم استـفزازات طائفـية بكل مـعنى الكلمة..»(١١).

تلك هى شهادة الباحث النصرانى اللبنانى، التى تـثنى على شهادة المستشرق النصـرانى الإنجليزى. . حـول أسـباب التـوترات الطائفيـة العـابرة فى تاريخنا الإسلامى. .

وإذا شئنا وقائع من التـاريخ -غير ما أشار إليـه «چورچ قرم»- شاهدة على صدق هذا الـتحليل والتـعليل، فمـا علينا إلا أن ننظر فيـما كـتبه «المـقريزى» [٧٦٦- ٨٤٥هـ- ١٣٦٥- ١٤٤١م] عن استعلاء النصارى واليهود الذين تولوا الوزارة والجبـاية والإدارة فى العصـر الفاطمى(١٢). . وما كـتبـه «المقريزى» - أيضًا- عن استقـواء نصارى دمشق «بهولاكو» والتتار، وقـائد التتار -النصرانى النسطورى- «كُتبغا»، إبان الاجتياح الـتترى للمشرق العربى والإسلامى. . وما

أثارته هذه الخيانة من رد فعل جعل السلطان «قطز» [٦٥٨هـ ١٢٦٠م] يوقع بهم عقابًا شديدًا عقب الانتصار على التتار فى «عين جالوت» [٦٥٨هـ ١٢٦٠م] [١٣]. . وأن نقرأ -أيضًا- ما كتبه «الجبرتى» [١١٦٧- ١٢٣٧هـ ١٧٥٤- ١٨٢٢م] عن خيانة «المعلم يعقوب حنا» [١٧٤٥- ١٨٠١م] -والذى يسميه «الجبرتى» «يعقوب اللعين» - والفيلق القبطى الذى جنّده وقاده وحارب به الشعب المصرى لحساب الحملة الفرنسية التى قادها «بونابارت» [١٧٦٩- ١٨٢١م] ضد مصر [١٢١٣هـ ١٧٩٨م]، وكيف «**عهد الجنرال «كليبر» [١٧٥٣- ١٨٠٠م] إلى الجنرال يعقوب أن يفعل بالمسلمين ما يشاء.. حتى تطاول هو وأنصاره على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين!..**»[١٤].

وما أحدثته هذه الاستجابات لغوايات الغزاة والمستعمرين من توترات طائفية فى النسيج الوطنى والقومى الحضارى فى تلك الفترات من التاريخ. .

لكنها ظلت فى إطار «التوترات العابرة»، التى ارتبطت بفترات الغزو، وبالاستجابات المحدودة من قطاعات محدودة لغوايات الغزاة. . بينما ظل النسيج الوطنى والقومى والحضارى مجسدًا للتنوع فى إطار الوحدة، وللاختلاف فى إطار الأمة الواحدة، والحضارة الواحدة، والقومية الواحدة، والدولة الواحدة، تلك الجوامع التى أنجزتها سماحة الإسلام. .

* * *

وإذا كان الشيء يظهر حسنه الضد. . وبضدها تتميز الأشياء. . فما علينا إلا أن نقارن بين هذه الأمثلة:

* مثال: انتصار الإسلام على الشرك الوثنى، ذلك الذى فتن المسلمين فى دينهم، وأخرجهم من ديارهم. . وعلى الخيانة اليهودية، التى تحالفت مع الشرك الوثنى ضد التوحيد الإسلامى. . انتصار الإسلام عليهم، فى عشرين

موقعة هي التى دار فيها قتال.. ما بين سنة٢هـ وسنة٩هـ-.. هذا الانتصار الذى غيّر وجه الدنيا والحضارة والتاريخ، وكيف أن ضحايا كل هذه المعارك - من الفريقين- لم تتجاوز ٣٨٦ قتيلاً- ١٨٣ هم مجموع شهداء المسلمين و٢٠٣ هم كل قتلى المشركين!![١٥].

بينما نجد الحرب الدينية -التى دامت أكثر من قرنين- داخل النصرانية ذاتها، بين الكاثوليك والبروتستانت، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر- قد أبيد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا.. ووفق إحصاء «ڤولتير» [١٦٩٤-١٧٧٨م] بلغ ضحاياها عشرة ملايين نصرانى!![١٦].

هذا مثال..

* **ومثال ثان**: نقارن فيه بين ترك الإسلام الناس وما يدينون؛ لأنه ﴿**لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة:٢٥٦].. ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف:٢٩].. و﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون:٦].. و﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ [المائدة:٤٨].. وهى المبادئ والقواعد والتشريعات القرآنية التى جسدتها عهود ومواثيق رسول الله ﷺ، مع اليهود والنصارى..

نقارن بين هذا المثال الإسلامى وبين اغتيال الكنيسة الأوروبية لحرية الاعتقاد الدينى بمحاكم التفتيش التى أعملت التعذيب والسجن والإحراق والإغراق والإعدامات على الخوازيق لأكثر من ثلاثة قرون[١٧]!!.. وكذلك، ما صنعه الملوك والأمراء والقساوسة عندما فرضوا على الناس بحد السيف ديانة النصرانية.. رغم صوفيتها المسالمة وسلامها المتصوف ووصاياها بحب الأعداء ومباركة اللاعنين!.. وبشهادة «السير. توماس أرنولد»، فإن «شارلمان» [٧٤٢-٨١٤م] قد فرض المسيحية فى السكسونيين بحد السيف.. وكذلك صنع الملك «كنوت» فى الدانمرك.. وجماعة إخوان السيف فى بروسيا.. والملك «أولاف ترايجفيسون» فى جنوب النرويج.. والأمير «فلاديمير» فى روسيا سنة ٩٨٨م..

والأسقف «دانيال بيتروفتش» فى الجبل الأسود.. والملك «شارل روبرت» فى المجر.. والملك «سيف أرعد» فى الحبشة.. كل هؤلاء استأصلوا المخالفين لمسيحيتهم، وقطعوا أيديهم، وأرجلهم، وذبحوهم ونفوهم وشردوهم، بمجرد تدين هؤلاء الملوك والأمراء بالنصرانية!![18]..

* ومثال ثالث: نقارن فيه بين سماحة الإسلام، التى جعلت الدولة الإسلامية «منتدى» تتعدد فيه الديانات والمذاهب واللغات والقوميات والأجناس والألوان، على امتداد تاريخ الإسلام، منذ دولة النبوة فى المدينة المنورة وحتى هذه اللحظات.. وبين ضيق الغرب بالتعددية حتى داخل النصرانية- أى بالتعددية المذهبية- حتى إنه لم يعرف التعددية إلا على أنقاض سلطان النصرانية، وفى ظل العلمانية، ثم رأيناه -حتى فى ظل هذه العلمانية، ودعاوى الحرية وحقوق الإنسان- لا يزال ضيق الصدر «بالآخر الإسلامى».. ففى داخل المجتمعات الغربية يرى الوجود الإسلامى غزواً وفتحًا إسلاميًا لأوروبا!، فيقول كبار قساوسة الغرب: «**إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوروبا وللغرب عمومًا.. وإن العالم الإسلامى قد بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية.. فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديداً**»؟![19]..

أما فى ديار المسلمين، فلقد سعى هذا الغرب النصرانى -برعاية ودعم العلمانية الغربية للكنائس الغربية! - سعى إلى تنصير المسلمين فى ديارهم.. فجاء فى «بروتوكولات قساوسة التنصير، الذين اجتمعوا فى مؤتمر «كولورادو» بأمريكا مايو سنة ١٩٧٨م: «**إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة، اجتماعيًا وسياسيًا.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقه فى صدق ودهاء.. ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين**»[20].

ولقد خططوا -فى وثائق هذا المؤتمر- لاختراق الثقافة الإسلامية، والوصول إلى تنصير المسلمين بالاعتماد المتبادل مع الكنائس الوطنية المحلية!.. والعمالة الفنية المدنية الأجنبية!.. وبالتركيز على المرأة!.. والمبعوثين المسلمين فى المجتمعات الغربية.. وباستخدام الفنون والآداب!.. بل وبصناعة الكوارث التى تُخل بتوازن المسلمين فتسهل تحولهم عن الإسلام إلى النصرانية!!..

فقالوا: **«لكى يكون هناك تحول إلى النصرانية، فلا بد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس -أفرادًا وجماعات- خارج حالة التوازن التى اعتادوها!.. وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنى.. وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية!.. ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمرًا مهمّا فى عملية التنصير!!.. وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى!!!..»**[٢١].

وكذلك سعى الغرب «السياسى- العلمانى» إلى شن حرب داخل الإسلام، لإرغام الإسلام على قبول «العلمانية الغربية»، التى تجعله صيغة نصرانية، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. وعلى قبول «الحداثة» -بمعناها الغربى- التى تقيم قطيعة معرفية كبرى مع الله والغيب، عندما «تَؤَنْسِنُ» الدين، فتفرغه من الدين![٢٢]..

هذه «الحداثة الغربية»، التى عرّفها أنصارها بأنها: **«إحلال «الدين الطبيعى» محل «الدين الإلهى» فالدين الطبيعى هو الدين الحقيقى»!**[٢٣].. وبأنها **«القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون..»!!**[٢٤].

تلك مجرد أمثلة ثلاثة، من الجانب الآخر، للذين يحتاجون إلى المقارنات.

* * *

هكذا بدأت السماحة فى تاريخ الإنسانية بظهور الإسلام. . وهكذا وضعت الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية هذه السماحة فى الممارسة والتطبيق، عبر تاريخ الإسلام والمسلمين. . ومن حق المسلمين أن يباهوا الدنيا بهذا المستوى الإسلامى، غير المسبوق، والمنقطع النظير، فى السماحة التى تجاوزت الاعتراف بالآخر -الذى يبادل الإسلام اعترافًا باعتراف- إلى مستوى الاعتراف بالآخر الذى لا يعترف بالإسلام، وإنما يجحده وينكره ويكفر به. . والتى جعلت تمكين هذا الآخر من إقامة كفره بالإسلام جزءًا من عقيدة الإسلام، وواجبًا من واجبات الدولة الإسلامية. . حتى لقد بلغ الإسلام -على هذا الدرب- إلى الحد الذى جعل فيه هذا «الآخر» جزءًا لا يتجزأ من «الذات» الوطنية والقومية والحضارية، كما جعل الأقوام والأمم والشعوب والقبائل والحضارات تنوعًا فى إطار الإنسانية، التى أراد الله، سبحانه وتعالى، لها هذا التنوع وهذه التعددية سنة دائمة وقائمة إلى يوم الدين. .

وإذا كان الشىء يظهر حسنه الضد. . وبضدها تتميز الأشياء. . فإن عظمة هذه السماحة الإسلامية تزداد بهاء وجلالاً عندما نراها فى ضوء هذا «البؤس» الذى صنعه ولا يزال يصنعه الآخرون!

وإذا كان من حق المسلمين أن يباهوا بهذه السماحة الإسلامية، فإن من شيم العقلاء، وواجباتهم فقه هذه السماحة، والتعلم منها، والاستجابة إلى كلمتها الإسلامية السواء. . وذلك بدلاً من شن الحروب الصليبية. . والدينية. . والحديث عن صدام الحضارات وحروب الثقافات. .

وآخر دعوانا أن الحمد لله على نعمة الإسلام، وسماحة الإسلام.

* * *

الهوامش:

(١) يوحنا النقيوسى [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٩٠- ٩٥: ترجمة ودراسة وتعليق: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.

(٢) المصدر السابق : ص ١٢٢، ١٢٥، ١٣٠. و:د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٤٠، ٤١، ٤٩، ١٢٦، ١٦٧، ١٦٨. طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.

(٣) انظر كتاب [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث] تحرير: زالمان شازار. ص ٣١، ٣٣ - ٣٥، ٣٧ - ٣٩، ٤٤، ٥٠ - ٥٢، ٥٩، ٦٠، ٦٥ - ٦٨، ٧٠ - ٧٤، ٧٩، ٨٠، ٨٨، ٨٩، ٩٣ - ٩٦، ٩٨ - ١٠١، ١٠٥، ١٠٧، ١١١، ١١٧، ١٣١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٦ - ١٦٠، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠ - ١٩٢، ١٩٤ - ١٩٦، ٢٠٥ - ٢٠٧، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٦. ترجمة: أحمد محمد هويدى. مراجعة: محمد خليفة حسن. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٤) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص٤٦: طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

(٥) البلاذرى [فتوح البلدان] ص ٣٢٧. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٦) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص١٧- ٢١. جمعها وحققها: د. محمد حميد الله الحيدر آبادى. طبعة القاهرة سنة١٩٥٦م.

(٧) المصدر السابق: ص٢٠.

(٨) المصدر السابق: ص١١٢، ١٢٣- ١٢٧.

(٩) آدم متز [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] جـ١ ص١٠٥. ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

(١٠) سيرتوماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩، ٧٣٠: ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(١١) چورچ قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوچية وقانونية مقارنة] ص ٢١١- ٢٢٤. طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م. والنقل عن: د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص ٧٢٩، ٧٣٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

(١٢) المقريزى [اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا] ص ٢٩٧، ٢٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م. و[الخطط] جـ٢ ص ١٢٣. طبعة دار التحرير القاهرة.

(١٣) المقريزى [كتاب السلوك إلى دول الملوك] جـ ١ ق٢ ص٤٢٥، ٤٣٢. تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(١٤) الجبرتى [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] جـ٥ ص ١٣٦، تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، السيد إبراهيم سالم: طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

(١٥) انظر: ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م. وانظر كتابنا [الإسلام والآخر] ص ٦٥ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(١٦) انظر فى هذه الحروب الدينية: ول ديورانت [قصة الحضارة] مجلد ٦ جـ٣، ٤. ترجمة: د. عبد الحميد يونس. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م، سنة ١٩٧٢م.

وسير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠-٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢ - ١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤- ١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦. وبطرس البستانى [دائرة المعارف]- مادة «حروب دينية»- طبعة القاهرة الأولى . وهاشم صالح- صحيفة «الشرق الأوسط» -لندن- فى ٢٦/٢/٢٠٠٠م.

(١٧) د. توفيق الطويل [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] ص ٧، ٧٠، ٧٣، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩١م.

(١٨) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠، ٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢، ١٤٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤، ١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦.

(١٩) الكاردينال «بول بوبار» -مساعد بابا الفاتيكان، ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة- من حديث إلى صحيفة «الفيجارو» الفرنسية. والمونسنيور «جوزيبى برناردينى» -فى حضرة بابا الفاتيكان- انظر صحيفة «الشرق الأوسط» -لندن- فى ١، ١٣/ ١٠/١٩٩٩م.

(٢٠) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] ص ٤٥٢، ٢٢، ٢٣- وهو وثائق مؤتمر «كولورادو»- الطبعة العربية. مالطا سنة ١٩٩١م.

(٢١) المصدر السابق: ص٢٤٢، ٨٢٦، ٤٦٩,٨٢٧، ٣٦٤، ١٤٧. وانظر كذلك ص ٧٨٩، ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥، ٧٣٢، ٧٣٣، ٨٨٠، ٦٤٤، ٨٣٩، ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٣٣٨، ٣٣٩. وانظر كتابنا [الغارة الجديدة على الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.

(٢٢) فوكوياما -مجلة «نيوزويك»- الأمريكية -العدد السنوى- ديسمبر سنة ٢٠٠١م- فبراير سنة ٢٠٠٢م.

(٢٣) هاشم صالح -صحيفة «الشرق الأوسط»- لندن- فى ١٣/١٢/٢٠٠١م.

(٢٤) د. على حرب -صحيفة «الحياة» -لندن- فى ١٨/١١/١٩٩٦م.

صورة الإسلام فى خطاب الهيمنة الغربية

مقدمات ثلاث:

فى الحديث عن «صورة الإسلام» وأمته وحضارته فى الخطاب الغربى، لا بد من التقديم بين يدى هذا الحديث بعدد من المقدمات:

أولاها: أننا لسنا بإزاء «صورة» واحدة؛ لأن الغرب ليس كتلة واحدة صماء، ومن ثم فإننا لسنا بإزاء خطاب غربى واحد فيما يتعلق بالإسلام..

وهذا الموقف، الذى يميز بين القوى والتيارات وألوان الخطاب، عن الإسلام فى الحضارة الغربية، ليس مجرد «ضرورة مصلحية» يقتضيها البحث عن الأصدقاء وتجنب تكثير الأعداء - وهى ضرورة مشروعة ومطلوبة- وإنما هو موقف نابع من «العدل» الذى يعلمنا إياه ويفرضه علينا القرآن الكريم..

ونحن نقول، للذين يسطحون القضايا العميقة، ويبسِّطون الأمور المعقدة والمركبة، عندما يرددون عبارة: «إن الكفر ملة واحدة».. نقول لهم: ولكن الإسلام لا يضع كل عالم الكفر فى سلة واحدة، ولا فى مرتبة واحدة وإنما ميّز الإسلام بين المشركين وبين الكتابيين.. بل إن الإسلام لم يضع المشركين جميعًا فى سلة واحدة، وإنما ميّز بين المحاربين منهم وبين المعاهدين الذين لم ينقصوا المسلمين شيئًا من العهود التى تعاهدوا معهم عليها، فدعا إلى قتال المقاتلين من المشركين، ودعا إلى الوفاء بعهود المعاهدين من المشركين.. بل وميّز الإسلام بين شرك الجاحد للحق الذى يعرفه، وبين شرك الجاهل، فإذا استجار هذا المشرك الباحث عن المعرفة، فعلى المسلمين إجارته، وتقديم المعرفة إليه، ثم إيصاله آمنا إلى مأمنه، وتركه لضميره، دونما إكراه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]. .

بل لقد ميّز الإسلام بين الدهريين، الذين استبدلوا الدهر بالخالق، سبحانه وتعالى، وبين المشركين الذين لم يجحدوا وجود الخالق وخلقه للخلق، لكنهم أشركوا مع الخالق الوسائط التى زعموا أنها تقربهم إليه زلفى! . . وتحدثت آيات القرآن الكريم عن هذا التنوع فى أصناف المشركين، فصاغت المنهاج العلمى فى دراسة الواقع، والموقف العادل فى التعامل مع الآخرين. .

وكذلك صنع المنهاج الإسلامى فى التعامل مع الكتابيين، فميز بين اليهود – الذين هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا –وبين النصارى– الذين هم أقرب مودة للمؤمنين–. . ثم هو لم يضع جميع النصارى فى سلة واحدة وإنما ميّز بين الموحدين منهم ، الذين يتعبدون على شريعة عيسى، عليه السلام، وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ﷺ ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق. . يميز الإسلام بين هؤلاء النصارى، وبين النصارى الذين عبدوا المسيح وأمه والأحبار والرهبان من دون الله، فوصفوا فى القرآن بصفات الكفر، بل وبالشرك أيضًا.

وكذلك صنع المنهاج القرآنى مع فصائل ومذاهب اليهود. . فمع حديثه عن عداوتهم الأشد للمؤمنين، نجد القرآن يبلغ قمة العدل عندما يقول إنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ –١١٥]. . بينما منهم الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. .

ويؤكد القرآن الكريم هذا المنهاج العادل فى التعامل مع الآخر الكتابى عندما يستخدم حرف التبعيض -«من»- للتمييز بين فرقائهم ومذاهبهم، فيقول: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩]. . وعندما يتحدث عن ﴿طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٩]. . أو ﴿كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة:١٠٩]. . دونما إطلاق أو تعميم. .

ومع اشتراك الفرس والروم -يوم ظهر الإسلام- فى التجبر والظلم والهيمنة والاستعمار، وإعلان الإسلام عن سعيه لتحرير الأرض من استعمارهم وتحرير الضمائر من تجبرهم وإكراههم، إلا أن الإسلام لم يسوّ بين هذين الطاغوتين -الفرس والروم- فميز القرآن بين الكتابيين منهم -الروم- وبين المجوس- الفرس- عندما تحدث عن حزن المسلمين لتغلّب الفرس على الروم، وفرحهم يوم يأذن الله بانتصار الروم النصارى على الفرس المجوس: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥]. .

ففى إطار قوى التجبر والهيمنة هناك أيضًا فروق، لا يغفلها منهاج الإسلام فى رؤية الآخرين، وفى العلاقات مع هؤلاء الآخرين. . ولقد جاء فقهاء الإسلام وفلاسفته، انطلاقًا من هذا المنهاج القرآنى، فميزوا أصناف الكفر ودرجاته. . فهناك كفر جحود للحق الذى عرفه الجاحدون. . وهناك كفر جهل وتقصير. . وهناك كفر من بلغته الدعوة. . وكفر من لم تبلغه الدعوة. . أو بلغته مشوهة، ودون إقامة الحجة عليها وإزالة الشبهات عنها. . وفى ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠- ٥٠٥هـ- ١٠٥٨- ١١١١م]: «**إن أكثر نصارى الروم والترك فى هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى، أعنى الذين هم فى أقاصى الروم والترك، ولم تبلغهم الدعوة، فإنهم ثلاثة أصناف:**

صنف لم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً، فهم معذورون.

وصنف بلغهم اسـمه ونعتـه وما ظهر عليـه من المعجزات، وهم المجـاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون.

وصنف ثالث بين الدرجتين، بلغهم اسمّ محمـد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضًا منذ الصبـا أن كذابًا مُلَبِّسًا اسمه محمد ادعى النبوة، كـما سمع صبياننا أن كـذابًا يقال له المقـفع[1] بعـثه الله تحـدى بالنبوة كـاذبًا. فـهؤلاء عندى فى مـعنى الصنف الأول ـ [الذين لم يبلغـهم اسم الرسـول]- فإنهم مع أنهم سـمعـوا اسمـه، سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب»[٢].

بل وتحـدث الفقـهاء، أيضًـا، عن «كفـر النعـمة» الذى هو مـغاير «الكفـر الاعتقاد». . وقالوا بوجود «كفر دون كـفر» وبكفر «المقولة» دون كفر «القائل»، الذى قد يكون لديه تأويل حتى ولو كان فـاسدًا. . فلم يضعوا كل ألوان الكفر فى سلة واحدة ولا فى فسطاط واحد. . كما يصنع الذين يبسِّطون أمور التعامل مع الآخرين.

* * *

ولقد وضع عـلماء مدرسـة الإحيـاء والتجـديد الحديثة، فى بـلادنا، وقادة التحـرر الوطنى، الذين انطلقوا من هذا المنهـاج الإسلامى، لتـحرير بلادنا من الغزوة الاستعـمارية الغربية الحديثة. . وضعـوا هذا المنهاج الإسلامى -الذى لا يضع كل الآخـر فى سلة واحدة- فى الممـارسة والتطبـيق، وهم يتعـاملون مع الاستعمـار الغربى لعالم الإسلام، ومع الخطاب الغربى الذى كـان يمهد ويبرر لهذا الاستعمار.

فجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤- ١٣١٤هـ ١٨٣٨- ١٨٩٧م] قد تحدث عن هذا المنهاج فى المقال الافتـتاحى لمجلة «العروة الوثقى» التى صدرت [١٣٠٠هـ ١٨٨٣م] لسان حال «لجمعية العروة الوثقى» التى تكوّنت عقودها وخلاياها فى الشرق الإسـلامى- وذلك عندما تحـدث عن تحالف هذه الجمـعيـة مع الأحرار الأوروبيين فى البلاد الاسـتعمارية ذاتهـا. . فقال: «ولما كانت بدايتـهم تستدعى

مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة، ويحامون عنها من أهل أوربا»[٣].

ولقد سارت الحركات الوطنية فى بلادنا على هذا المنهاج.. فوجدنا مصطفى كامل باشا [١٢٩١- ١٣٢٦هـ ١٨٧٤- ١٩٠٨م] -باعث الوطنية المصرية ضد الاحتلال الإنجليزى، وداعية الجامعة الإسلامية، وزعيم «الحزب الوطنى» - يتحالف مع القوى الحرة والليبرالية فى فرنسا وأوروبا.. بل ويراهن على التناقضات بين الاستعمار الفرنسى والاستعمار الإنجليزى فى جلب التأييد لإجلاء الانجليز عن مصر..

وعلى درب مصطفى كامل باشا، سار خليفته فى زعامة الحزب الوطنى - بمصر- محمد بك فريد [١٢٨٤- ١٣٣٨هـ ١٨٦٨- ١٩١٩م] الذى لم يكتف بالتحالف مع الدولة العثمانية، والحركات الوطنية الإسلامية، وإنما تحالف أيضًا مع الاشتراكيين الأوروبيين وشارك فى المؤتمرات التى عقدوها.. بل وراهن على التناقضات بين الألمان وبين الإنجليز فى هذا الميدان..

وعلى نفس الدرب سارت حركات التحرر الوطنى المعاصرة فى بلادنا، عندما استفاد كثير منها من التناقضات التى قامت إبان الحرب الباردة بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الرأسمالى.. سواء أكانت هذه الاستفادة فى التسليح.. أم فى التصنيع.. أم فى قضايانا بالمحافل الدولية..

ذلك هو المنهاج الإسلامى فى النظر إلى الآخر -كل آخر- وفى التعامل معه، ومع الخطاب الصادر عنه.. فالبلاغ القرآنى القائل: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً..**﴾ هو عنوان المنهاج الإسلامى فى هذا المقام..

* * *

والمقدمة الثانية: هى أن الخطاب الغربى عن الإسلام وأمته وحضارته، ليس مجرد «مقولات نظرية»، ولا تعبيرات عن صور ذهنية مجردة، وإنما هو بناء فكرى مركب، نما عبر تاريخ الاحتكاك العنيف بين الغرب والشرق، لا ليقف

عند أفكار المفكرين وكتابات الكاتبين ونظريات المنظّرين، وإنما ليكون التبرير المسوّغ لهيمنة الغرب على الشرق، واحتلال أرضه، ونهب ما فيها من ثروات.. فهو خطاب تبريرى لتسويغ ممارسات لا أخلاقية، تجسدها الإمپريالية والاستعمار فى أرض الواقع.. وهذا الخطاب الغربى عن الإسلام وأمته وحضارته، تتوجه به الدوائر الاستعمارية الغربية إلى العقل الشرقى، لتغريب عقول شريحة من نخب مفكرينا ومثقفينا، الذين يتبنون هذه الصورة الغربية عن الإسلام وحضارته فيصبحون -بيننا- «عملاء حضاريين» للغرب، يبشرون بالتبعية للمركز الغربى.. على النحو الذى تحدث عنه جمال الدين الأفغانى عندما قال: «**إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها.. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرّق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم**»(٤).

كما يتوجه الغرب الاستعمارى بهذه الصورة التى صنعها ويصنعها للإسلام وحضارته، إلى شعوبه هو، كى يبرر أمامها سلوكه العدوانى الاستعمارى ضد الشعوب التى يستعمرها، وكى يخيف شعوبه من الإسلام، فيجرها إلى التضحية فى معاركه -الفكرية.. والقتالية- ضد الإسلام وعالمه..

والآن.. وبعد نمو الوجود الإسلامى فى المجتمعات الغربية.. بأوروبا.. وأمريكا.. واستراليا- غدا المسلمون فى تلك البلاد يعانون معاناة مضاعفة من آثار ذلك الخطاب، حتى لقد أصبحوا محرومين من مميزات الليبرالية الغربية، وامتيازات الحريات والحقوق المدنية، وغدوا متهمين لمجرد أنهم مسلمون، ومحرومين من أبسط ثوابت وضوابط وشروط العدالة فى المحاكمات أمام القضاء -إذ يحاكمون ويدانون «بأدلة سرية» لا يعلمون عنها شيئًا!!- بل وغدوا ضحايا لاعتداءات وإيذاءات مادية ومعنوية، زادت فى أمريكا بعد قارعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، أكثر من ١٦٠٠ ٪ عما كانت عليه قبل هذه القارعة -كما رصدت ذلك منظمات أمريكية لحقوق الإنسان-(٥).. حتى ليوشك الخطاب

الغربى، والممـارسات الغـربية أن تدخل المسلمـين- لمجرد أنهم مـسلمون- فى دورة جـديدة من دورات «محـاكم التـفتـيش» التى نصـبهـا الغرب للإسـلام والمسلمـين عقب سـقوط «غرناطـة»، واقتلاع الإسـلام من الأندلس [٨٩٧هـ-١٤٩٢م]!..

فنحن - إذن- بإزاء خطاب غـربى عن الإسـلام، له آثار كارثيـة فى أرض الواقع.. ولسنا بإزاء مجرد أفكار نظرية، وصور ذهنية سلبية عن الإسلام.

* * *

والمقدمة الـثالثة: هى أن نزعة «المركزية الغربية»، التى لا تعـترف بالآخر غير الغربى- الدينى منه والثـقافى والحضارى- بل ولا تعتـرف بالغربى الأبيض إذا كان مسلمًا، كما هو حالها إزاء الأوروبيين المسلمين -فى ألبانيا.. والبوسنة.. والسنجق.. وكوسوفا.. ومقدونيا.. وتركيا- إن هذه «النزعة المركزية الغربية» تلعب دورًا مـحوريّا وكـبيـرًا فى تراكم ثقافـة هذا الخطاب الغربى عـن الآخر الإسلامى، فعدم الاعـتراف بالآخر فيه التبـرير لإلغاء هذا الآخر.. وحتى إذا كان هناك اعتراف بالآخر «كأمر واقع»، فإن عدم الاعتراف بشرعيته ومشروعيته وحقه فـى الوجود المتميـز والمستقل، يزكى دائمًا وأبدًا السـعى إلى إلغائه وطى صفحته من الوجود.. فالغرب الليبرالـى الرأسمالى ظل لأكثر من سبعين عامًا يعتـرف بالشموليـة الشيوعـية «كأمـر واقع»، ولكنه لم يعترف أبدًا بشـرعيتـها ومشروعيتـها وحقها فى الوجود المستقل والمتمـيز.. ولذلك، ظل موقفه الدائم هو موقف الساعى إلى إسقـاطها وطى صفحتها مـن الوجود، وعندما تحقق له ذلك اعتبر هذا الانتصار «نهاية التاريخ»!..

ولقد لعبت هذه «النزعة المركـزية» -نزعة عدم الاعتراف بشرعية ومـشروعية الوجود الحر والمستقل والمتميز للآخـر- لعبت الدور المحورى فى التعبئة الفكرية والمادية لإلغـاء وجـود هذا الآخـر، ولتـبـرير وراثة مـا فى حـوزته من أوطان وثروات!!..

بل لقد استعان الغرب -في سبيل تأكيد «نزعته المركزية» هذه- بالنظريات العلمية الزائفة، مثل «الداروينية» التي زعمت أن الصراع هو قانون العلاقة بين الأحياء، وأن البقاء للأقوى؛ لأن الأقوى هو الأصلح.. فانطلق الغرب الاستعماري من هذا الزيف لتبرير إلغائه لثقافات وحضارات الأمم والشعوب التي ابتليت باستعماره لبلادها.. بحجة أنها الضعيفة، وأنه الأقوى.. فلها الفناء، وله وحده ولحضارته البقاء!!.. وفي سبيل تكريس هذا الزيف الغربي، بلور الغرب علمًا سماه «علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية»، والخاص بدراسات «المجتمعات البدائية»، التي هي- في عرف الغرب- المجتمعات غير الغربية.. فهي بدائية.. وهو المتقدم.. وهي الضعيفة.. وهو الأقوى.. فلها الإبادة، وله البقاء.. بحكم هذا الزيف الذي جعله الغرب «علمًا» !!.. والذي توجه «بخطابه» إلى شعوبه.. وإلى شعوبنا أيضًا!..

وفي الموقف الغربي من الآخر الإسلامي تنهض هذه «النزعة المركزية» بالدور المحوري في اختراع الصور الغربية عن الإسلام، وفي إذكاء روح العداء الغربي للحضارة الإسلامية، وفي التبرير لحروب الغرب - الفكرية.. والقتالية- ضد عالم الإسلام وأمته وحضارته..

وإذا كانت المواجهة- التاريخية.. والحديثة.. والمعاصرة- إنما هي قائمة بين «المشروع الغربي» الذي ينفي «المشروع الإسلامي»، فإن هذا النفي الغربي للإسلام وحضارته له جذور عميقة في تصورات الثقافة الغربية عن الإسلام، وهذه الجذور الرافضة والنافية للآخر الإسلامي حية وفاعلة -بل ونامية- حتى هذه اللحظات..

نجد ذلك في «المشروع الكنسي» الغربي، الذي أعلن -بلسان البروتستانت في «مؤتمر كولورادو» سنة ١٩٧٨م -ضرورة اختراق الإسلام، لتنصير كل المسلمين!.. كما أعلن هذا «المشروع الكنسي» -بلسان الكاثوليك- ضرورة أن تصبح أفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م.. فلما خاب الرجاء غير الصالح، أجلوا

التـاريخ إلى سنة ٢٠٢٥م!.. وتعبـر عن هذا «المشروع الكنسى» حـتى فرنـسا العلمـانية- بلسـان رئيسـها الأسبق «فلـرى جيسكار دى سـتان» عندمـا أعلن استـحالة قبـول تركيا فى الاتحـاد الأوروبى، لأنها مسلمـة، والاتحاد الأوروبى «نادى مسيحى»!..

أما «لسان» الغـرب الأرثوذكسى، فلقد مارس هذا النفـى للإسلام، بالمجازر والمقابر الجماعية، على أرض البلقان والشيشان.. كما تمارسه الصهيونية -وهى امتداد غربى- متحالفة مع الصليبية الغربية- على أرض فلسطين!..

بل إن كنائس الغرب -التى خـانت نصرانيتـها- لا تستـحى عندما تعلن هذا النفى للإسلام، حتى فى المؤتمرات التى «تحاور» فيها رموز الإسلام، فى عقر دار الإسلام!!.. ففى مؤتمر «الحوار الإسلامى - المسيحى»، والذى عقد بالقاهرة - بدعوة من «المنتدى العالمى للحـوار» -بجدة- ومؤتمر «العالم الإسلامى»- والذى انعـقدت جلسـاته فى فندق «شيـراتون هليـوبوليس» فى ٢٨- ٢٩ أكتـوبر سنة ٢٠٠١م.. رفض ممثل الفاتيكان، نائب الأمين العام للمجلس البابوى للحوار بين الأديان، القس «خالد أكـشة».. وممثل «مجلس الكنائس العالمـى» الدكتور «طارق مترى».. رفضا التوقيع على البيان الختامى للمؤتمر؛ لأنه وضع الإسلام -مع اليهودية والنصرانية- تحت وصـف «الأديان السماوية الربانية»، وقالا: «**إن وصف الإسلام كدين سماوى وربانى، لا يزال محل خلاف لم يُحسم بعد**»!!..

ولقد علق الدكتـور يوسف القرضاوى -وكان مشـاركًا مع شيخ الأزهر فى هذا المؤتمر- على هذا الموقف فقال: «**إننى أستغرب من توجس بعض رجال الدين المسيـحى من وصف الإسلام بالربانيـة والسمـاوية.. وإذا كان الفـاتيكان والكنائس العالميـة لا تعتـرف بالإسلام كدين سـماوى فلماذا نجتمع إذن؟! وإذا لم يقـر رجال الدين المسيحى والفاتيكان بأن الإسلام دين ربانى فلا داعى من اللقاء والحوار**»..(٦)

إنهم يعترفون بالإسلام «كأمر واقع»، ويصنفونه ضمن «الديانات الوضعية»، غير السماوية وغير الربانية، وذلك لتبرير السعى الكنسى الدائب والدائم لتنصير

المسلمين، وطى صفحة الإسلام من الوجود، انطلاقًا من «النزعة المركزية» التى لا تعترف بالآخرين. . فتسعى إلى إلغائهم، بضمير مستريح!. .

كذلك نجد هذا النفى للآخر، والرفض لمشروعية وجوده المتميز والمستقل، فى «المشروع الحضارى» الغربى، الذى لا يعترف بالتعددية الحضارية العالمية. . وإن اعترف بالحضارات غير الغربية «كأمر واقع»، فهو يسعى -بالتغريب وعولمة نموذجه الحضارى- إلى إلغاء هذه التعددية الحضارية، والانفراد الغربى بالعالم كله. . وفى سبيل ذلك يستخدم «نزعة صدام الحضارات. . وصراع الثقافات» كحتمية مزعومة- لتبرير سيادة هذه النزعة المركزية على النطاق العالمى. .

وفيما يتعلق بالنفى الغربى للإسلام - على وجه الخصوص- يكفى أن نشير إلى كلمات المستشرق الفرنسى «جاك بيرك» [١٩١٠-١٩٩٥م] التى يقول فيها: **«إن الإسلام، الذى هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذى يدين به أكثر من مليار نسمة فى العالم، والذى هو قريب من الغرب جغرافيًا، وتاريخيًا، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم.. قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة، بالنسبة للغرب: ابن العم المجهول، والأخ المرفوض.. والمنكور الأبدى.. والمبعد الأبدى.. والمتهم الأبدى.. والمشتبه فيه الأبدى»!..**[٧].

لقد قال «جاك بيرك» هذا الكلام، المعبر -وهو الخبير فى الثقافة الغربية. . وفى الإسلام معًا- عن نفى الغرب للإسلام وحضارته وأمته، كموقف ثابت ودائم. . وقدّم هذه الصورة للإسلام فى الثقافة الغربية، والحضارة الغربية والممارسات الغربية، قبل «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م» بسبع سنوات!. . وكأنه كان يصف «طوفان» ثقافة الكراهية السوداء التى انهالت على الإسلام وأمته وحضارته عقب سبتمبر سنة ٢٠٠١م!. .

فنحن أمام موقف ثابت ودائم، من قبل المشروع الكنسى الغربى. . والمشروع السياسى والحضارى الغربى. . وهو موقف ينفى الآخر الإسلامى، ليبرر العدوان الاستعمارى والهيمنة الحضارية على عالم الإسلام.

* * *

تلك هى المقدمات التى رأيناها ضرورية بين يدى الحديث عن صورة الإسلام فى الخطاب الغربى.. وهى مقدمات تؤكد على ضرورة التمييز فى الخطاب الغربى بين الحق والباطل.. بين الصواب والخطأ.. بين الإنصاف والتزييف.. وذلك كثمرة للتمييز فى الغرب بين: «الإنسان الغربى».. وبين «مشروع الهيمنة الغربى».. فالمشكلة هى مع المشروع الغربى، بشقيه: السياسى الاستعمارى.. والكنسى التنصيرى.. على وجه الحصر والتحديد.. وليست هناك مشكلة مع الإنسان الغربى، ولا مع العلم الغربى، على وجه الإطلاق..

التاريخ الصانع للصورة

إن «الجدل» بين «الواقع» وبين «الفكر» هو حقيقة علمية، لا تنفرد بها بعض الفلسفات الاجتماعية الغربية.. بل لقد سبق الإسلام إلى تقرير هذه الحقيقة فيما عرفناه من العلاقة بين آيات القرآن الكريم و«مناسبات» نزولها.. والعلاقة بين الأحاديث النبوية «وأسباب ورود» هذه الأحاديث.. وهذا «الجدل» بين «الواقع» وبين «الفكر» هو مما تكاد تلمسه العقول فى الدراسات الاجتماعية لنشأة الأفكار وتطورها..

ولقد كان «واقع» الاستعمار الغربى للشرق منبعًا أصيلاً لكثير من الصور الزائفة التى صنعها الغرب للشرق.. وهى الصور التى عادت لتزكى ولتبرر، فى المخيلة الغربية، نزعة الاستعمار والاستعلاء والاحتواء والاستغلال..

ولأن تاريخ الاستعمار الغربى للشرق سابق على ظهور الإسلام، فلقد صنع الغرب الرومانى والبيزنطى للنصرانية المصرية والشرقية، ولثقافة الشرق وحضارته الصور الزائفة التى بررت القهر والاضطهاد والإبادة التى مارسها الرومان والبيزنطيون عشرة قرون ضد الشرق والشرقيين -من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦- ٣٢٣ق.م] -فى القرن الرابع قبل الميلاد- وحتى «هرقل» [٦١٠-٦٤١م] -فى القرن السابع للميلاد-..

ولأن الإسلام هو الذى حرر -بفتوحاته- أرض الشرق من الاستعمار

والاستغلال الرومانى البيزنطى، وحرر ضمائر الشرقيين من الاضطهاد والقهر الدينى والحضارى، فلقد بدأت الصورة الغربية المعادية للإسلام وحضارته وأمته ودولته وعالمه تتبلور فى الثقافة الغربية -الدينية.. والمدنية- منذ ذلك التاريخ.. لقد كانت الحضارة الشرقية، بنصرانيتها اليعقوبية، هى «العدو -البربرى- الهمجى»، بنظر الرومان البيزنطيين.. فلما أصبحت الحضارة الشرقية إسلامية، أصبحت هى العدو الجديد، الذى حلت صورته محل صورة العدو القديم.. تمامًا كما صنع الإعلان الغربى عقب سقوط الشيوعية -فى العقد الأخير من القرن العشرين- عن أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية!..

لقد بدأ العداء الغربى للإسلام منذ ظهور الإسلام وتحريره الشرق والشرقيين من هيمنة الرومان.. وفى هذا المقام يقول الكاتب والقائد الإنجليزى «جلوب باشا» [١٨٩٧- ١٩٨٦م] كلمته التى توقظ النيام:

- **«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!!..**

ومنذ ذلك التاريخ توالت محاولات الغرب إعادة اختطاف الشرق من الإسلام:

* فكانت الموجة الاستعمارية الصليبية، التى دامت قرنين [٤٨٩- ٦٩٠هـ ١٠٩٦- ١٢٩١م] والتى شارك فيها الغرب كله، بقيادة الكنيسة الكاثوليكية، وتمويل المدن التجارية الأوروبية، وسيوف أمراء الإقطاع الأوروبيين.. ولقد انتهت هذه الموجة بالهزيمة على يدى الفروسية الإسلامية، التى اقتلعت قلاعها، وهدمت حصونها، وأزالت كل آثارها..

* ثم جاءت الموجة التترية زاحفة على الشرق الإسلامى، بدعوة من الصليبيين الأوروبيين- الذين تحالفوا مع الوثنية التترية ضد التوحيد الإسلامى!- ولقد هددت هذه الموجة التترية التى كان يقود جيوشها نصارى نساطرة!- هددت الوجود الإسلامى ذاته.. ثم كانت هزيمتها الساحقة على

يدى الفروسية الإسلامية فى «عين جالوت» [٦٥٨هـ ١٢٦٠م]. . ثم انتهت بانتصار الإسلام فى عقول وقلوب التتار، فدخلوا الإسلام، وتحولوا إلى سيوف فى معارك هذا الدين! . .

* ومنذ سقوط «غرناطة» [٨٩٧هـ ١٤٩٢م] ونجاح الصليبية الأوروبية فى اقتلاع الإسلام وحضارته المشرقة وثقافته السمحة من الأندلس، بدأت مرحلة جديدة فى هذه الحرب الغربية على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه. . بدأت مرحلة الالتفاف حول العالم الإسلامى -مرحلة التطويق- مرورًا بسواحل أفريقيا الغربية والجنوبية. . ووصولاً إلى الأطراف الإسلامية فى الجنوب الشرقى لآسيا- الفيليبين. . والهند. . وإندونيسيا- . . وذلك تمهيدًا لضرب قلب العالم الإسلامى -الوطن العربى- بحملة «بوناپارت» [١٧٦٩- ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ ١٧٩٨م]. .

وإبان هذه المرحلة -مرحلة الغزوة الاستعمارية الحديثة- تميز التحدى الغربى عن الحقبة الصليبية الأولى بالغزو الفكرى، المصاحب لاحتلال الأرض، ونهب الثروات. . أى بصناعة الصورة الغربية للإسلام وحضارته وأمته، تلك الصورة التى نمت مكوناتها لتزكى وتبرر للغرب نفى الآخر الإسلامى، ولتشحن الشعوب الأوروپية بالعداء للإسلام، حفزًا لها على مواصلة الغزو والاحتلال لبلاد الإسلام. .

وخلال هذه القرون -من طمع الغرب باستعادة الشرق من الإسلام -تبلور الخطاب الغربى حول الشرق، على النحو الذى يخدم تحقيق هذه الاستراتيجية الاستعمارية الغربية. . وهو خطاب متنوع ومتكامل فى ذات الوقت. . متنوع بتنوع الدوائر الصادر منها. . ومتكامل لتحقيق هذه الاستراتيجية الغربية الواحدة. . ومتنوع كذلك بتنوع الجمهور الذى يتوجه إليه هذا الخطاب. .

* فالغرب الكنسى اللاهوتى، له خطاب دينى يسعى به إلى تنصير المسلمين. . وحتى الدوائر العلمانية فى النظم السياسية الغربية- بما فيها

العلمانية الفرنسية المتطرفة- تدعم هذا المشروع الكنسى التنصيرى وخطابه اللاهوتى؛ لأنه يصب -بالنهاية- فى تحقيق استراتيجية إلحاق الشرق بالغرب، وهيمنة الحضارة الغربية- المسيحية بمعنى من المعانى- على حضارة الإسلام. . ومن هنا كان دعم حكومات فرنسا العلمانية لمدارس الإرساليات التنصيرية فى المشرق العربى؛ لأنها -وفق عبارة قناصل الحكومة الفرنسية فى بيروت-: **«تستهدف جعل سوريا -[أى الشام الكبير]- حليفًا أكثر أهمية من مستعمرة!.. وتأمين هيمنة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة!.. وتحويل الموارنة إلى جيش متفان لفرنسا فى كل وقت!.. وجعل البربرية العربية -[كذا]- تنحنى لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»!!**(٨)..

فالهدف الاستراتيجى، الذى يجتمع عليه الغرب الاستعمارى -الكنسى منه والسياسى- هو إعادة اختطاف الشرق من الإسلام، والتوسل إلى ذلك بتشويه صورة الإسلام، أو طى صفحة وجود هذا الإسلام!..

* والغرب السياسى - القائد لهذا المواجهة - بعد إزاحة الكنيسة عن مركز القيادة- له خطاب سياسى وثقافى وحضارى، يسعى إلى تغريب الشرق، واحتلال عقل النخب من أبنائه، لتأبيد احتلال الأرض ونهب الثروات، عندما يصبح الغرب ونموذجه الحضارى والقيمى هو قبلة عقول هذه النخب من المفكرين والمثقفين..

* ومع توجيه هذا الخطاب الغربى.. الثقافى واللاهوتى- فى الأساس- إلى عقول المسلمين الشرقيين.. فلقد توجهوا به كذلك إلى الرأى العام الغربى، لإقناعه بضرورته، ولكسب تأييده لمراميه.. ولإشراكه فى الإنفاق عليه، والنهوض بتبعاته، والحرب فى سبيله..

* وإذا كان طمع الغرب الاستعمارى -السياسى والكنسى- قد شمل العالم كله، وليس فقط عالم الإسلام، فلقد تميّز الخطاب الغربى للعالم الإسلامى عن خطابه للحضارات غير الإسلامية؛ بسبب تميز الإسلام ودوره فى هذه المواجهة

التاريخية بين الغرب والإسلام.. فالإسلام ليس مجرد حضارة متميزة عن الحضارة الغربية -كما هو الحال مع الحضارات الأخرى: الصينية.. والهندية.. واليابانية- وإنما هو- مع هذا التميّز- حضارة عالمية، وليست محلية كتلك الحضارات، ومن ثم فهو المنافس الأول والأخطر للحضارة الغربية على النطاق العالمى، بل وفى عقر دار الحضارة الغربية ذاتها!.. ومن هنا كان إحياء الغرب وإنعاشه لذاكرة شعوبه بذكريات:

- الفتوحات الإسلامية الأولى التى حررت الشرق من هيمنة الغرب -فى القرن السابع الميلادى- بعد عشرة قرون من القهر الحضارى -الإغريقى.. والرومانى.. والبيزنطى- للشرق..

- وذكريات الوجود الإسلامى فى الأندلس - والذى استمر ثمانية قرون [٩٢- ٨٩٧هـ ٧١١- ١٤٩٢م] -وهو الوجود الذى كاد يدخل كل جنوب أوروبا ووسطها فى دائرة الإسلام، لولا الهزيمة الإسلامية فى معركة «بلاط الشهداء» [١١٤هـ ٧٣٢م]..

- وذكريات الهزيمة الصليبية أمام الفروسية الإسلامية، وفشل الحملات الصليبية فى إعادة اختطاف الشرق والقدس من الإسلام، رغم استمرار هذه الحملات قرنين من الزمان [٤٨٩ -٦٩٠هـ ١٠٩٦- ١٢٩١م]..

- وذكريات المطاردة العثمانية للتحدى الأوروبى على أرضه.. وفيها تم فتح القسطنطينية [٨٥٧هـ ١٤٥٣م].. ثم أوغلت هذه المطاردة على أرض البلقان.. حتى وصلت إلى أسوار «ڤيينا» فى [٩٣٥هـ ١٥٢٩م] وفى [١٠٩٤هـ ١٦٨٣م].

- وذكريات السيطرة الإسلامية على البحار الكبرى للكرة الأرضية - الأبيض.. والأحمر.. والعرب.. والأسود..- لأكثر من عشرة قرون، كان المسلمون فيها هم «العالم الأول» على ظهر هذا الكوكب..

كان المشروع الغربى - السياسى منه والكنسى- حريصًا دائمًا وأبدًا، على

إنعاش ذاكرة الشعوب الغربية بذكريات «خطر العالمية الإسلامية» على استراتيجيته، وذلك لتأجيج حماس تلك الشعوب فى معركة الغرب لاستعادة الشرق مرة أخرى من الإسلام . .

وفى كل مفردات هذا الخطاب الغربى -اللاهوتى منه والسياسى والثقافى والتعليمى والإعلامى- كان الغرب حريصًا على توجيه أمضى أسلحته وأخطرها إلى الإسلام- الدين . . والثقافة . . والحضارة- باعتباره النموذج الذى حرر الشرق من الرومان ومن الصليبيين، والطاقة المقاومة لكل محاولات هيمنة الغرب على الشرق من جديد . .

ولقد أثمرت تراكمات مفردات هذا الخطاب الغربى، الخاص بالشرق الإسلامى، أثمرت مخزونًا من «ثقافة الكراهية السوداء» التى شاعت وترسبت، بل وتكلست، فى كثير من ميادين الثقافة واللاهوت والتعليم والإعلام بأوروبا وأمريكا . . وهو المخزون الداعم للمشاريع الغربية لاستعمار الشرق، والذى تطفح به منابر الثقافة والإعلام والتنصير الغربية إبان الأزمات الحادة فى علاقة الغرب بالإسلام، على النحو الذى رأيناه ونراه بعد «قارعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م» فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى هذا الميدان يستطيع العقل المسلم أن يتابع ويعى دلالات المواقف والأفكار، التى غدت مكونات أساسية فى ثقافة الخطاب الغربى حول الإسلام والحضارة الإسلامية . . وهى مواقف وأفكار رصدها وانتقدها علماء غربيون منصفون . . وذلك من مثل:

* تصوير نبى الإسلام ﷺ باعتباره المنشق الكاثوليكى الأكبر، الذى اختطف الشرق من الغرب الرومانى، ومن الكاثوليكية!! . . وكما يقول المفكر الألمانى «هوبرت هيركومر» -فى دراسته عن [صورة الإسلام فى الأدب الوسيط]- : **«فإن الأوروبيين ادعوا أن رسول الإسلام كان فى الأصل كاردينالاً كاثوليكيًا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق، انتقامًا من**

الكنيسة. واعتبرت أوروبا المسيحية - فى القرون الوسطى- محمداً المرتد الأكبر عن المسيحية، الذى يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية»!!(٩)

* وتصوير الكاثوليكية الأوروبية -بلسان فيلسوفها الأكبر «توما الأكوينى» [١٢٢٥- ١٢٧٤م]- رسول الإسلام ﷺ، بأنه **«الذى أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية.. وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية..»!!**(١٠)

* وتصوير البروتستانتية الأوروبية -بلسان رائدها الأول «مارتن لوثر» [١٤٨٣- ١٥٤٦م] - للقرآن الكريم **«بأنه كتاب بغيض وفظيع وملعون، ومليء بالأكاذيب والخرافات والفضائع».. وحديثه عن أن «إزعاج محمد، والإضرار بالمسلمين، يجب أن تكون هى المقاصد من وراء ترجمة القرآن، وتعرّف المسيحيين عليه!». وأن «على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضًا ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم» فى هذه الحروب!!**(١١)..

* وتصوير الغرب للمسلمين - فى الثقافة الشعبية الأوروبية، ومن خلال الملاحم الشعبية، مثل «ملحمة رولاند» سنة ١١٠٠م- بأنهم **«الجنس الحيوانى الحقير.. والكلاب والخنازير»!!.. وأنهم «يعبدون أصنام الثالوث: «أبوللين.Apollin» و«تير ڤاجانت - Tervagant» و«حوميت (محمد) - Mahamet»!!**(١٢)..

وهى الأوصاف المزيفة والكاذبة، التى لا تزال تجترها حتى الآن «أفلام هوليوود، والأعمال الأدبية» التى يفوز أصحابها بجوائز «نوبل» فى هذه الأعوام!!..

* ووضع «دانتى» [١٢٩٥- ١٣٢١م] -صاحب «الكوميديا الإلهية»- رسول الإسلام ﷺ وعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه **«فى الحفرة التاسعة فى ثامن**

حلقة من حلقات جهنم.. وقد قطعت أجسامهم وشوهت أجسادهم فى دار السعير؛ لأنهم كانوا فى الحياة الدنيا -[بكذبه وافترائه]- أهل شجار وشقاق»!!..(١٣)

* وحديث «جوته» [١٧٤٩- ١٨٣٢م] عن القرآن الكريم، باعتباره «الكتاب الذى يكرر نفسه تكرارات لا تنتهى فيثير اشمئزازنا دائمًا، كلما شرعنا فى قراءته»!!

* وحديث المستشرق الألمانى «تيودور نولدكة» [١٨٣٦- ١٩٣٠م] فى كتابه «من تاريخ القرآن» -عن «لغة القرآن المتراخية والركيكة.. وتكراراته التى لا تنتهى، والتى لا يستحى الرسول من استخدام الكلمات نفسها فيها. والبراهين التى تعوزها الدقة والوضوح، والتى لا تقنع إلا المؤمنين من البداية بالعاقبة النهائية.. والقصص التى لا تقدم إلا قليلاً من التنوع، والتى كثيراً ما تجعل آيات الوحى أقرب إلى الملل والسأمة.. فأسلوب القرآن فيه عيوب كثيرة، عيوب غير موجودة فى القصائد العربية القديمة ولا فى أخبار العرب.. وأفكاره ضحلة، وساذجة، وبدائية»!!..

* أما «توماس كارليل» [١٧٩٥- ١٨٨١م]- الذى تحدث عن رسول الإسلام ﷺ حديثًا إيجابيًا، حتى جعله -كزعيم مصلح، وليس كنبى ورسول- أول العظماء المائة -فإنه هو القائل: «محمد شىء، والقرآن شىء آخر مختلف تمامًا.. ولا يوجد شىء غير الشعور بالواجب يمكن أن يحمل أى أوروبى على قراءة القرآن.. إنه خليط طويل وممل ومشوش.. جاف.. وغليظ.. باختصار، هو غباء لا يحتمل»!!..(١٤)

هذه هى صورة الإسلام.. وقرآنه.. ورسوله.. وصورة المسلمين وحضارتهم، التى شاعت فى الثقافة الغربية، وفى الخطاب الغربى عن الشرق الإسلامى، منذ ظهور الإسلام وحتى العصر الحديث.. والتى كونت الأصول والجذور لثقافة الكراهية السوداء، التى تستكن حينًا، وتطفو أحيانًا، إبان الأزمات بين الغرب والإسلام..

حدث هذا ويحدث، بينما يؤمن المسلمون ويقدسون كل الكتب والشرائع

والنبوات والـرسالات لا يفرقـون بين أحد من رسل الله، ويتلـون آيات القرآن التى تقول عن التوراة والإنجيل إن فيهما هدى ونورًا!..

* * *

ولقد سعت الغزوة الاستعمارية الأوربية الحديثة -كى تؤبد احتلالها لعالم الإسلام، ونهبها لثرواته -إلى تجريد الإسلام من شموله للدنيا مع الآخرة، ومن مرجعيته للدولة والسياسة والاجتماع مع منظومة القيم والأخلاق الحاكمة لسلوك الأفراد.. سعت إلى فك الارتباط بين شريعته الإلهية وبين حركة الواقع فى المجتمعات الإسلامية التى استعمرتها هذه الغزوة، وذلك لتُلحق هذا الواقع بالقانون الوضعى الغربى العلمانى، حتى لا يبقى للإسلام إلا ملكوت السماء والغيب والدار الآخرة -كما هو حال النصرانية المهزومة أمام العلمانية الغربية- وسعت هذه الغزوة الاستعمارية كذلك إلى فك الارتباط بين الإسلام وبين العربية -لغة القرآن الكريم- وذلك لتغريب اللسان، مع تغريب الفقه والقانون.. وكان خطاب الاستعمار الفرنسى فى هذا الميدان نموذجيّا، فلقد أعلن فلاسفته ومنظّروه:

* **«أن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد العربية، وهذا يخولّنا اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى هذه البلاد!.. ويجب فصل الدين الإسلامى عن القانون المدنى.. وحصر الإسلام فى الاعتقاد وحده.. والحيلولة دون اندماج العادات والأعراف فى الشرع الإسلامى، ليتيسر دمجها فى القانون الفرنسى بدلاً من القانون الإسلامى..»!**

* **«كذلك، يجب الفصل بين الإسلام والاستعراب.. فالعربية هى رائد الإسلام، لأنها تُعَلَّم من القرآن، وإذا سادت الفرنسية بدلاً من العربية، وأصبحت لغة التفاهم، فلن يهمنا كثيراً أن تضم الديانة الإسلامية الشعب كله، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها، كما يقيم الكاثوليك القداديس باللغات اللاتينية والإغريقية والعبرانية»!!..** (١٥)

فالمطلوب -فى خطاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة- هو تجريد الإسلام من خصوصياته ومقومات تميّزه عن النموذج الحضارى الغربى - وذلك بتغريب الفقه والقانون بالعلمانية، بعد تغريب الواقع، لعزل الشريعة عن الحياة. وتغريب اللسان فى بلاد الإسلام، لعزل القرآن عن الحياة، وإلحاق المسلمين بالثقافة الغربية، ومنظومة قيمها-..

والدارس لواقع بلاد المغرب العربى -تونس والجزائر والمغرب- حتى بعد ما يقرب من نصف قرن من الاستقلال السياسى-يدرك حجم الكارثة التى أحدثها «التغريب الفرنكفونى» فى ميادين اللغة والثقافة والتعليم والإعلام، بل والقيم أيضًا، حتى هذه اللحظات..

* * *

وفى واقعنا المعاصر:

ولم تكن مقاصد الخطاب الغربى - خطاب الهيمنة- الموجه إلى العالم الإسلامى المعاصر، بأفضل كثيرًا من خطاب الغزوة الاستعمارية فى العصر الحديث.. بل ربما كان الأمر أسوأ فى كثير من مفردات هذا الخطاب..

* فالخطاب الكنسى اللاهوتى، الذى طمح -بل وطمع- إلى تنصير كل المسلمين، قد تحدث عن الإسلام- فى وثائق «مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨م» فقال:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقه فى صدق ودهاء!.. ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين.. فعلى مديرى إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين.

لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة فى العالم الإسلامى.. إن نصارى البروتستانت -فى الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا- منهمكون بصورة عميقة فى عملية تنصير المسلمين.. ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.. وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معًا، بروح تامة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين.. إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم.. ويُفَضَّل النصارى العرب فى عملية التنصير.. إن تنصير هذه البلاد سوف يتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية..»(١٦).

وبعد هذا التخطيط لاختراق الإسلام فى «صدق.. ودهاء!».. تحدث قساوسة پروتوكولات التنصير هذه عن ضرورة صناعة الكوارث فى بلاد الإسلام، لإحداث الخلل فى توازن ضحايا هذه الكوارث، باعتبار ذلك هو الشرط الضرورى لتحول هؤلاء الضحايا من الإسلام إلى النصرانية!.. معتبرين ذلك «نعمة» كبرى و«معجزة» تهيئ لهم تنصير المسلمين!!.. فقالوا: «لكى يكون هناك تحوّل إلى النصرانية، فلا بد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس -أفرادًا وجماعات- خارج حالة التوازن التى اعتادوها!.. وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنى.. وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحوّلات كبيرة إلى النصرانية!.. ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمرًا مهمّا فى عملية التنصير!.. وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى!!»(١٧).

ولقد كشف هذا الخطاب التنصيرى عن المقاصد الحقيقية من وراء ما يسمونه «الحوار بين الأديان»، فإذا بهذه المقاصد هى التمهيد للتحول القسرى -نعم القسرى- إلى النصرانية.. وبنص عباراتهم يقولون: «إن بيانات مجلس الكنائس العالمى، التى تشدد على «حرية الإقناع والاقتناع» لا تلزم المجلس!!.. فالحوار -عند مجلس الكنائس العالمى -ليس بديلاً عن تحويل غير النصارى إلى النصرانية.. وهذه البيانات-عن «حرية الإقناع والاقتناع»- لا تعنى تخلى المجلس عن مواقفه المناصرة «للجهود القسرية والواعية والمتعمدة والتكتيكية لجذب الناس من مجتمع دينى ما إلى آخر.. إنه بينما يوافق المنصرون على أن التحول لدين آخر لا يجب ولا يمكن أن يتم بالقوة، فإنهم ما زالوا يشعرون أيضًا بأننا ينبغى «أن نجبرهم على الدخول» فى النصرانية..»!![(١٨)]

* وإذا كان هذا هو الخطاب الكنسى البروتستانتى، إزاء الإسلام والمسلمين، فإن خطاب الكاثوليكية الغربية يقطر، هو الآخر، بالعداء للإسلام..

فالمونسنيور «جوزيبى برناردينى» يصرح -بحضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثانى- فى سنة ١٩٩٩م- فيقول: «إن العالم الإسلامى سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديدًا»؟![(١٩)]

وفى نفس التاريخ، يتحدث الكاردينال «بول بوبار» - مساعد بابا الفاتيكان.. ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة -إلى صحيفة «الفيجارو» الفرنسية، فيقول: «إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوروبا وللغرب عمومًا. وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيرًا ضليعًا لكى يلاحظ تفاوتًا متزايدًا بين معدلات النمو السكانى فى أنحاء معينة من العالم، ففى البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكانى بشكل تدريجى، بينما يحدث العكس فى البلدان الإسلامية

النامية. وفى مهد المسيح، يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجًا بشكل ما؟! «إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم، وفى الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان»![٢٠]

ويمضى هذا الخطاب الكنسى الكاثوليكى ليرفض التعايش بين الإسلام والمسيحية فى أوروبا!.. فيقول الكاردينال «جاكوموبيفى» - أسقف مدينة «بولونيا» - بإيطاليا - فى رسالته يوم ١٣-٩-٢٠٠٠م - داعيًا إلى استئصال المسلمين من أوروبا-: «... فإما أن تتحول أوروبا إلى مسيحية فورًا، وإلا ستكون إسلامية مؤكدًا»![٢١]

هذا هو الخطاب الكنسى الغربى، إزاء الإسلام، وتلك هى صورة الإسلام فى هذا الخطاب - البروتستانتى منه والكاثوليكى - فى الواقع المعاصر الذى نعيش فيه.. والسابق على «قارعة سبتمبر ٢٠٠١م» التى ألمت بأمريكا..

* * *

* أما خطاب المشروع السياسى والحضارى الغربى المعاصر إزاء الإسلام، فلقد بدأته أمريكا عقب الحرب العالمية الثانية - عندما ورثت الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة: الإنجليزية والفرنسية - بمحاولة «استغلال» الإسلام فى حربها الباردة ضد الشيوعية.. وبعبارات الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦م]: «إن الإسلام الذى يريده الأمريكان، وحلفاؤهم فى الشرق ليس هو الإسلام الذى يقاوم الاستعمار، وليس هو الإسلام الذى يقاوم الطغيان، ولكنه فقط الإسلام الذى يقاوم الشيوعية. إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم، ولا يطيقون من الإسلام أن يحكم، لأن الإسلام حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى، وسيعلّم الشعوب أن إعداد القوة فريضة، وأن طرد المستعمر فريضة، وأن الشيوعية كالاستعمار وباء، فكلاهما عدو، وكلاهما اعتداء..

الأمريكان وحلفاؤهم إذن يريدون للشرق «إسلامًا أمريكانيًا»، يجوز أن يُستفتى فى منع الحمل، ويجوز أن يُستفتى فى دخول المرأة البرلمان، ويجوز أن يُستفتى فى نواقض الوضوء، ولكنه لا يُستفتى أبدًا فى أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالى، ولا يُستفتى أبدًا فى أوضاعنا السياسية والقومية، وفيما يربطنا بالاستعمار من صلات. فالحكم بالإسلام، والتشريع بالإسلام، والانتصار للإسلام لا يجوز أن يمسها قلم، ولا حديث، ولا استفتاء..»[٢٢] فى الإسلام الأمريكانى!..

هذا هو نوع «الإسلام الأمريكانى»، الذى أرادت أمريكا «استغلاله» فى حربها الباردة ضد الشيوعية - كما استغلت النصرانية أيضًا.. وأنشأت، لذلك، «مجلس الكنائس العالمى» فى ذات التاريخ!..

* فلما تعاظم مد اليقظة الإسلامية - فى سبعينيات القرن العشرين - عقب سقوط نماذج التحديث على النمط الغربى...

اتخذت أمريكا - ومن ورائها الغرب - من الإسلام المجاهد.. إسلام اليقظة والصحوة عدوًا، حتى قبل «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م».. وحتى عندما كانت كل الحركات الإسلامية - التى يسمونها «أصولية ومتطرفة»- تقف مع أمريكا فى خندق واحد إبان الجهاد الأفغانى ضد الاتحاد السوفييتى والشيوعية، فى ثمانينيات القرن العشرين!..

وفى ذلك التاريخ، كتب الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» - وهو مفكر استراتيجى - عن هذه اليقظة الإسلامية، التى يقودها من أسماهم «الأصوليين الإسلاميين»، الذين هم - كما يقول -: **«مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضى، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة. وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»!**

ودعا «نيكسون» إلى اتحاد الغرب.. الأمريكى.. والأوروبى.. والروسى- لمواجهة هذا البعث الإسلامى، وإلى: **«تحديد الخيار الذى تختاره**

الشعوب المسلمة»!! ليكون «نموذج تركيا العلمانية المنحازة نحو الغرب» والساعية إلى ربط المسلمين بالغرب سياسيًا واقتصاديًا .. وذلك حفاظًا على مصالح الغرب في الشرق .. لأن أكثر ما يهمنا فى الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل .. وإن التزامنا نحو إسرائيل عميق جدًا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق! نحن مرتبطون معهم ارتباطًا أخلاقيًا .. ولن يستطيع أى رئيس أمريكى أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل»!

ولقد أفصح «نيكسون» عن الموقف الأمريكى - والغربى - الذى اتخذ الإسلام والمسلمين عدوًا، عندما قال: «إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين .. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة للصين الشيوعية - فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى.. ويحذِّر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان .. وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيبوليتيكية متطرفة .. وأنه مع التزايد السكانى والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة .. وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب.. وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانى للعالم الإسلامى»!!(٢٣)

تلك هى صورة الإسلام فى الخطاب الاستراتيجى الأمريكى - والغربى - فى ثمانينيات القرن العشرين .. إبان «شهر العسل» أمريكا والغرب وبين كل الحركات الإسلامية - والدول الإسلامية - إبان الجهاد المشترك ضد الشيوعية فى أفغانستان .. وقبل «قارعة سبتمبر ٢٠٠١م» بنحو خمسة عشر عامًا! ..

فلما سقطت الشيوعية سنة ١٩٩١م.. وأعلن الغرب أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطوريتها الشريرة .. عللت مجلة [شئون دولية] - الصادرة فى «كمبردج» - بانجلترا - فى يناير سنة ١٩٩١م - سبب سرعة هذا الإعلان الغربى .. أن الإسلام هو العدو .. فقالت: «لقد شعر الكثيرون - فى الغرب-

بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتي .. وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول .. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى للثقافة الغربية .. ذلك أن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول: إن المجتمع الصناعى والعلم الحديث يقوض الإيمان الدينى - مقولة العلمنة - صالحة على العموم .. فالتأثير السيكولوچى للدين قد تناقص عمليًا فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة .. لكن عالم الإسلام قد مثل استثناء مدهشًا وتامًا جدًا من هذا، فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى بطريقة ما أقوى الآن مما كانت من ١٠٠ سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعًا ما، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحًا فى ظل مختلف النظم السياسية .. وإن وجود تقاليد محلية للإسلام قد مكّن العالم الإسلامى من أن يفلت من معضلة تقليد العلمانية الغربية .. وإن عملية الإصلاح الذاتى، استجابة لدواعى الحداثة، يمكن أن تتم باسم الإيمان المحلى، وذلك هو التفسير الأساسى لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة.. وإن أوروبيين كثيرين يتساءلون: عما إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى، مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى / الغربى الذى يميّز بين ما لله وما لقيصر، فبينما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعوّل عليها فى ديموقراطية علمانية..»؟ . .

فتخيير الإسلام بين العلمنة، أى التحول إلى صورة شرقية للنصرانية الغربية، يقف عند الشعائر والعبادات فيتنازل - بذلك - عن خصوصياته ومميزاته، فاتحًا الطريق أمام تغريب العقل المسلم، وهيمنة العولمة الغربية على دنيا المسلمين. . إن تخيير الإسلام والمسلمين بين هذه التبعية الفكرية وبين أن يكونوا العدو الذى توجه إليهم آلة الحرب وحملات الإعلام التى كانت موجهة للشيوعية وأحزابها وحكوماتها، هو أمر سابق على «قارعة سبتمبر سنة

٢٠٠١م». . وسابـق على الانشقـاق الذى حدث بين الجـماعـات الإسلامـية «الراديكالية» وبين أمريكا. . فنحن بإزاء مـوقف قديم. . وثابت. . وأصيل فى المواجهة بين الغرب والإسلام. . وكـما قال «جلوب باشا»: «**فإن تاريخ مشكلة الشـرق الأوسط – أى مـشكلة الغـرب مـع الشـرق – إنما يعـود إلى القـرن السـابع للميلاد**»!.. أى إلى ظهور الإسلام، وتحريره الشرق من هيمنة الغرب. . وبقائه القوة الشـرقية المجاهدة ضد مـحاولات اختطاف الغرب للشـرق من جديد. . وليست القضية هى قضية «قارعة سبتمبر» فى القرن الواحد والعشرين!.

* * *

بعد قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م:

فى ضـوء هذا الذى قـدمناه عن تزييف «المشـروع الغـربى: السـيـاسى. . والكنسى» لصورة الإسلام. . وبدء هذا التزييف مع بدء ظهور الإسلام وتحريره للشرق من هيـمنة الغرب الرومانى البـيزنطى. . ومقاصـد الغرب من وراء هذا التزييف:

أ – تغريب عـقول مـفكرينا ومثـقفـينا، ليتـبنوا نموذجه الحضـارى بدلاً من النموذج الإسلامى، فتصبح المركزية الغربية هى قبلتنا، طواعية وتطوعًا!. .

ب – وتضليل شعـوبه الغربيـة، لتنخرط فى المواجـهة مع الإسلام، دعـمًا لمشروع الهيمنة. .

جـ – وإراحة ضميـره، عندما يصدق الصورة التى زيفها للإسـلام – باعتباره نمطًا من الفكر البدائى والمتخلف، تؤمن به شعوب بدائية ومتخلفة، يحول بينها وبين «التـقدم» – بمعناه الغـربى – فيـقتنـع «الضمـير» الغـربى عندئذ – بمنطق الداروينيـة – أنه صاحب رسـالة تنويرية وتقدمـية وتحـضيـرية عندما يـحارب خصوصياتنا الحضارية، ويعادى مميزاتنا القيمية، ويعمل على إبادة البنى الموروثة لثقافتنا الإسلامية. . فهو الأقوى . . وبمنطق الداروينية، فهو الأصلح للبقاء فى هذا الصراع الحتمى!!. .

وذلك وصولاً إلى تحقيق الهيمنة على عالم الإسلام، ونهب ثرواته، الذى هو المقصد الأعظم لمشروع الهيمنة الغربى.. فى ضوء هذا الذى قدمناه حول هذا الموضوع - الذى هو موضوع الساعة.. كما هو موضوع التاريخ - نفهم كيف أن طوفان ثقافة الكراهية السوداء للإسلام وأمته وحضارته، الذى تفجرت ينابيعه الأمريكية والغربية فى وجوهنا، عقب «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م»، لم يكن من «إنشاء» هذه القارعة، ولا كانت أسبابه «جماعات العنف العشوائى» التى ترفع رايات الإسلام.. وإنما كان هذا الطوفان «تصعيدًا حادًا» لموقف تاريخى قديم، و«كشفًا» عن مخزون مكنون، وضع الغافلين منا واللاهين عن الحقائق فى موقف الذين تحدث عنهم القرآن الكريم عندما قال: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

* * *

وإذا كان استعراض وقائع هذا الطوفان - بل والبركان - الذى تفجرت حممه فى وجه الإسلام وأمته وحضارته وعالمه: سلاحًا يقتل.. وحصارًا يخنق.. وحملات نفسية وفكرية وثقافية ودينية وإعلامية.. وتهديدًا ووعيدًا - إذا كان استعراض وقائع هذا الطوفان والبركان يحتاج إلى دراسة مطولة ومتخصصة[٢٤].. فإننا نختار نماذج شاهدة على أن هذه الحرب التى أعلنها الغرب على الإسلام - تحت اسم «الأصولية الإسلامية» أو «الراديكالية الإسلامية» أو «الإرهاب الإسلامى».. وفى بعض الأحيان على الإسلام وقرآنه ورسوله ﷺ مباشرة وفى صراحة ووقاحة - إنما هى حرب المشروع الغربى - السياسى والحضارى والكنسى - وليست مجرد تعصب كاتب هنا أو حماقة أديب هناك.. نختار نماذج شاهدة من كلمات القيادات المسئولة، المعبرة عن أركان النظام الأمريكى والغربى، ومشروع الهيمنة الذى يعلنون عنه الآن عندما يكتبون ويقولون: إن القرن الواحد والعشرين إنما هو قرن الإمبريالية الأمريكية، والإمبراطورية الأمريكية دونما منافس أو شريك!..

إنها حــرب معلنة - وليس مؤامــرة سرية تدبر فى الخفــاء - على «الإسلام المقاوم» لمشــروع الهيمنة الأمــريكى/ الغربى، وليست حــربًا على الإسلام الذى يقف عند الشعــائر والعبادات، وتــقصير الثــياب، وإطالة اللحى، وفــقه الغناء والموسيقى والدخان والتصوير!.. ولا الإسلام الذى يغرق فى بحار الدروشات والشعوذات والخرافات!..

وهذا الإســلام المقاوم للهــيـمنة هو الذى يسمــونه «الأصــولية الثــورية».. وتعريفهم لها - حتى لا يخدعنا مخادع - قد حدده الرئيس الأمريكى الأسبق- ورجل الاستــراتيجــية - «ريتــشارد نيكســون» عندما وصف هؤلاء الأصــوليين الإسلاميين الثوار بأنهم: «هم المصممون على:

- استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى..

- والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية..

- وينادون بأن الإسلام دين ودولة..

- وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»!(٢٥)

وإذا كــانت هذه «الأصوليــة الإســلاميــة الثــورية»، التى أعلنت أمــريكا - والغرب - الحرب علــيها، عقب «قارعــة سبتمــبر»، فإنها هى بعــينها الإسلام الشامل والمقاوم لمشــروع الهيمنة الأمريكى/ الغــربى.. وهى البعث الإسلامى، على وجه الدقــة والتحديد.. وليست «جــماعات العنف العشــوائى» بحال من الأحوال..

وإذا نحن تجاوزنا - مجاراة للبعض - عن دلالات وصف الرئيس الأمريكى «بوش - الصغيــر» هذه الحرب بأنها «حملــة صليبية».. وقبلــنا - تجاوزًا - ما يقوله هذا البــعض من أن هذه العبارة هى «زلة لسان»!.. فــإننا نقدم هنا نماذج «للتــصريحــات - الحيــثيــات» الصادرة من أعــمدة الســياســة والإدارة والفكر

الاستراتيجى، للمشروع الأمريكى والغربى والتى تشهد على أن هذه الحرب إنما هى معلنة ضد الإسلام، أو داخل الإسلام. . والإسلام المقاوم للهيمنة على وجه الخصوص والتحديد:

* فوزير العدل - نعم العدل! - الأمريكى «چون أشكروفت»، لم يكتف بالحديث عن حرب الحضارة ضد البربرية، والخير ضد الشر، والمدنية ضد التخلف - كما صنع آخرون- وإنما ذهب ليتفوق على غلاة القساوسة المنصرين، فسب إله العالمين، الذى يؤمن به مليار ونصف المليار من المسلمين. . فقال: «**إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله**»!![26]. .

* والسيناتور الأمريكى «جوزيف ليبرمان» - الذى كان مرشحًا ديموقراطيًا لمنصب نائب الرئيس فى الانتخابات الأمريكية سنة ٢٠٠٠م. . ومرشح الرئاسة القادمة - يعلن: «**أنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التى نراها ضرورية.. فالشعارات التى أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهى عند الحدود الأمريكية، بل تتعداها إلى الدول الأخرى**»!! . .[27]

* ووزيرة الخارجية الأمريكية السابقة «مادلين أولبرايت»، تعلن: «**إننا، معشر الأمريكيين، أمة ترتفع قامتها فوق جميع الشعوب، وتمتد رؤيتها أبعد من جميع الشعوب**»![28]. . فتتحدث إلى الشعوب الإسلامية بلغة النازية، التى سبق أن عانت منها!. .

* والزعيم «الدينى - السياسى» «بات روبرتسون»، مؤسس جماعة التحالف السياسى المسيحى - التى تسيطر على الكونجرس الأمريكى، والحزب الجمهورى، والإدارة الأمريكية - وهو مرشح أسبق للرئاسة الأمريكية، والأب الروحى للرئيس «بوش - الصغير»، الذى وُلد - بوش - على يديه ولادته المسيحية الجديدة، بعد انحرافه الذى استمر حتى سن التاسعة والثلاثين -. .

يعلن «بات روبرتسون»: «أن الدين الإسلامى دعا إلى العنف.. وأنه بالنظر إلى المعنى الحقيقى لآيات قرآنية، فإن أسامة بن لادن أكثر وفاء لدينه الإسلامى من آخرين.. وأن أمريكا بحاجة إلى إنذار ضد خطر المسلمين الذين يكرهون أمريكا ويحاولون تدمير إسرائيل.. وأننا - فى هذه الحرب - إنما نعلى كلمة اللّه الذى يقف معنا، مع الحق فى هذا الصراع الدينى الذى نخوضه، ويحيطنا بعنايته...»!! . .(٢٩)

* والمستشرق الأمريكى الصهيونى «برنارد لويس» - وهو من أعمدة المشيرين على صانع القرار الأمريكى - يقول، فى كتابه الذى أصدره بعد «قارعة سبتمبر» بعنوان [ما هو الخطأ فى العلاقة بين الإسلام والغرب؟]: «إن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب.. فالنظام الأخلاقى الذى يستند إليه الإسلام مختلف عما هو فى الحضارة اليهودية / المسيحية - [الغربية] - وآيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين.. وهذه الحرب هى حرب بين الأديان»!!(٣٠)

* و«تونى بلير»، رئيس وزراء انجلترا، يعلن - فى ١٧ سبتمبر سنة ٢٠٠١م- أى بعد ستة أيام من «قارعة سبتمبر»، أن هذه الحرب التى أعلنها الغرب على الإسلام: «هى حرب المدنية والحضارة - [فى الغرب] - ضد البربرية - [فى الشرق]..»!.

* أما «مارجريت تاتشر»، رئيسة وزراء انجلترا الأسبق، فإنها تكتب عن «تحدى الإرهاب الإسلامى الفريد، الذى لا يقف عند أسامة بن لادن، بل يشمل حتى الذين أدانوا هجمات الحادى عشر من سبتمبر.. على أمريكا - والذين انتقدوا بشدة أسامة بن لادن وطالبان، لكنهم «يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب».. فالذين يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع المصالح الغربية، تصفهم «تاتشر» بأنهم «أعداء أمريكا.. وأعداؤنا»، وتشبههم بالشيوعية، وتدعو الغرب إلى معاملتهم كما عامل الشيوعية»!! . .(٣١)

* ورئيس وزراء إيطاليا «سيلفيو بيرلسكونى» يعلن - فى ٢٦ سبتمبر سنة

٢٠٠١م – : «أن **الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية.. ولا بد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام، الذى يجب أن يهزم؛ لأنه لا يعرف الحرية ولا التعددية ولا حقوق الإنسان.. وأن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب.. وأنه قد نجح – حتى الآن – فى تعميم حضارته وفرض نفسه على العالم الشيوعى وقسم من العالم الإسلامى**»!! . [٣٢]

* وغير أعمدة النظم والسياسة والإدارة فى أمريكا وانجلترا وإيطاليا، نجد وزير الداخلية فى ألمانيا «أوتوشيلى» يبلغ الحد الذى يصف فيه «**عقيدة الإسلام بأنها هرطقة وضلال**»!! . . [٣٣]

* أما وزير خارجية ألمانيا «يوشكا فيشر»، فإنه يعلن – فى محاضرة «حول آفاق السياسة الدولية إثر اعتداءات ١١ سبتمبر» أمام طلبة جامعة «فراى» – برلين – **يعلن شكوكه فى «قدرة الإسلام على التطور»!.. و يتساءل : «هل يوجد طريق إسلامى إلى الحداثة»؟ – بمعناها الغربى! – ثم يصف الأصولية الإسلامية – الرافضة للحداثة والقيم الغربية – بأنها «التوتاليتارية الجديدة»**![٣٤] – **أى الديكتاتورية والشمولية الجديدة – !!..**

* أما أساطين الفكر الاستراتيجى الأمريكى المشيرون على صانع القرار، والذين توضع نظرياتهم فى الممارسة والتطبيق – من مثل «فرانسوا فوكوياما» الذى أعلن أن «الليبرالية الرأسمالية المنتصرة على الشيوعية هى نهاية التاريخ، التى يجب تعميمها وقبولها فى كل الفضاءات العالمية». . ومن مثل «صموئيل هنتنجتون»، الكاشف عن الموقف الغربى فى نزعة صدام الحضارات. . والذى أشار على صانع القرار الأمريكى بتحييد الحضارات العالمية حتى يفرغ من مصادمة ومصارعة الإسلام. فإن المشروع الغربى للهيمنة يضع نظريات هؤلاء المفكرين فى الممارسة والتطبيق، ونراها رأى العين، وتلمسها حواسنا فى طوفان التصريحات والقرارات التى توالت وانهالت عقب «قارعة سبتمبر». . وفى المواجهة الحادة التى قام بها الغرب ضد الإسلام، والحروب. . والمحاصرات. . والتهديد والوعيد، الذى يمثل هذا «الكابوس» القائم فى عالم الإسلام. .

أما أساطين الفكر الاستراتيجى هؤلاء . . فلقد كانت لهم فضيلة «الصراحة العارية» فى التعبير عن حقيقة هذه الحرب، ومقاصدها . .

فهى ليست حربًا على «جماعات العنف العشوائى» الإسلامية . . ولا على ما يسمى «بالإرهاب». وإنما هى «حرب داخل الإسلام»، لتغيير طبيعته وخصوصيته، «وحتى يقبل الحداثة - بمعناها الغربى»، أى القطيعة مع خصوصيته وماضيه، «فيصبح علمانيًا يقبل المبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فيقف عند ما لله فى ملكوت السماء والدار الآخرة، وخلاص الروح، ويترك دنيا العالم الإسلامى وثرواته للهيمنة الأمريكية والغربية . . ! . .

وبعبارات «فوكوياما»: «فإن الحداثة، التى تمثلها أمريكا وغيرها من الديموقراطيات المتطورة، ستبقى القوة المسيطرة فى السياسة الدولية، والمؤسسات التى تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر فى الانتشار عبر العالم.. وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولاً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها.. لكن السؤال الذى نحتاج إلى طرحه هو:

- هل هناك ثقافات أو مناطق فى العالم ستقاوم، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث - بهذا المعنى الأمريكى والغربى؟!

ثم يجيب «فوكوياما» عن هذا التساؤل الذى طرحه، فيقول:

«إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة.. فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم، فهو وحده قد ولّد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: التسامح الدينى.. والعلمانية نفسها.. وإنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكى وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها، لو أنها فقط استطاعت ذلك، فإن الأصوليين المسلمين يرون فى هذه الاستهلاكية دليلاً على الانحلال الغربى».

فالرفض الإسلامى ليس فقط لظلم السياسات الأمريكية والغربية. . وإنما هو للتبعية لمنظومة القيم الغربية. . ولذلك، يعلن «فوكوياما» أن هذه الحرب التى أعلنتها أمريكا والغرب على الإسلام المقاوم، ليست حربًا على «جماعات العنف العشوائى» ولا على هذا الذى سموه «إرهابًا» وإنما هى حرب على الإسلام الرافض للحداثة الغربية والعلمانية الغربية والاستهلاكية الغربية. . يعلن ذلك، فى «صراحة عارية» - يحمد عليها - فيقول:

«إن المسألة ليست -ببساطة- حربًا على الإرهاب، كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم - [؟!] - وليست المسألة الحقيقية - كما يجادل الكثير من المسلمين - هى السياسة الخارجية الأمريكية فى فلسطين، أو نحو العراق. إن الصراع الأساسى الذى نواجهه، لسوء الحظ، أوسع بكثير، وهو مهم، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الدينى جميع القيم السياسية الأخرى.. إن الصراع الحالى ليس -ببساطة- معركة ضد الإرهاب، ولا ضد الإسلام كدين أو حضارة، ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحداثة الغربية... وإن التحدى الذى يواجه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من مجرد معركة مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين، فبحر الفاشية الإسلامية، الذى يسبح فيه الإرهابيون يشكل تحديًا أيديولوچيًا هو، فى بعض جوانبه، أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية»!!.

ثم يتحدث «فوكوياما» عن «التطور الأهم» الذى يجب أن يحدث للإسلام ذاته، والذى يجب أن يتم داخل الإسلام، لتعديل الإسلام حتى يصبح قابلاً للحداثة الغربية والعلمانية الغربية والاستهلاكية الغربية، فيقول:

«إن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية»؟.. أم لا؟!. . (٣٥)

فالقضية - فى التحليل الأعمق - ليست «إرهاب» جماعات العنف العشوائى.. ولا هى «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م» ولا حتى السياسة الخارجية الأمريكية المعادية لقضايا المسلمين العادلة.. فكل ذلك تجليات للصراع بين المشروع الغربى وبين النزوع الإسلامى إلى التمايز الحضارى والاستقلال القيمى والثقافى، والذى يرفض الهيمنة الغربية التى تفرض حداثتها وعلمانيتها على العالم، بما فى ذلك عالم الإسلام..

وحتى لا يخلط الوهم بين هذه «الحداثة الغربية» - التى تقيم قطيعة معرفية كبرى مع الموروث الدينى، وبين «التجديد الإسلامى»، الذى يستصحب الثوابت ويطور فى المتغيرات.. نسوق كلمتين لاثنين من دعاة هذه الحداثة فى بلادنا..

* أولاهما كلمة «هاشم صالح»، المتخصص فى ترجمة وتسويق المشروع الحداثى للدكتور محمد أركون.. فلقد كتب - عقب قارعة سبتمبر - داعيًا إلى انتهاز فرصة الهجمة الغربية على الإسلام، لتبنى الحداثة الغربية، التى أحلت وتحل «الدين الطبيعى» محل «الدين الإلهى»!! فقال: **«إننا يجب أن نلتحق بڤولتير [١٧٣٤ - ١٧٧٨م] وتصوره الطبيعى عن الدين والأخلاق، فالدين الحقيقى هو الدين الطبيعى.. وإن العبرة هى بأعمال الإنسان وليس بمعتقداته، أو حتى صلواته وعباداته.. ولابد من تأويل جديد لتراثنا يختلف عن تأويل الأصولية، بل وينقضه.. تأويل يكشف عن تاريخية النصوص التأسيسية، ويحل القراءة التاريخية محل القراءة التبجيلية لهذا التراث»!!..** (٣٦)

* أما الكلمة الثانية فهى للدكتور على حرب، والذى قال عن حداثة مشروع أركون وهاشم صالح: **«إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون..»!!** (٣٧)

فالعدو - عند المشروع الأمريكى - هو الإسلام المقاوم للعلمانية الغربية

والحداثة الغربيـة، والاستهلاكيـة الغربية.. أى الإسلام المقـاوم للمسخ الغربى والأمريكى..

والعدو - عند الحداثيين الذيـن يحملون الأسماء المسلمة - ليس الإمـبريالية الأمريكية وهيمنتها، وإنما «إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون».. ولا حول ولا قوة إلا بالله!!..

* * *

هذه هى حقيـقة الموقف الذى نحن فيه .. وحـقيقة التحـدى الذى نواجهه الآن..

صحـيح أنه يشبـه «الكابوس»، خصوصًـا إذا رأيناه فى ضوء حـال الأمة - حكامًا ومحكومين - وفى ضوء نجاح الغرب فى اسـتغلال مشكلة الأرثوذكسية الروسية مع المسلمين الشيشان.. ومشكلة الهندوسـية الهندية مع المسلمين فى كشمير.. ومشكلة الكونفشيوسيـة الصينية مع المسلمين فى تركستان الشرقية.. نجاح الغـرب فى استـغلال هذه المشكلات لإقـامة تحـالفات - بعض أطرافـها متـعاون.. وبعـضها صـامت - فى هذه الحرب الغـربية على الإسـلام، حتى ليتذكر المحلل للموقف الراهن مشـورة «صموئيل هنتنجتون» سنة ١٩٩٣م على صانع القرار الأمـريكى، بتحييـد الحضارات الأخرى، وبدء صـدام الحضارات أولاً بالإسلام!..

إننا، أمـام هذا «الكابوس»، فى مـوقف شـبيـه بموقف المسلمين يوم غـزوة الأحزاب.. عندما تحالفت كل أطراف الشرك - رغـم ما بينها من تناقضات - مع اليهود - رغم ما بينهم وبين الشرك والوثنية من تناقـضات.. تحالفوا جميعًا ضد الدولة الإسلامية الوليدة، والدين الإسلامى الجديد.. حتى لقد زاغت من الصحابة الأبصار، وبلغت القلوب الحـناجر، وزلزل المسلمون زلزالاً شديدًا من هول هذا «التـحالف - الكـابوس».. بل وظنوا بالله الظنون!.. ﴿**إِذْ جَاءُوكُم**

مّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. .

أو لكأننا أمام الحلف «الصليبى - التترى»، الذى اجتاح فيه التتر ودمروا مشرق العالم الإسلامى، وهددوا بقية الوجود الإسلامى فى مصر والمغرب. . يوم أعلنوا - بعد دمارهم لبغداد والمشرق -:

«لقد فتحنا بغداد، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها»!!.. ثم وجهوا التهديد لمن بمصر، قائلين: «إنهم إن كانوا فى الجبال نسفناها، وإن كانوا فى الأرض خسفناها».. وأرسل «هولاكو» [١٢١٧ - ١٢٦٥م] إنذاره إلى الملك المظفر «قطز» [٦٥٨هـ ١٢٦٠م] قائلاً فيه: «لقد فتحنا البلاد، وقتلنا معظم العباد.. فأى أرض تؤويكم، وأى طريق ينجيكم، وأى بلاد تحميكم؟!.. فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، ونحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فمن طلب حربنا ندم.. فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم، وعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب.. ولقد أعذر من أنذر»!!.. حتى لقد حسب الناس يومئذ «أن القيامة قد قامت»!!(٣٨)

فما كان من العلماء والأمراء والخاصة والعامة إلا أن نفروا للجهاد، فكان نصر الله فى «عين جالوت» [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م]. . وانهزم التتار لأول مرة فى تاريخهم. . ثم دخلت دولتهم وقبائلهم بعد ذلك فى الإسلام. .

والآن.. ما العمل؟

ما العمل أمام هذا «التحالف - الكابوس»، الذى جمع على الإسلام وأمته وحضارته «أحزاب القرن الواحد والعشرين»، كما اجتمعت عليها الأحزاب فى تاريخها القديم والوسيط؟!. . حتى لقد أصبح الإسلام - بنظرهم - متهمًا. . والمسلمون يعاملون كما كانوا يعاملون من قبل «محاكم التفتيش»!. .

صحيح أن أمتنا فى موقف شبيه بموقفها يوم غزوة الأحزاب [٥هـ ٦٢٧م] ولكن دون أن تكون لها القيادة النبوية، ولا جند الجيل الفريد الذين صنعهم على عينه رسول الله ﷺ..

لكن.. هل نحن اليوم أقل من المماليك أمام التتار؟!

إننا نملك المنهاج الإسلامى، الذى تعامل المسلمون على هديه ووفق سننه مع حصار غزوة الأحزاب.. ومع حملات الصليبيين.. والتتار.. المنهج الذى يقول: إن هذه التحديات الشرسة التى تواجه الإسلام اليوم، إنما هى التعبير عن أننا بإزاء ظاهرة صحية، ولسنا بإزاء حالة مرضية.. أننا بإزاء أمة تستيقظ، لتنفلت بدينها وحضارتها وعالمها من المأزق الحضارى الذى يأخذ منها بالخناق.. مأزق الوهن أمام التخلف الموروث والهيمنة الغربية.. وما هذه التحديات الشرسة إلا محاولات الغرب لإجهاض يقظة أمة الإسلام، وإلا فلو كانت أمتنا ميتة وميئوسًا من إحيائها وحياتها، لما تداعت عليها كل أحزاب العصر، ولما ضربوها بهذه القسوة.. «فالضرب فى الميت حرام» - كما يقولون- وهو لا يستأهل ما يبذل فيه من جهد، ولا ما ينفق عليه من أموال!.. وإذا كان هناك من يشك أو يشكك فى هذه الحقيقة، فليعد قراءة هذا الذى كتبه المفكرون الاستراتيجيون الغربيون - والذى أوردناه - عن أن هذه الحرب إنما تُشن على أمتنا لأنها الوحيدة على النطاق العالمى العصية والمستعصية على الانصياع للتغريب، والقبول بالحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والاستهلاكية الغربية، والقيم الغربية، اعتصامًا بخصوصياتها الإسلامية، واستمساكًا بمنهاج الإسلام.. فنحن نُضرب لأننا نقاوم ما يريده بنا ولنا جبروت «أحزاب القرن الواحد والعشرين»!.

وهذا «المنهج: السنة والقانون» هو الذى اهتدى به المؤمنون يوم الأحزاب، وتحدث عنه القرآن الكريم عندما أشار إلى هؤلاء الذين زاغت منهم الأبصار وبلغت قلوبهم الحناجر، وظنوا بالله الظنون، وزُلزلوا زلزالاً شديدًا.. فقال:

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

إن هذه الحرب المعلنة ضد الإسلام، من قِبل مشروع الهيمنة الغربى، منذ ظهور الإسلام وحتى هذه اللحظات، هى سنة إلهية من سنن الابتلاء والاختبار والتدافع بين الحق والباطل، ليس لها تبديل ولا تحويل، ولن تقف عند نهايات هذا الطور الذى نواجهه الآن: ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢]..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى، قد حفظ دينه، فإن إقامة هذا الدين هى مهمة المؤمنين به.. وكذلك إعمال السنن الإلهية فى التدافع الحضارى والفكرى، لا يتم إلا بواسطة الذين ينهضون بوضع هذه السنن - بعد فقهها والوعى بها - فى الممارسة والتطبيق بأرض الواقع المعيش.. وليس فقط بالأمانى، وعلى الألسنة والأوراق.. ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

لذلك، فنحن -أمام هذا «الكابوس» - بإزاء عدد من الخيارات:

أولها: خيار الاستسلام، يأسًا وقنوطًا من روح الله ونصره.. وهو خيار بائس، ينسى أصحابه أننا لسنا بإزاء شىء جديد غير مسبوق فى تاريخ الإسلام والمسلمين، وإنما أمام «دورة» من دورات التدافع والصراع، واجهت أمتنا أسوأ منها، وتعاملت مع ما هو أشد قسوة منها.. فكان تاريخ الشرق الإسلامى، دائمًا وأبدًا، مقبرة الغزاة والإمبراطوريات.. من الرومان.. وحتى الإمبراطوريات الغربية الحديثة..

وذلك فضلاً عن أن هذا اليأس - الذى لا يقرأ أهله ولا يعون سنن التاريخ

يخرجهم - والعياذ بالله - من حظيرة الإيمان بحقيقة الإسلام ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

والخيار الثانى: هو خيار «العنف العشوائى».. وهو خيار يحرم قضايانا العادلة من أصدقاء كثيرين - حتى فى إطار الشعوب الغربية وتيارات الفكر الغربى - .. فضلاً عن أنه يسىء إلى حقيقة الجهاد الإسلامى.. ناهيكم عن عدم جدواه أمام شراسة التحديات التى تواجهها أمتنا فى هذا المنعطف من منعطفات المواجهة بين الفرعونية والقارونية الأمريكية وبين الإسلام.. بل لربما أعطى هذا «العنف العشوائى» بعض الذرائع لهذه الفرعونية كى تستر بعضًا من مقاصدها الكالحة، واستبدادها القبيح.

أما الخيار الثالث: فهو خيار المقاومة الإسلامية لهذه التحديات الغربية - بالمعنى الشامل للمقاومة - .. ونقطة البداية فى هذه المقاومة هى «إرادة الصمود»، التى هى المعيار الحقيقى، والفارق الجوهرى بين النصر والهزيمة.. فهناك أمم انكسرت إرادتها فى الحروب والمواجهات، فلم يعوضها عن انكسار الإرادة وفرة أسباب القوة المادية - كاليابان مثلاً -.. وهناك حالات تتعاظم فيها إرادة الصمود كلما تعاظمت شراسة التحديات - والحالة الإسلامية نموذج جيد لهذا النوع - والحمد لله.

وبعد «إرادة الصمود»، تلزمنا «الإدارة» التى ترمم وترتب «البيت العربى والإسلامى»، فى إطار الحد الأدنى الذى يعظِّم الإمكانات العقدية والفكرية والبشرية والمادية الهائلة التى تملكها أمتنا..

وهذا الاجتماع العربى الإسلامى على هذا الحد الأدنى من التضامن، ليس لمحاربة أمريكا والغرب.. فنحن لا نريد ذلك، ولا قِبل لإمكاناتنا بمثل ذلك.. وإنما نريد هذا الحد الأدنى من التضامن لتحسين أوراقنا ومواقع أقدامنا أمام هذه التحديات.. و لتمكيننا من التدافع، الذى هو حراك يعدل الموازين، ويغير المواقف، ويحسّن الأوضاع، ويزيل الخلل الفاحش، ويكثّر الأصدقاء، ويقلل

الأعداء، أو يحيّد بعضهم، دون أن يبلغ حد الصراع والقتال: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت: ٣٤].

إننا نريد المقاومة، بمعناها العام، والجهاد بمعناه الشامل.. وليس القتال أو الحرب، بمعناهما الخاص.. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله**» [رواه الدارمى].

وإن تحقيق الحد الأدنى من التضامن والتكامل والتكاتف والتساند بين دول وإمكانات العالم الإسلامى - بدءًا ببعض الدول المحورية - هو الإعداد والاستعداد الذى يحقق الردع للأعداء فلا يطمعون فى أن يبلغ الغى والتجبر الحدود القصوى.. وفى ذلك بداية التغيير لاتجاه الخط البيانى فى معادلة العلاقة بين الإسلام وأمته وحضارته وبين التحديات الشرسة التى فرضها ويفرضها علينا مشروع الهيمنة الغربية هذه الأيام.

* * *

تلك هى جذور المواجهة التى تعيشها أمتنا الآن.. وهذه هى حقيقة صورة الإسلام فى الخطاب الغربى.. وهذا هو المخرج من المأزق الذى يأخذ منا بالخناق.. والذى تزيغ منه الأبصار.. وتبلغ القلوب الحناجر.. ويزلزل الكثيرين منا زلزالاً شديدًا..

وعلينا أن نتذكر دائمًا وأبدًا، أننا إذا قصرت بنا الهمم عن التأسى بصحابة رسول الله ﷺ يوم الأحزاب.. فحرام أن تقصر بنا الهمم عن التأسى بالمماليك أمام التتار!..

والله نسأل أن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا.. وأن يهدينا إلى الأخذ بسننه فى التدافع والنصر.. إنه، سبحانه وتعالى، خير مسئول وأكرم مجيب.

* * *

الهوامش:

(١) الإشارة إلى عبد الله بن المقفع [١٠٦ - ١٤٢هـ ٧٢٤ - ٧٥٩م] كان فى الأصل مجوسيًا - مزدكيًا - فأسلم، وألف وترجم فى الفلسفة.. وقتل بتهمة الزندقة.

(٢) [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ٢٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

(٣) [الأعمال الكاملة] جـ ٢ ص ٣٤٢ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

(٤) [الأعمال الكاملة] ص ١٩٥ - ١٩٧. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٥) فى التقرير السنوى لمكتب التحقيقات الفيدرالية - بالولايات المتحدة الأمريكية - أن الاعتداءات على المسلمين فى أمريكا كانت سنة ٢٠٠٠م ٢٨ حالة، وارتفعت سنة ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٠ جريمة، أى بنسبة ١٦٠٠٪ - صحيفة «الأهرام» - القاهرة: فى ٢٧-١١-٢٠٠٢م.. وفى تقرير المنظمة الأمريكية لحقوق الإنسان أن النسبة قد ارتفعت إلى ١٧٠٠٪.

(٦) صحيفة «الأسبوع» - القاهرة - فى ٥-١١-٢٠٠١م. وصحيفة «العالم الإسلامى» - مكة - فى ١٦-١١-٢٠٠١م. وصحيفة «عقيدتى» - القاهرة - فى ٦-١١-٢٠٠١م.

(٧) من حديث جاك بيرك فى ٢٧-٦-١٩٩٥م. انظر: حسونة المصباحى «العرب والإسلام فى نظر المستشرق الفرنسى جاك بيرك»، صحيفة «الشرق الأوسط»- لندن - فى ١-١١-٢٠٠٠م.

(٨) من مراسلات القناصل - أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية - باريس - سنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٢ - ١٨٤٨ - ١٨٩٧ - ١٨٩٨م. انظر كتابنا [هل الإسلام هو الحل؟] ص ٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

(٩) [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ص ٢٣، ٢٤. ترجمة: ثابت عيد، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(١٠) المرجع السابق: ص ٣٢، ٣٣.

(١١) المرجع السابق: ص ٢١.

(١٢) المرجع السابق: ص ١٨، ٢٥.

(١٣) المرجع السابق: ص ٢٤.

(١٤) ترجم هذه النصوص عن الألمانية: ثابت عيد، ضمن ملف - تحت الطبع - عن «تقييمات غربية لأسلوب القرآن».

(١٥) محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص ٥٧- ٥٩. طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

(١٦) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] - الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو - ص ٤٥٢، ٢٢، ٢٣، ٧٨٩، ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥. طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى.. مالطا - سنة ١٩٩١م.

(١٧) المصدر السابق، ص ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧.

(١٨) المصدر السابق، ص ٧٧٠.

(١٩) صحيفة «الشرق الأوسط» فى ١٣-١٠-١٩٩٩م.

(٢٠) صحيفة «الشرق الأوسط» فى ١-١٠-١٩٩٩م.

(٢١) صيحة «العالم الإسلامى» فى ٦-١٠-٢٠٠٠م.

(٢٢) من كتاب [أمريكا من الداخل] - والنقل عن: د. جابر قميحة «سيد قطب والإسلام الأمريكانى» - صحيفة «آفاق عربية» - القاهرة - فى ٢٧-١٢-٢٠٠١م - والدكتور جابر ينقل عن مجلة «الرسالة» سنة ١٩٥١م.

(٢٣) ريتشارد نيكسون: [الفرصة السانحة] ص ٢٨، ١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٥٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩. ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

(٢٤) انظر دراستنا عن «الهجمة الأمريكية على الإسلام» بكتابنا [فى فقه المواجهة بين والغرب والإسلام] طبعة القاهرة، سنة ٢٠٠٣م.

(٢٥) [الفرصة السانحة] ص ١٤٠.

(٢٦) صحيفة «الشرق الأوسط» فى ٢١-٢-٢٠٠٢م..

(٢٧) صحيفة «الأهرام» فى ١٦-١-٢٠٠٢م.

(٢٨) صحيفة «الأهرام» فى ٣٠-١٠-٢٠٠١م.

(٢٩) صحيفة «الشرق الأوسط» فى ٣-٢-٢٠٠٢م و«الحياة»- لندن - فى ٢٦-٢-٢٠٠٢م. و«الأهرام» فى ١١-١٢-٢٠٠٢م.

(٣٠) «صحيفة الأهرام» فى ٢-٣-٢٠٠٢م، ٣-٣-٢٠٠٢م - والأهرام ينقل عن مقال «زخارى كاربيل» فى «النيوزويك» - الأمريكية - بتاريخ ١٤-١-٢٠٠٢م.

(٣١) صحيفة «الشرق الأوسط» فى ١٤-٢-٢٠٠٢م.

(٣٢) صحيفة «الحياة» فى ٣٠-٩-٢٠٠١م.

(٣٣) صحيفة «الأهرام» فى ٢-٣-٢٠٠٢م.

(٣٤) صحيفة «الشرق الأوسط» فى ٢٦-٤-٢٠٠٢م.

(٣٥) «النيوزويك» العدد السنوى - ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م.

(٣٦) صحيفة «الشرق الأوسط» فى ٢٦-١٢-٢٠٠١م.

(٣٧) صحيفة «الحياة» فى ١٨-١١-١٩٩٦م.

(٣٨) المقريزى [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] جـ ١ ق١ ص ٤٢٧، ٤٢٨. تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

الديانات السماوية والحروب الدينية

١- وحدة الدين.. وتعدد الشرائع

كل الديانات السماوية - وفى مقدمتها اليهودية. . والنصرانية. . والإسلام- هى فى حقيقتها وأصولها وحى سماوى معصوم، وشرائع إلهية فى إطار الدين الإلهى الواحد. . فدين الله واحد، من آدم إلى محمد عليهم جميعًا الصلاة والسلام. . وأصول الإيمان فى هذا الدين الواحد ثابتة:

* وحدانية الإله الخالق والمعبود.

* والإيمان بالغيب والحساب والجزاء.

* والعمل الصالح فى هذه الحياة الدنيا.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]. .

وفى إطار هذا الدين الإلهى الواحد، الذى هو الإسلام - من إسلام المؤمن وجهه لله، أى إفراده بالعبودية والطاعة دون كل الشركاء وجميع الطواغيت - فى إطار هذا الدين الإلهى الواحد تعاقبت، وتمايزت الشرائع الإلهية، بتتابع الرسالات والنبوات، وبتمايز مكونات ومقتضيات ومصالح ومراحل تطور أمم هذه الرسالات. .

ولأن مصدر الدين والشرائع واحد - وهو الله، سبحانه وتعالى - ولأن مقاصد الدين هى هداية الإنسان إلى عبادة الله وفق شعائر شريعته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].. ولأن الهداية هى ثمرة للإيمان، الذى هو تصديق قلبى، استحال أن يكون الإكراه طريقًا إلى تحصيل الهداية والإيمان.. ومن ثم استحال أن تكون الحرب - التى هى العنف القتالى، والقتال المزهق للأرواح - سبيلاً من سبل الإيمان بالدين، أو النشر الحقيقى لحقيقة الدين..

٢- منهاج الدعوة فى الشريعة الموسوية

وإذا نحن التمسنا الموقف الحقيقى والأصلى لليهودية - التى هى شريعة موسى عليه السلام، من هذه القضية - موقف الدين من الحرب الدينية - فسنجد منهاج الدعوة اليهودية، كما حدده الله، سبحانه وتعالى، لموسى وهارون، عليهما السلام، عندما بعثهما إلى فرعون، فقال: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾

[طه: ٤٢ - ٤٧]..

فالقول اللين هو منهاج الدعوة، حتى فى مواجهة الطغيان الفرعونى.. ولما تخوّف موسى وهارون من رد فعل الطغيان الفرعونى، جاء التأكيد الإلهى على هذا المنهاج السلمى واللّين فى الدعوة.. وعلى أن العون الإلهى، وإعلان السلام لمن اتبع الهدى هو المنهاج فى الدعوة إلى الشريعة الموسوية، وليس العنف أو الحرب والقتال..

وحتى عندما ظل فرعون على كفره وجبروته.. وتصاعد هذا الكفر والجبروت بعد هزيمته فى المواجهة التى تمت - يوم الزينة - بين آية الله التى ظهرت على يد موسى - عليه السلام - وبين سحر السحرة الذين حشدهم

فرعون، عندما آمن هـؤلاء السحرة بإله موسى، فعاقبـهم فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلّبهم فى جذوع النخل.. حـتى عندما تصاعد الكفر والجـبروت والطغـيان الفـرعونى إلى هـذه الحدود، لم يتـغيـر منهاج الدعـوة اليهـودية، فالإيمان القلبى بالله، سـبحانه وتعـالى، لا يغير مـن يقينه ولا من منهاجه السلمى هذا الحكم المتجبر على الأجساد فى هذه الدنيا الفانية: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٠-٧٦].

فحـتى فى مواجـهة الجبـروت والإكراه الفـرعونى، ظل منهـاج الدعوة فى الشريعة الموسوية هو اللين والتزكية للنفس، والصبر الجميل على الإيذاء..

ولأن موسى - عليـه السلام - لم يقم دولة، ولم يقد جيـشًا، ولم يخض حربًا ولا قتالاً.. وإنما وُلد ونشأ وبُعث فى مـصر.. ومات ودُفن فى تيه سيناء المصرية، فلقد ظلت شريعته بريئـة من أى إكراه أو حرب دينية، تتوسل بالقتال لنشر هذا الدين..

هذا عن حقيقة اليهودية الحقة، كما تجلت فى شريعة موسى - عليه السلام..

٣- الحرب الدينية فى التراث اليهودى

لقد نزلت شريعة اليهودية على موسى - عليه السلام - بمصر، وتلقى الألواح باللغة الهـيروغليفـية.. ثم تمرد اليـهود على شريعـة التوحيـد، فعبـدوا العجل

الذهبى، حتى أُشربوا فى قلوبهم هذا العجل الذهبى!. . . وتعلقوا بالوثنية - التى كانت شائعة فى شعوب كثيرة - قائلين لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. .

وبعد موت موسى - عليه السلام - قادهم «يشوع بن نون» فى غزو أجزاء من بلاد كنعان - فلسطين - فتكلموا إحدى اللهجات الكنعانية - التى تطورت فيما بعد إلى العبرية - وعبدوا آلهة كنعانية، وانطبعوا بعادات وتقاليد وثقافات مغايرة كل المغايرة لشريعة موسى - عليه السلام. . وقتلوا كثيرًا من الأنبياء الذين قاموا فيهم لردهم إلى الشريعة الإلهية التى نزلت على موسى - عليه السلام. . حتى لقد جاء فى سفر «إشعيا» - إصحاح ٥٧ : ٤، ٥ - فى وصف ما آلت إليه حالهم: «**أما أنتم يا أولاد المعصية، نسل الكذب، المتوقدون على الأصنام تحت كل شجرة خضراء، القاتلون لأولادهم فى الأودية تحت شقوق المعاقل**».

وجاء فى سفر «حزقيال» - إصحاح ١٧ : ٢٠- قول الرب لأورشليم: «**أخذت بنيك وبناتك الذين ولدتهم لى وذبحتهم لها طعامًا**».. وهى عبارة جاء فى شرحها: «**إن أهل أورشليم قد مارسوا كل عبادة الكنعانيين الفاسدة، كما مارسوا وثنية غيرهم من الأمم الوثنية كالآشوريين والمصريين والكلدانيين والأموريين والحيثيين، بل إنهم فاقوهم فى ممارسة هذه الوثنية، حيث أخذوا بنيهم وبناتهم وذبحوهم للآلهة الوثنية طعامًا، بل وأجازوهم فى النار**»(١). . فحدثت القطيعة الكبرى بين اليهود وبين شريعة موسى - عليه السلام - إن فى العقيدة، أو فى القيم، أو فى القانون. .

ثم انتهت بهم الانحرافات والصراعات والمحاربات، مع الشعوب الأخرى ومع بعضهم البعض. . انتهت بهم هذه المسيرة وهذا التاريخ إلى الدمار الذى أوقعه بهم الملك البابلى «نبوختنصر» [٦٠٥ - ٥٦٢ق.م] وإلى محنة السبى البابلى [٥٨٦ق.م]. .

وأمام هذه الكارثة التى حلت بهم، وحفاظًا على الوجود، وإنعاشًا للذاكرة بالتاريخ، قام أحبارهم بإعادة كتابة «التراث اليهودى»، فى تلك الأسفار التى زادت على العشرين. . وهى الأسفار التى سماها «بولس - الرسول» - فيما بعد - ولأول مرة بـ [العهد القديم] - وذلك فى رسالته الثانية إلى أهل «كورنثوث» - إصحاح ٣ : ١٤ . .

ولقد عكس هذا «التراث اليهودى» نفسية الاضطهاد وعقلية السبى، وروح الانتقام من كل الأغيار، فشاعت فيه النصوص التى تدعو إلى الحرب وإلى إبادة الآخرين، وإلى تدمير كل مظاهر الحياة والأحياء عند الشعوب الأخرى، باعتبارها - كما زعموا - أوامر الرب، الذى جعلوه محاربًا، ومتعطشًا إلى الدماء، بل وسموه «رب الجنود»! . .

وهكذا تبلور لليهود «تراث» عنصرى. . دموى. . يمجد الحرب الدينية، منقلبًا بذلك على الشريعة الموسوية الحقة، التى نهجت منهاج «القول اللَّين» حتى فى مواجهة الطغيان الفرعونى الشديد والفريد. . وهكذا وجدنا فى هذا «التراث اليهودى» اليهود شعبًا مختاراً لله، بل وشعبًا مقدسًا، دون سائر الشعوب، وفوق جميع الشعوب، لا بحكم التوحيد لله والتقوى فى عبادته، وإنما بحكم «الولادة والدم والعنصر»! . . بل لقد أضفوا هذه القداسة والعصمة حتى على بهائمهم!! . . ووجدنا الأوامر «الإلهية» التى تدعوهم إلى تدمير كل الأغيار - من البشر إلى الشجر إلى الحجر . . ومن الحيوان إلى الطبيعة. . ومن الكبار إلى الأطفال. . ومن الرجال إلى النساء - فكان هذا الدستور اليهودى للحروب الدينية، الذى جاء فيه - على سبيل المثال -:

* **«فقال الرب لموسى: اكتب هذا تذكاراً فى الكتاب، وضعه فى مسامع يشوع: فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء»** - سفر الخروج. إصحاح ١٧ : ١٤ -. . ثم أصبح كل الأغيار مثل العماليق عبر تاريخ هذا التراث! . .

* **«إن سمعت عن إحدى مدنك، التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها، قولاً. .**

فضربًا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرّمها.. [أى تدمرها وتبيدها] بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف. تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار، المدينة، وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد.. لكى يرجع الرب عن حُمُوّ غضبه ويعطيك رحمة» سفر التثنية. إصحاح ١٣ : ١٢، ١٥ - ١٧. . . فرحمة الرب مرهونة ومشروطة بإبادة الأغيار وكل مكونات الحياة عند هؤلاء الأغيار، لمجرد أنهم «قالوا قولاً» سمعه اليهود! . .

* «وكلّم الرب موسى فى عربات موآب على أُردن أريحا قائلاً: كلِّم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون للأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم.. تملكون الأرض وتسكنون فيها، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم فى الأرض التى أنتم ساكنون فيها، فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» - سفر العدد. إصحاح ٣٣ : ٥٠ - ٥٣، ٥٥، ٥٦..

* «وحين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن.. فلا تستبق منها نسمة ما. بل تحرمّها - [أى تبيدها]..» - سفر التثنية. إصحاح ٢٠ : ١٠ - ١٦.

فالذين يصالحون ويسلّمون، لهم العبودية والاستعباد. . والذين لا يصالحون ولا يسلّمون لهم الإبادة والدمار! . .

* «سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرّمهم - [أى تبيدهم وتدمرهم].. لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم.. لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص

من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. مباركًا تكون فوق جميع الشعوب لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التى عرفتها لا يضعها عليك، بل يجعلها على مبغضيك. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم» - سفر التثنية. . إصحاح ٧ : ١ - ٣، ٦، ٧، ١٤ - ١٦ - فلا شفقة على أى من الشعوب. . بل أكلهم أكلاً!. .

* وحتى يؤبد الأحبار. . - الذين كتبوا هذا «التراث» - هذه العنصرية ضد كل الأغيار، والكراهية لجميع غير اليهود، والحرب الدينية التى لا تبقى ولا تذر، نسبوا هذا «الانتقام الأبدى»، وهذا التأبيد لروح الانتقام إلى الرب. . فكتبوا فى هذه الأسفار: **«إن الرب لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع»** - سفر العدد. إصحاح ١٤ : ١٨. .

ثم جاءت تعليقاتهم على هذا التراث - فى التلمود. . وفتاوى الحاخامات - لتؤبد روح الانتقام من كل الأغيار. . فالحاخام «العقيد . أ. فيدان (زيمبل)» يصدر فتوى - فى سبعينيات القرن العشرين - تنشرها قيادة المنطقة الوسطى فى الجيش الإسرائيلى - التى تقع الضفة الغربية الفلسطينية تحت سلطتها - يحض فيها على قتل حتى «المدنيين الطيبين من الفلسطينيين»! باعتبار ذلك تكليفًا دينيًا، والتزامًا «بالهالاكاه» - الشريعة - وفى هذه الفتوى الدينية يقول الحاخام: **«فى حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب، أو خلال مطاردة حامية، أو غارة، إذا لم يتوافر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا، هناك إمكانية لقتلهم، أو حتى ضرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه.. بل تحض الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين»**![2] - ولقد ضُمنت هذه «المطاردة الحامية» فى اتفاقات «أوسلو» فى تسعينيات القرن العشرين -!. .

أما الحاخام «شمعون وايزر»، فإنه يجيب عن رسالة الجندى الإسرائيلى «موشى» - الذى يخدم فى فلسطين المحتلة سنة ١٩٦٧م - والتى يسأل فيها:

«هل نعامل العرب مثل العماليق؟ أى نقتلهم حتى نستأصل ذكراهم فى الأرض؟.. «ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء» - [تثنية. إصحاح ٢٥ : ١٩] - أم نقوم بما يحدث فى الحرب العادلة التى يقتل فيها الإنسان الجنود فقط؟.. وهل يجوز لى تقديم الماء لعربى يستسلم؟».

يجيب الحاخام «شمعون وايزر» على هذه الرسالة فيقول للجندى «موشى»:

«سأنقل لك بعض أقوال الحكماء، طيب الله ذكراهم، وأفسرها: الحرب لدى غير اليهود ذات قوانين خاصة، مثل قوانين اللعب، كرة القدم أو السلة. **لكن الحرب كما يقول حكماؤنا، طيب الله ذكراهم، لا تعنى بالنسبة لنا لعبة، بل ضرورة حيوية، واستنادًا إلى هذه المقاييس فقط ينبغى التفكير حول كيفية القيام بها.. أفضل غير اليهودى اقتلوه، وأفضل الأفاعى هشموا رأسها.. هذه هى قاعدة «طهارة السلاح» حسب الهالاكاه - الشريعة -»**.

فكانت الرسالة الجوابية من الجندى «موشى» لحاخامه «شمعون وايزر»: «تلقيت رسالتك، وفهمتها على النحو التالى: «**لا يُسمح لى فى زمن الحرب بقتل كل عربى أو امرأة أصادفهما وحسب، بل من واجبى أيضًا القيام بذلك**»!(٣)

وهكذا استمر إعلان الحرب الدينية اليهودية، فى هذا «التراث اليهودى»، الذى بدأ إعادة تدوينه «عزرا» - فى القرن الخامس قبل الميلاد - والذى اكتمل تدوينه قبل الميلاد بقرنين.. استمرت الحرب الدينية اليهودية معلنة ضد جميع الأغيار، حتى وضعتها الحركة الصهيونية فى الممارسة والتطبيق ضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين فى القرن العشرين!..

٤ - القطيعة بين التراث اليهودى والشريعة الموسوية

ونحن عندما نقول إن هذا «التراث اليهودى» - العنصرى.. الذى أعلن الحرب الدينية على كل الأغيار - لا علاقة له باليهودية الحقيقية، التى هى الشريعة الإلهية التى أوحاها الله، سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السلام فإننا لا نستند - فقط - إلى القرآن الكريم، الذى يقول: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ**

الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤ - ٧٦]، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

لا نقول إن هذا «التراث اليهودى» فى التشريع للعنصرية والحرب الدينية، هو من وضع الذين قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة. . وليس من شريعة موسى - عليه السلام - استنادًا، فقط، إلى القرآن الكريم، الذى أوردنا بعض آياته. . ولا نقول ذلك، فقط، استنادًا إلى المتخصصين فى دراسة هذا التراث اليهودى من ثقاة علماء المسلمين - ومنهم المرحوم الأستاذ الدكتور فؤاد

حسنين على - أستاذ العبرية والتراث اليهودى بجامعة القاهرة الذى قال: «إنه لا يوجد بالتوراة التى بين أيدينا خبر يُشتم منه أن موسى هو الذى جاء بها أو نزلت عليه، بل على النقيض من هذا يوجد فيها ما يؤيد عكس هذا، ومن هذه الأدلة مثلاً:

ما جاء فى الآية السادسة من الإصحاح الرابع من سفر التثنية بخصوص وفاة موسى، فبعيد البعد كله أن يكون هذا الخبر صادراً عنه، فقد ورد فى هذه الآية: «لا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا».

وفى الآية العاشرة من نفس الإصحاح جاء: «ولم يقم بعدُ نبىٌّ فى إسرائيل مثل موسى فكان حليمًا جدًا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض».

فكل هذه الآيات وأمثالها تدلنا على أن المؤلف شخص آخر غير موسى، كما أن هناك زمنًا بعيدًا بين وفاة موسى وبين تأليف التوراة التى بأيدينا..

ومن الأدلة الأخرى على ذلك، الاختلافات والتناقضات فى النص كاستعمال (يهوه) و(ألوهيم)، وبعض الألفاظ الأخرى التى نعلم أن معانيها تختلف أحيانًا حسب البيئة وحسب الزمن.. والتى لا يمكن أن تكون قد صدرت عن شخص واحد وفى عصر واحد:

فقصة الخلق مثلاً جاءت فى سفر التكوين - الإصحاح الأول: ٢٧ - وفيها: كان الإنسان آخر الخلق. وعرض لنفس القصة فى نفس السفر - الإصحاح الثانى: ٤-٢٥. فكان الإنسان هو الأول، وبعده جاءت الأشجار، فحيوانات الحقول، وطيور السماء.. الأمر الذى يجعل التوراة - كما هى الآن - وليدة عصور ونتاج عقليات متنوعة.

وقد استغلت فى سبيل وضعها مصادر عديدة، بعضها ذكر كما هو وبعضها حُذف منه أو أضيف إليه.. ومن أدلة تعدد هذه المصادر الاضطرابات الموجودة فى بعض القصص، مثلاً قصة الطوفان: فالآية الثانية عشرة من الإصحاح السابع من سفر التكوين تنص على أنه دام ٤٠ يومًا و٤٠ ليلة، بينما نقرأ فى الآية الرابعة والعشرين من الإصحاح السابع فى نفس السفر أنه دام ١٥٠ يومًا..

ثم إن أقدم المخطوطات الموجودة للتوراة الحالية تفصل بينها وبين النسخة الأصلية التى كتبت عنها مدة تقرب من ألف عام، وفى هذه المدة طرأ على الكتابة العبرية شيء كثير من التغيير والتبديل..»[٤].

إننا لا نبرئ موسى - عليه السلام - وشريعته الإلهية من هذا «التراث» العنصرى والدموى فى الحرب الدينية، استنادًا - فقط - إلى القرآن الكريم، وإلى ما كتبه الثقاة المتخصصون من علماء المسلمين، وإنما نستند كذلك إلى ما كتبه العلماء اليهود، الذين اشتغلوا وتخصصوا فى الدراسات النقدية للعهد القديم.. والذين أعلنوا نتائج دراساتهم هذه فقالوا - ضمن ما قالوا -: «إن هذه الأسفار المقدسة هى من طبقات مختلفة، وعصور متباينة، ومؤلفين مختلفين، حيث تستوعب هذه الأسفار ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من الزمن.. فلا ارتباط بينها، سواء فى أسلوب اللغة أم فى طريقة التأليف.. إن القسم الأكبر من توراتنا لم يكتب فى الصحراء.. وموسى لم يكتب التوراة كلها.. وأقوال التوراة ليست إلا لفائف من أماكن وعصور مختلفة لرجال وحكام وعشائر وأسباط مختلفة.. ففيها ثمانى مجموعات تعود إلى عصور مختلفة، وهى:

١ - لفائف قديمة تعود إلى عصر الصحراء (فى سيناء) تم تحريرها من قبل أحد أبناء أفرايم.

٢ - ولفائف من تعاليم الكهنة، تمت إضافتها إليها حتى عصر يوشع بن صادق.

٣ - ولفائف أعداد الأسباط.

٤ - ولفائف باعترافات الأنبياء.

٥ - ومجموعات من روايات بيت داود.

٦ - وأقوال الأنبياء ومجموعاتهم فى بابل.

٧ - وأقوال الكهنة والأنبياء العائدين من السبى.

٨ - وتكملات مختارة من عصر الحشمونيين - [أى القرن الثانى قبل الميلاد].

... إن سفر التكوين قد أُلّف بعد مئات السنين من استيطان اليهود فى فلسطين، وبعد أن تحصن الأسباط فى إرث استيطانهم بزمن طويل، وإن مؤلف السفر لم يكن موجوداً على كل حال قبل عصر إشعيا - [أى حوالى ٧٣٤ - ٦٨٠ ق.م]-... أما بالنسبة لسفرى الخروج والعدد، فإنهما معالجة لأساطير وأشعار قديمة.. وإن الإصحاحات الثمانية والثمانين الموجودة فى التوراة، بين أنشودة موسى - الموجودة فى سفر الخروج - وحتى الإصحاح الأخير من سفر العدد - هى فى مجموعها كتاب أحكام مركب من أجزاء شعرية وتاريخية، وأحكام وقواعد الكهنة، وطبيعة الأحداث فيها تستلزم أن تتزايد التغييرات والازدواجيات والتعديلات حيث إن العلاقة بين الأحداث ضعيفة، ومن الصعب علينا فهمها. وفى كل الأسفار كانت أقوال موسى قليلة إلى حد ما. كما أن أقوال داود قليلة فى سفر آخر منسوب إليه...»(٥).

ولو أننا ذهبنا نقتبس من هذا المصدر - الذى كتبه علماء يهود، وجمعه وحرره ونشره أحد علماء اليهود - النصوص التى تؤكد انقطاع صلة موسى - عليه السلام - بهذا «التراث» الذى أُلف وجمع على امتداد آلاف السنين - وهى النصوص التى تؤكد - من ثم - براءة موسى - عليه السلام- وشريعته الإلهية من هذا الفكر العنصرى والدموى فى الحرب الدينية - لو ذهبنا إلى ذلك لاقتبسنا عشرات الصفحات! . .

إن الذين كتبوا هذا «التراث» ونسبوه إلى موسى - عليه السلام - لم يكذبوا فقط على موسى، وإنما ذهبوا فكذبوا على الله، سبحانه وتعالى. . وذلك عندما نسبوا إلى رسوله ما لم يوح إليه. . وأيضًا عندما صاغوا أحلامهم فى الغزو والإبادة «وحيًا» و«أوامر» من الله إلى موسى - عليه السلام. . فالمعروف، والمجمع عليه أن موسى لم يدخل أرض كنعان، وأنه لم يقم بإبادة شعوب تلك البلاد. . ومع هذا، فلقد كتبوا فى سفر الخروج - على لسان الرب - أن موسى سيدخل أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والحويين واليبوسيين. . وسيبيد شعوب تلك البلاد . . «ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين والأموريين والحويين واليبوسيين.. أعادى أعداءك وأضايق مضايقيك. فإن ملاكى يسير أمامك،

ويجيء بك إلى الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم.. احفظ ما أنا موصيك اليوم: ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. احترز أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض التى أنت آت إليها لئلا يصيروا فخًا فى وسطك..» - سفر الخروج. إصحاح ١٣ : ٥، ١١ . وإصحاح ٢٣ : ٢٢، ٢٣ . وإصحاح ٣٤ : ١١، ١٢..

ولو أن الرب وعد موسى وأمره بشيء من ذلك، لتحقق وعد الرب وأمره.. لكن، بما أن شيئًا من ذلك لم يحدث، فنحن أمام كذب على الله، سبحانه وتعالى، وعلى رسوله موسى - عليه السلام.. ثم إن صورة موسى هذه تتعارض كل التعارض مع ما جاء فى وصفه فى الآية العاشرة من الإصحاح الرابع بسفر التثنية، من أنه «**كان حليمًا جدًا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض**»..

كل ذلك الكذب من أجل التعبير عن نزعة الحرب الدينية، وعن أحلام الإبادة لكل الأغيار..

ويزيد من غرابة هذا التعصب الحاقد والحقد المتعصب ضد الأغيار، أن مبعثه ليس رفض هؤلاء الأغيار لليهودية، وحرص الحاخامات والكهنة على هدايتهم إلى اليهودية، فهم لا يدعون أحدًا إلى دينهم الذى جعلوه احتكارًا لعنصرهم.. وإنما مبعث كل هذا الحقد وهذه الكراهية هو أنهم أغيار، وليسوا مولودين من أمهات يهوديات، فقط لا غير!!..

إذن، نحن أمام «تراث» دينى.. و«فكر» دينى، عندما خضع للنقد الداخلى، العلمى والموضوعى، ثبتت براءة اليهودية - كشريعة إلهية - من الانحراف إلى نزعة الحرب الدينية.. فهى، ككل الشرائع الإلهية، شريعة الدعوة إلى الله بالقول اللين: ﴿**اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]..

* * *

لقد اخترعت النفوس الدموية التى كتبت أسفار العهد القديم - فى ظل محنة السبى البابلى - إلهًا دمويًا متعطشًا للارتواء بدماء كل الأمم والشعوب - غير اليهود- وتحريم - أى إبادة- كل مكونات الحياة لدى كل الأمم والشعوب- غير اليهود - فكتبوا، فى سفر حزقيال، إصحاح ٣٩ : ١٧ - ١٩ -: «**هكذا قال السيد الرب: قل لطائر كل جناح ولكل وحوش البر. اجتمعوا وتعالوا احتشدوا من كل جهة إلى ذبيحتى التى أنا ذابحها لكم، ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحمًا وتشربوا دمًا. تأكلوا لحم الجبابرة وتشربوا دم رؤساء الأرض، كباش وحملان وأعتدة وثيران كلها من مسمنات باشان. وتأكلون الشحم إلى الشبع وتشربون الدم إلى السكر من ذبيحتى التى ذبحتها لكم**».

وكتبوا - فى سفر إشعيا، إصحاح ٣٤ : ١ - ٦ -: «**اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا، وأيها الشعوب اصغوا لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل نتائجها. لأن للرب سخطًا على كل الأمم وحُموًا على جيشهم. قد حرَّمهم دفعهم إلى الذبح. فقتلاهم تطرح وجيفهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم. ويفنى كل جند السموات.. للرب سيف قد امتلأ دمًا**»!!

هكذا بلغت القسوة بالقلوب التى كتب أصحابها هذا «التراث».. كتبوه بأيديهم، ثم قالوا هو من عند الله!..

٥ - الحرب الدينية فى «التاريخ» اليهودى

وبعد اختلاق «الفكر والتراث».. ذهبوا إلى اختلاق «التاريخ»!.. فلم يكتفوا بهذا الذى كتبوه بأيديهم ثم قالوا هو من عند الله.. ولا بهذه الصورة البشعة التى رسموها لله - تعالى الله عمّا يكذبون - وإنما ذهبوا «فاختلقوا واقعًا» - نعم «اختلقوا واقعًا» حدثت فيه معارك هذه الحروب الدينية التى تمنوها، وتمت فى هذه المعارك المتخيلة «الإبادة الإلهية» التى حلموا بها لكل من عدا اليهود.. «**لأن للرب سخطًا على كل الأمم**»!.. ولم يفكروا - وهم يكتبون هذا - أن هذه الإبادة الإلهية لكل الأمم والشعوب، لو حدثت - على النحو الذى كتبوا - لما بقى فى هذا العالم غير اليهود!!..

ولقد أثبتت الدراسات التي قامت وتمت حول حروب العهد القديم هذه، أن هذا الاختلاق لواقع المعارك والحرب قد كان «إعادة إنتاج» لأخبار الحروب التى تحدثت عنها الملاحم الأسطورية فى مواريث الشعوب الأخرى، فجعلها كتبة أسفار العهد القديم حروبًا لإسرائيل ضد كل الشعوب! . .

ولقد أشار «روبرت كارول»، فى دراسته عن الحرب فى العهد القديم إلى أن قصة حرب الملك «آحاب» - فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر الملوك - تتفق بشكل ما مع ما صوره «هوميروس» [القرن التاسع قبل الميلاد] فى الإلياذة، مع اختلافات طفيفة. . وأن هذه الصورة الدموية التى رسموها للرب، هى إعادة إنتاج للصورة الدموية للآلهة اليونانية «زيوس» و«هيرا»! . .(٦)

بل لقد اخترعوا وجودًا لمدن كنعانية، حتى يخترعوا معارك وحروبًا يتم فيها - بهذه المدن - التنفيذ والتطبيق للفكر الدموى الذى كتبوه! . . . فالمعركة التى قالوا إن «يشوع بن نون» قد خاضها ضد مدينة «عاى» وملكها وأهلها، قد أثبتت الحفريات الأثرية أنه لم تكن هناك - فى ذلك التاريخ - مدينة بهذا الاسم فى ذلك المكان. . «لم تكن هناك مدينة تدعى عاى ولا ملك يدعى ملك عاى. . وإنما مجرد أطلال خربة يرجع تاريخها إلى ١٢٠٠ سنة». . وكذلك الحال مع ما كتبوه عن معركة «يشوع» ضد مدينة «حاصور» - [إصحاح ١١ : ١٠ - ١٧] - فلقد تم تدمير هذه المدينة فى نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ثم أعيد بناؤها لتدمر ثانية سنة ١٢٣٠ تقريبًا. . »(٧).

إذن، فنحن - كما يقول «روبرت كارول» - فى دراسته عن الحرب فى العهد القديم -: «أمام نصوص بشرية عبرية، تمثل «إنتاجًا فكريًا للمجتمعات القديمة. . ونصوص الحرب فيها إنما تنتمى إلى إنتاجات فكرية لكتاب العهد القديم أكثر من كونها أوصافًا للحرب» التى حدثت فى الواقع والتاريخ! . .(٨)

* * *

بل إن مأساة الكذب وملهاته لتبلغ الذروة عندما نقرأ أرقام قتلى هذه

الحروب الدينيـة، التى حلم بها «واخترع» لهـا «واقعًا» هؤلاء الذين كتـبوا هذه الأسفـار. . فلقد بلغوا بضحـايا تلك الحروب المشتـهاة أرقامًا ربما فـاقت أرقام تعداد سكان مسرح أحداثها عـدة مرات - فى ذلك التاريخ القديم - . . بلغوا فيـها نحو مليـونين من الضحايا. . ناهيك عـن الضحايا الذين لم يتم إحـصاء أعدادهم - فى زمن كان حال الإحصاء فيه على نحو ما يعرف الجميع-!. .

وحتى نجـسد للقـارئ الفوارق الجوهرية والنوعـية بين العـقلية الإسلامـية والتاريخ الحقيقى والموثق الذى صنعه المسلمون. . وبين العقلية اليهودية والتاريخ الوهمى الذى تخيلته وحلمت به. . نسوق رقم ضحايا كل الغزوات التى انتصر بها الإسلام على الشرك والوثنية، وغيّـر بها مجرى التاريخ. . والتى لا يتعدى رقمها ٣٨٦ قـتيلاً، هم جملة قتلى المشركين وشـهداء المسلمين. . لنقارنه برقم المليونين من الضـحايا فى الحروب الدينيـة التى أورد أخبارها الكهنة فى أسـفار العهد القديم. .

وزيادة فى التـوثيق، نقـدم هنا جدولاً بالغـزوات الإسـلاميـة التى تمت فى العصر النبوى. . وآخر بالحروب التى وردت أخبارها وأرقام ضحاياها فى العهد القديم. .

أما فتـوحات الإسلام خارج إطار الشـرك الوثنى فى شبه الجزيرة الـعربية، فلقد كانت جميـعها حروب تحرير لشعوب الشرق من القـهر الدينى والسياسى والحضارى الذى مارسته قوى وإمبراطوريات الاستعمار البيزنطى والفارسى ضد تلك الشـعوب. . ولقـد دارت جمـيع معـارك هذه الفتـوحات ضـد جيـوش الاحتلال البيزنطى والفارسى. . ولم تدر معـركة واحدة منها ضد شعوب تلك البلاد. . بل لقد حاربت شعوب تلك البلاد - وهى على دياناتها القديمة. . مع العرب المسلمين ضد الروم والفرس . . لتحرير بلادها . . ولتحرير ضميرها من القهر والاضطهاد. .

غزوات الإسلام التى حدث فيها قتال

رقم	الغزوة	تاريخها	عدد قتلى المشركين	عدد شهداء المسلمين	ملاحظات
١	غزوة بدر	٢هـ	٧٠	١٤	
٢	غزوة السويق	٢هـ	-	٢	
٣	بعث كعب بن الأشرف	٣هـ	١	-	
٤	غزوة أحد	٣هـ	٢٢	٧٠	
٥	غزوة حمراء الأسد	٣هـ	١	-	
٦	بعث الرجيع	٣هـ	-	٧	
٧	بعث بئر معونة	٣هـ	-	٢٧	
٨	غزوة الخندق	٥هـ	٣	٦	
٩	غزوة بنى قريظة	٥هـ	-	-	الـ ٦٠٠ الذين قتلوا من بنى قريظة لم يقتلوا فى الحرب.. وإنما قتلوا قضاء بالتحكيم - الذى ارتضوه - جزاء على خيانتهم.. فلا يحسبون فى قتلى المعارك..
١٠	بعث عبدالله بن عتيك	٥هـ	١	-	
١١	غزوة ذى قرد	٦هـ	١	٢	
١٢	غزوة بنى المصطلق	٦هـ	-	١	
١٣	غزوة خيبر	٧هـ	٢	٢٠	
١٤	غزوة وادى القربى	٧هـ	-	١	
١٥	غزوة مؤتة	٨هـ	-	١١	
١٦	فتح مكة	٨هـ	١٧	٣	
١٧	غزوة حنين	٨هـ	٨٤	٤	
١٨	غزوة الطائف	٨هـ	-	١٣	
	المجموع		٢٠٣	١٨٣	المجموع الكلى من الجانبين ٣٨٦(٩)

ضحايا حروب العهد القديم

مسلسل	عدد ضحايا غير اليهود	المصدر
١	١٢,٠٠٠ ضحايا عاى	يشوع ٨/ ٢٥
٢	١٠,٠٠٠ من الكنعانيين والفرزيين	قضاة ١/ ٤
٣	١٠,٠٠٠ من موآب	قضاة ٣/ ٢٩
٤	١٢٠,٠٠٠ من مديان	قضاة ٨/ ١٠
٥	١٠٠٠ من شكيم	قضاة ٩/ ٤٩
٦	٣٠ من أشقلون	قضاة ١٤/ ١٩
٧	١٠٠٠ من الفلسطينيين	قضاة ١٥/ ١٧
٨	٣٠٠ من الفلسطينيين	قضاة ١٦/ ٢٧
٩	٢٠ من الفلسطينيين	صموئيل أول ١٤/ ١٤
١٠	٢٠٠ من الفلسطينيين	صموئيل أول ١٨/ ٢٧
١١	٢٢,٠٠٠ من آرام	صموئيل ثانٍ ٨/ ٥
١٢	١٨,٠٠٠ من آرام	صموئيل ثانٍ ٨/ ١٣
١٣	٤٠,٠٠٠ من آرام	صموئيل ثانٍ ١٠/ ١٨
١٤	١٠٠,٠٠٠ من آرام	ملوك أول ٢٠/ ٢٩
١٥	١٠,٠٠٠ من أدوم	ملوك ثانٍ ١٤/ ٧
١٦	١٨٥,٠٠٠ من آشور	ملوك ثانٍ ١٩/ ٣٥
١٧	١,٠٠٠,٠٠٠ من الكوشيين	أخبار الأيام الأول ١٤/ ٩، ١٣
١٨	٥٠٠ من الفرس	إستير ٩/ ٥
١٩	٧٥,٠٠٠ من الفرس	إستير ٩/ ١٦
٢٠	٣٠٠ من الفرس	إستير ٩/ ١٥

مجموع الضحايا من غير اليهود ١,٦٣٥,٦٥٠

مسلسل	عدد ضحايا اليهود فى حروبهم الداخلية أو مع الأجانب	المصدر
٢١	٤٢,٠٠٠ من أفرايم	قضاة ١٢/٦
٢٢	٢٢,٠٠٠ من إسرائيل	قضاة ٢٠/٢١
٢٣	١٨,٠٠٠ من إسرائيل	قضاة ٢٠/٢٥
٢٤	٢٥,٠٠٠ من بنيامين	قضاة ٢٠/٣٢
٢٥	٣٠ من إسرائيل	قضاة ٢٠/٣٩
٢٦	١٨,٠٠٠ من بنيامين	قضاة ٢٠/٤٢
٢٧	٢,٠٠٠ من بنيامين	قضاة ٢٠/٤٥
٢٨	٤,٠٠٠ من إسرائيل	صموئيل أول ٤/٢
٢٩	٣٠,٠٠٠ من إسرائيل	صموئيل أول ٤/ ١٠
٣٠	٥٠,٠٧٠ من بيتشمن	صموئيل أول ٦/ ١٩
٣١	٨٥ من الكهنة	صموئيل أول ٢٢/١٩
٣٢	٢٠ من عبيد داود	صموئيل أول ٢/ ٣٠
٣٣	٣٦٠ من رجال أبنير	صموئيل أول ٢/ ٣٠
٣٤	٢٠,٠٠٠ من إسرائيل	صموئيل ثانٍ ١٨/٧
٣٥	٤٢ من إخوة أخزيا	صموئيل ثانٍ ١٠/١٣
٣٦	٥٠ من الجلعاديين	صموئيل ثانٍ ١٥/٢٥
٣٧	١٢٠,٠٠٠ من يهوذا	أخبار الأيام: الثانى ٢٨/٦
٣٨	٧٠ من إخوة أبيمالك	قضاة ٩/٥

مجموع الضحايا من اليهود ٣٥٢,٨٢٧ ..

والمجموع الكلى للضحايا- المحصاة- من الجانبين ١,٩٨٨,٤٧٧ قتيلاً![١٠]

تلك هى حقيقة الانحراف اليهـودى نحو الحرب الدينية. . والتراث اليهودى الحالم بإبادة الآخرين، والمشـتهى لإبادة كل الأغيار. . والصـياغات الفكرية. . والخيالات والأمنيات اليهودية فى هذا الميدان. .

فالرب، فى هذا التراث، هو «**رب الجنود**» «**المحارب**».. و«**السـاخط على كل الأمم**» - غير اليهـود. . شعبه المختار. . والمقـدس. . دون كل الشعوب وفوق جمـيع الشعوب - وهو الذى يبـيد كل الأمم، ويدفـعهم للذبح. . «**فقـتلاهم تطرح، وجيفـهم تصعد نتانتهـا، وتسيل الجبال بدمائهم، ويـفنى كل جند السماوات للرب الذى امتلأ سـيفه دمًا**»!.. وهو قد اخـتار اليهود «**ليأكلوا كل الشـعوب أكلاً.. دون أن تشفق عليهم الأعين أو أن يقطعوا لهذه الشعوب عهدًا**»!

وهو «تراث وتاريخ» ننزه الله، سبحانه وتعالى، وننزه رسوله موسى - عليه السـلام - وننزه شريعـة اليهـودية الحقـة عن هذا الذى كتـبوه. . وصـدق الله العظيم: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٩].

* * *

ولقد تم إحياء هذا «التراث» على يد الحركة الصـهيونية الحديثة - التى عقدت حلفًا غير مـقدس مع الإمبريالية الغربية - لا لتـقف الحرب والإبادة عند الخيالات والتـمنيات - كـما كـان الأمر قـديمًا - وإنما لتوضع هذه الإبـادة - للفلسطينيين والعرب والمـسلمين - فى الممارسـة والتطبيق!. . ولينفـذ الجنود الصهـاينة - فى الأرض العربية المحـتلة - فتاوى الحاخامـات - التى تطبعها الدولة الصهـيونية - والتى تُطبق علـى العرب «التـراث» الذى اخـتـرعه الكـهنة والحاخـامـات لإبادة العماليق. . فإلههم «يهوه» ساخط على كل الأمم، ومتعطش للارتواء بالدماء!. .

وإلى الذين يمارون فى أن الكيـان الصهيونى القـائم على أرض فلسطين الآن إنما يحيى ويمارس هذا «التراث اليهودى فى الحـرب الدينية»، نشير إلى الدراسة التى قام بها العـالم «هـ. تامارين» بواسطة «الاستفتـاء الذى أجراه فى عدد من مدارس تل أبيب والمدن والمستعمرات الإسرائيلية، حول الأساليب التى انتهجها

«يشوع بن نون» [فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد] فتوصل إلى أن نحو ٦٦٪ - ٩٥٪ من تلاميذ هذه المدارس قد أيدوا إبادة يشوع لكل من عدا اليهود.. وأن ٣٠٪ من التلاميذ يؤيدون بصورة قطعية إبادة سكان العرب تمامًا فى المناطق المحتلة من فلسطين.. ومن الأجوبة التى تلقاها هذا التامارين: **«لقد تصرف يشوع بن نون تصرفًا حسنًا بقتله جميع سكان أريحا؛ ذلك لأنه كان من الضرورى احتلال البلاد كلها، ولم يكن لديه وقت لإضاعته مع الأسرى»!!**

وثمة إشارات عديدة فى أدبيات الجماعات الصهيونية المتدينة - مثل «جوش إيمونيم» و«كاخ» - إلى «يشوع بن نون»، وإلى أن أسلوبه فى الإبادة هو الأسلوب الأمثل فى التعامل مع العرب.. وقد دعا «كاهانا» - رئيس جماعة «كاخ» - المؤسسة الدينية اليهودية إلى تبيان أن أسلوب «يشوع بن نون» فى الإبادة لكل غير اليهود، هو جزء عضوى من الدين اليهودى والرؤية اليهودية لسكان الأرض العربية من غير اليهود![١١].

هذه هى الحرب الدينية فى التراث اليهودى.. وهذا هو الإحياء لهذا التراث.. وممارسة نزعة الإبادة لكل الأغيار ضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين.

٦- منهاج الدعوة فى النصرانية

إن رفض النصرانية، التى جاء بها المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - للعنف وللحرب -دينية وغير دينية- لا يحتاج إلى حديث كثير.. فهى شريعة الصوفية المسالمة، والسلام الصوفى، التى بلغت فى السلام والمسالمة حدودًا ربما عزّت على التطبيق خارج دائرة خواص الخواص.. فلقد جاءت النصرانية لتعالج «التراث اليهودى» - وليس الدين اليهودى والشريعة الموسوية- الذى وصل على طريق المادية والعنف وقسوة القلوب وغلظ الأعناق والأفقية حدودًا أخرجت هذا «التراث» - وتطبيقاته - عن منهاج موسى - عليه السلام.. فكان هذا السلام، فى النصرانية، على هذا النحو المغالى فى المسالمة، علاجًا للتراث اليهودى المغالى فى العنف والمادية، قصدًا إلى الوصول إلى صيغة وسطى ومتوازنة بين هذين النموذجين المتقابلين والمتناقضين..

وفى هذه الحقيقة السر والتفسير للوصايا الإنجيلية، التى ذهبت على درب السلام والمسالمة إلى حد القول: «**سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا. ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين.. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات**».. إنجيل متى. إصحاح ٥:٣٨ - ٤١، ٤٣ - ٤٥....

هكذا بدأت وظلت منهجية الدعوة فى النصرانية: السلام المتصوف.. والصوفية المسالمة.. وخلاص النفوس.. وتقوى القلوب.. وإدارة الظهر للدنيا والدولة والسياسة والاجتماع، على النحو الذى يباعد بين عالم النصرانية وبين هذا العالم المعيش، بما فيه من دولة ونظم وقوانين وإدانة وعقاب، فضلاً عما فى هذا العالم المعيش من عنف وحرب وقتال.. فمملكة النصرانية ليست فى هذا العالم.. وذروة سنام النصرانية الرهبنة، التى تجعل الراهب يغادر العالم المعيش!..

٧- الحرب الدينية فى تراث النصرانية الغربية

لكن.. كما حدث مع اليهودية، جاء «التراث النصرانى» - وبالذات تراث النصرانية الغربية - انقلابًا على هذا المنهاج الصوفى المسالم الذى جاء به المسيح - عليه السلام..

ونحن نقول: «تراث النصرانية الغربية»؛ لأنه لا بد من التمييز القاطع بين النصرانية الشرقية والنصرانية الغربية.. فالنصرانية الشرقية ظلت طوال تاريخها وفية للمبدأ النصرانى: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فلم تدخل ميدان السياسة والدولة والسلطة، وإنما وقفت كنائسها عند خلاص الروح ومملكة السماء.. ومن ثم فإنها لم تمارس العنف القتالى ولا الحروب الدينية، بل لقد

كانت فى قرونها الأولى- السابقة على ظهور الإسلام وتحريره للشرق - ضحية للاضطهاد الدينى الذى مارسه ضدها الرومان، فى عصر وثنيتهم، وفى عصر نصرانيتهم على السواء، وهو اضطهاد قارب حد الإبادة، ومع ذلك اتخذت هذه النصرانية إزاء هذا الاضطهاد موقف المسالمة واللاعنف، على نحو فريد.. ولم يحدث فى تاريخ هذه النصرانية الشرقية، اللجوء إلى العنف، اللهم إلا ضد الوثنية المصرية ومعابدها وفلاسفتها فى مرحلة من مراحل التاريخ.. أما حال النصرانية الغربية وكنائسها، فكان مختلفًا -فى هذه القضية- كل الاختلاف..

فمنذ دخول النصرانية -على يد بولس- إلى العاصمة الرومانية -روما- ودولتها، تحولت عن طبيعتها الروحية الخالصة، والصوفية المسالمة، لتصبح جزءًا من الحضارة الغربية، ذات الجذور اليونانية، التى تعتمد فلسفة القوة، والطابع المادى.. ولقد عبرت عن هذا التحول الكيفى والنوعى للنصرانية فى الغرب، تلك الكلمات العميقة التى قالها الفيلسوف المعتزلى قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمدانى [٤١٥هـ ١٠٢٤م]: «**إن النصرانية عندما دخلت روما، لم تتنصر روما، ولكن النصرانية هى التى تروّمت**»!

ومنذ ذلك التاريخ ، غدت النصرانية الغربية جزءًا من التراث الحضارى الغربى أكثر مما أصبح هذا التراث الحضارى الغربى نصرانيًا، بالمعنى الروحى والصوفى والسلمى للنصرانية الأولى..

* * *

* ولقد مارست كنيسة هذه النصرانية الغربية، ومعها الدولة الرومانية والبيزنطية -بعد تدين هذه الدولة بالنصرانية- مارستا حربًا من الاضطهاد البشع ضد النصرانية الشرقية، والمصرية منها على وجه الخصوص.. حتى لقد اعتبر النصارى المصريون هزيمة الدولة البيزنطية أمام الفتح الإسلامى عقابًا إلهيًا لهذه الدولة وكنيستها على الاضطهاد الذى مارسوه ضد نصارى مصر، عندما أصبحوا - فى هذا الاضطهاد الدينى والحضارى - طعامًا للنار والأسود

وأسماك البحار!.. وصبت عليهم كل ألوان التعذيب!.. فكتب «ميخائيل السريانى» يقول: **«لم يسمح الإمبراطور لكنيستنا المونوفيزتية -[أى القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح]- بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه.. لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل -[أى العرب المسلمون]- لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»**(١٢).

فبسبب اختلاف المذهب، وقفت الكنيسة الرومانية مع دولتها الاستعمارية، ومارست القهر الدينى والحضارى للنصارى الشرقيين..

* * *

* كذلك شنت الكنيسة الغربية ضد الشرق الإسلامى حربًا صليبية - «مقدسة»- استمرت حملاتها قرنين من الزمان [٤٨٩- ٦٩٠هـ ١٠٩٦- ١٢٩١م] وأشركت فيها الملوك وأمراء الإقطاع والرعاع من سائر أنحاء أوروبا- حتى لكأنها أولى الحروب العالمية التى مارسها الغرب ضد الشرق!- وفى هذه الحرب الصليبية استخدمت الكنيسة الدين لتحقيق المقاصد الاستعمارية، ولإعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامى الذى أنقذ الشرق ونصرانيته من إبادة الاضطهاد «الإغريقى - الرومانى» الذى دام عشرة قرون -من الإسكندر الأكبر [٣٥٦- ٣٢٤ق.م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد- إلى الفتوحات الإسلامية- فى القرن السابع للميلاد-..

إنها حرب قادتها الكنيسة وأعلنها البابا الذهبى «أوربان الثانى» [١٠٨٨- ١٠٩٩م] عندما خاطب فرسان الإقطاع الأوروبيين سنة ١٠٩٥م فى «كليرمونت» بجنوبى فرنسا- قائلا: **«يا من كنتم لصوصًا كونوا اليوم جنودًا! لقد آن الزمان الذى فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الإسلحة التى أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هى.. فى حق الله عينه..**

وليست هى لاكتساب مدينة واحدة.. بل هى أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء..

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلّصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض -حسب ألفاظ التوراة- تفيض لبنًا وعسلاً.. ومدينة أورشليم هى قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسًا سماويًا..

اذهبوا وحاربوا البربر -[يقصد المسلمين!] - لتخليص الأراضى المقدسة من استيلاتهم.. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية -[أى مفاتيح الجنة التى صنعها لهم البابا!]- واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدايكم، فالملك الشرقى يكون لكم قسمًا وميراثًا.

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التى مارستموها عدوانًا.. ومن حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا فاغسلوها بدم غير المؤمنين(١٣)».

فهى حرب «دينية- استعمارية»، يذهب إليها فرسان الإقطاع الأوروبيون، اللصوص المصطبغة أيديهم بدماء المظلومين، ليغسلوا أيديهم بدماء المسلمين!! .. وهم فى حملاتهم الصليبية المقدسة هذه، يحملون مفاتيح الجنة- المفاتيح البطرسية- التى صنعها لهم البابا الذهبى «أوربان الثانى» - ليفتدوا أنفسهم من كثرة الاغتصابات التى مارسوها عدوانًا.. وأيضًا ليتملكوا ويرثوا- بهذه الحرب «المقدسة»- التى هى «فى حق الله عينه» - أى فى سبيل الذات الإلهية -!- حسب تعبير البابا- كل أقاليم آسيا ذات الخزائن الغنية التى تفوق الإحصاء، والتى تفيض لبنًا وعسلاً!! .. والتى تشابه فى الخصوبة فردوسًا سماويًا!! ..

هكذا تحولت المقاصد الدينية المقدسة إلى سبل وآليات وطاقات شحن لتحقيق الاستعمار والنهب والاستغلال.. وأصبحت الآخرة فى خدمة لصوص

الدنيا. . وحملت الأيدى المخضبة بدماء المظلومين مفاتيح الفردوس الإلهى الأعلى! . .

وفى موقعة احتلال الصليبيين لمدينة القدس وحدها سنة ١٠٩٩م تمت مجزرة الإبادة الكاملة لسكانها المسلمين - ومعهم اليهود - بالقتل والذبح والإحراق. . ونحن ننقل عن شهود العيان النصارى، الذين حفظت لنا مشاهداتهم المصادر النصرانية، لمحة من لمحات هذه الحرب الدينية النصرانية على الإسلام والمسلمين. تقول هذه الشهادات - فى كتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق، المدعوة حرب الصليب]: «**إن ديوان المشورة العسكرية الْتَيَم -[أى اجتمع]- وقطع حكمًا مرهبًا، وهو: أن يُمات كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة.. وهذا الحكم المهيل قد تباشر بالعمل.. ودامت هذه الملحمة مدة سبّب -[أى سبعة أيام]- كاملة**»!!..

وحتى الذين هربوا واحتموا بالمسجد - مسجد عمر بن الخطاب (قبة الصخرة)- ذبحهم الصليبيون فى المسجد. . وبعبارة شهود العيان: «**.. على أنه باطلاً -[أى عبثًا]- كان الإسلام -[أى المسلمون]- فى أورشليم يجدّون مفتشين عن مهرب يحمون به حياتهم.. فعدد كليّ منهم قد هربوا إلى جامع عمر ظانين أنهم هناك يحمون ذواتهم من الموت، ولكن ظنهم خاب، إذ إن الصليبيين- خيالة ومشاة- قد دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك.. حتى استوعب الجامع من الدم بحراً متموجًا، علا إلى حد الرُّكب، بل إلى لجُم الخيل.. وذلك مما فتكت به سيوف الجيوش الصليبية أرقاب -[أى رقاب]- الإسلام -[أى المسلمين]..**»(١٤).

وبعد أن «**كلّت أيدى الصليبيين من سفك الدماء**»!! - كما يقول مؤلف هذا الكتاب: رجل الدين النصرانى «مكسيموس مونروند»- ذهبوا إلى كنيسة القيامة- التى حررها عمر بن الخطاب، وتحرج أن يصلى فيها، كى تظل خالصة للنصرانية والنصارى - ذهب الصليبيون إلى كنيسة القيامة، وهم سكارى،

يرددون الصلوات، وأيديهم غارقة فى دماء المسلمين الذين ذبحوهم فى مسجد عمر بن الخطاب!! . . وبعبارة شهود العيان النصارى: «.. **ولما حل المساء، اندفع الصليبيون يبكون من فرط الضحك -[!!]- بعد أن أتوا على نبيذ المعاصر -[!!]- إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة فى الدماء على جدرانها، ورددوا الصلوات..»!!**

ثم كتبوا إلى البابا الذهبى «أوربان الثانى»، الذى صنع لهم مفاتيح الجنة لقاء هذا الذى صنعوا بالإسلام والمسلمين. . فقالوا: «**ياليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهى تسبح فى دماء الكفار -[أى المسلمين]- ..»!!**

وإذا كانت هذه شهادة نصرانية قديمة، تؤكد على توسل الكنيسة الغربية بالدين لإعادة اختطاف الشرق من الإسلام، لنهب ثرواته. . فإن شهادة نصرانية معاصرة تؤكد -هى الأخرى- على الطابع الدينى لهذه الحرب الصليبية- التى دأمت قرنين ضد الإسلام- وفى هذه الشهادة المعاصرة يقول الدكتور «چاك تاجر»: «**إن ضخامة الوسائل التى أعدها الصليبيون، وتعدد هجماتهم، تدل بلا شك على أن الحروب الصليبية كانت محاولة لمحو نفوذ الإسلام فى الشرق، فقد شنت هذه الحرب أول ما شنت لانتزاع حماية القبر المقدس من الخلفاء، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى قتال عام بين جيوش الإسلام وجيوش المسيحية،أى بين الشرق المسلم والغرب المسيحى**»(١٥).

* * *

* وصفحة أخرى -دامية- من صفحات الحروب الدينية للكنيسة الغربية، تلك التى تمثلت فى نشر النصرانية بحد السيف، وإبادة كل من لم يتدين بدين الملك أو الأمير الذى اعتنق النصرانية! . .

- فالملك «شارلمان» [٧٤٢- ٨١٤م] فرض النصرانية على السكسونيين بحد السيف! . .

- وفى الدنمارك، استأصل الملك «كنوت- Cnut» [٩٩٥- ١٠٣٥م] الديانات غير المسيحية من بلاده بالقوة والإرهاب!..

- وفى روسيا، فرض الأمير «فلاديمير- Vladimir» [٩٨٠- ١٠١٥م] المسيحية الأرثوذكسية على كل الروس غداة اعتناقه لها سنة ٩٨٨م!.

- وفى الجبل الأسود، ذبح «دانيال بيتروفيتش- D. Petrovich» غير المسيحيين -بمن فيهم المسلمون- ليلة عيد الميلاد سنة ١٧٠٣م!.

- وفى المجر أرغم الملك «شارل روبرت» [١٣١٦- ١٣٧٨م] غير المسيحيين على التنصر أو النفى من البلاد سنة ١٣٤٠م!.

- وفى إسپانيا -قبل الفتح الإسلامى لها- أقسم الملوك على التنفيذ بالقوة لقرار «المجمع الكنسى السادس» - فى طليطلة - تحريم كل المذاهب المخالفة للمذهب الكاثوليكى»!..

* * *

* أما الحروب الدينية التى قادتها وخاضتها الكنائس الغربية بعضها ضد البعض الآخر -أى فى داخل النصرانية، وبين أتباع مذاهبها، التى أصبح لكل مذهب فيها «قانون للإيمان» يحتكر الخلاص لأبناء المذهب دون سواهم - هذه الحروب التى اشتعلت لإبادة المخالفين فى المذهب، أو إكراههم على تغيير عقيدتهم.. فإنها شهيرة، حتى لقد مثلت «عصرًا» من عصور الحضارة الغربية!.. وهى قد امتدت أكثر من قرنين، بين الكاثوليك وبين البروتستانت.. واشتهر منها إحدى عشرة حربًا - [١٥٦٢- ١٥٦٣م] و [١٥٦٧ - ١٥٦٨م] و[١٥٦٩ - ١٥٧٠م] و [١٥٧٢ - ١٥٧٣م] و [١٥٧٤ - ١٥٧٦م] و [١٥٧٦-١٥٧٧م] و [١٥٨٠م] و[١٥٨٥-١٥٩٤م] و [١٥٨٦م] و [١٦٢١م] و [١٦٢٥- ١٦٢٩م]..

ولقد ذهب ضحية لهذه الحروب ٤٠٪ من سكان وسط أوروپا.. ووفق إحصاء «ڤولتير» [١٦٩٤- ١٧٧٨م] عشرة ملايين إنسان!..

وذلك غير حرب الكنيسة اللاتينية الغربية ضد كنيسة أياصوفيا اليونانية - بالقسطنطينية- [١٢٠٢- ١٢٠٤م]، والتى تم فيها التدمير والاحتلال والسلب والنهب لمملكة القسطنطينية بأسرها!..[١٦]

* * *

* أما صفحة الحرب الدينية التى أعلنتها وخاضتها الكنائس الغربية، باسم «محاكم التفتيش» عندما أعلنت أن **«خلاص» المخالفين إنما يتحقق «بتخليصهم من الحياة»!**، بعد صب صنوف العذاب عليهم!!.. فلقد دامت هذه الحرب البشعة من عهد البابا «إنوسنت الثالث» [١١٩٨-١٢١٦م] -فى القرن الثالث عشر الميلادى- حتى القرن السابع عشر!!.. وغطت جميع ممالك وإمارات النصرانية الغربية.. وذهب ضحيتها ملايين الضحايا، الذين حكمت عليهم الكنيسة «بالخلاص: الذى يخلّصهم من الحياة» بالإغراق - أو الإحراق.. أو الإعدام على الخازوق -الذى استمر عقوبة للمخالفين ثلاثة قرون!!-..[١٧]

* * *

* أما أحدث صفحات وموجات هذه الحروب الدينية الغربية ضد الإسلام وأمته وعالمه، فهى تلك التى أعلنها اليمين الدينى الأمريكى، فى الإدارة الأمريكية، بقيادة «چورج بوش - الصغير»، بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م - فى أمريكا-..

وهى حرب تستهدف بترول الشرق الإسلامى -من منطقة البحيرات الأفريقية إلى بحر قزوين، مرورًا بالعراق والخليج العربى- لتحقيق الهيمنة الأمريكية على العالم، وانفراد الإمبريالية الأمريكية بالزعامة - دون شريك - فى القرن الواحد والعشرين.. ويقودها اليمين الدينى الأمريكى، برؤية توراتية، توحد بين هذا اليمين البروتستانتى وبين اليمين اليهودى والصهيونى..

وإذا كان الجميع مجمعين على استهداف هذه الحرب الاستيلاء على مصادر

الطاقة، للانفـراد بالهيمنة على الـعالم . . فإن الطابع الدينى لهـذه الحرب على الإسلام والمسلمين تقـوم عليه شواهد وأدلة وحقائق عـديدة . . وإذا كان البعض يمارى فى هذا البـعد الدينى لهذه الحـرب الاستعـمارية، فإننا نسـوق عدداً من الأدلة والبـراهين التى تدحض هذه المماراة . . ونقف فى هذه الأدلة والبـراهين عند أقوال الغربيين، واعـترافات الأمريكيين، لتكون شهـادات شهود من أهلها على هذا الطابع الدينى لهـذه الحرب الاستعـمارية - التى أعلنها اليـمين الدينى الأمريكى، بقيادة «بوش الصغير»، على العالم الإسلامى - عقب أحداث الحادى عشر من سبـتمبر سنة ٢٠٠١م . . وقبل بدء التحـقيق فى هذه الأحداث - التى انتهى التحقيق فيها دون توجيه أى اتهام قانونى لأى متهم من المتهمين-!! . .

- لقد وصف «جورج بوش - الصـغير» هذه الحـرب فى ١٦ سبتمـبر سنة ٢٠٠١م- بأنها «حملة صـليبية»- وهى عبـارة لمعناها فى العقل المسلم تاريخ - ثم جرت محاولات- غربية . . ومتغربة! - للتخفيف من وقع هذه العبارة على العالم الإسلامى، بالقول: إنها «زلة لسان»! . .

لكن تداعيات الوقائع والأحداث، فى هذه الحـرب الممتدة، قد جعلت حتى الفـاتيكان - وهو أكبر كنائس النصـرانية -يعلن- من خلال إذاعته الرسـمية، التى تذيع بتـسع وثلاثين لغة، وعلى لســان مدير هذه الإذاعـة الرسمـية الأب «باسكوالى بور جوميو»- يعلن أن الإدارة الأمريكية، فى حملتها على العراق، تتصرف «بلهـجة ومواقف صليبية»، فـيقول: **«فى الوقت الذى يدعو الفاتيكان إلى التعقل، ويشجع العـمل الديبلوماسى، ويدافع عن الحق الدولى، نرى فى الجانب الآخـر قوة عظمى تقـودها إدارة خـوّلت إلى نفسـهـا مهـمة إنـقاذية -[مـقدسـة]- واتخذت لهجة ومواقف صليبية»** !..(١٨)

كما صرح مـصدر رفيع، فى الفـاتيكان، **«بأن الحرب الأمريكيـة على العراق ستفسر من قبل ملايين المسلمين فى العالم الإسلامى بأنها حرب صليبية جديدة..»**.

أما بابا الفـاتيكان «يوحنا بولس الثـانى» فلقد أعلن: **«أننى أخـشى أن تثيـر الحرب على العراق صراعًا دينيًا.. بين المسيحيين والمسلمين»**..

أما الكاردينال «بيولاچى» – مندوب البابا فى المساعى الدبلوماسية لتجنب الحرب ضد العراق – فلقد أعلن: «إنها حرب ستقودنا إلى مستقبل مظلم سيقوض فرص الحوار بين المسيحية والإسلام»..[١٩]

أما الأنبا «يوحنا قلته» -نائب البطرك الكاثوليكى فى مصر- فلقد أعلن: «أن بوش يستخدم المسيح درعًا والصليبية ثوبًا للدفاع عن مصالح أمريكا المادية.. وأنه كان يقصد تمامًا معنى عبارة «الحملة الصليبية».. ولم تكن أبدًا زلة لسان»..[٢٠]

فهى «حرب صليبية» أعلنها ويقودها اليمين الدينى الأمريكى.. بشهادة الڤاتيكان – أكبر كنائس النصرانية، فى الشرق والغرب–..

– ولقد أعلن الرئيس الأمريكى الأسبق «جيمى كارتر» عن العقيدة الدينية – «المسيحية -الصهيونية» – التى تقود الإدارة الأمريكية – إدارة «بوش -الصغير»– فى هذه الحرب، عندما قال: «.. كمسيحى وكرئيس استفزته الأزمات الدولية بشدة، أصبحت على معرفة عميقة بالمبادئ التى تستند إليها أى حرب عادلة. ومن الواضح أن أى هجوم انفرادى على العراق لا يلبى متطلبات هذه المعايير. وهذه هى تقريبًا القناعة على مستوى العالم كله بين الزعماء الدينيين، مع استثناء واحد يتمثل «بمؤتمر معمدانى الجنوب» -«ساوثيرن بابتيست كونفنشون». وهؤلاء معروفون بالتزامهم تجاه إسرائيل من منطلقات ثيولوچية ضيقة تستند إلى فكرة آخر مرحلة حياتية قبل حلول يوم الدينونة»..[٢١]

– أما السيناتور «إدوارد كنيدى» والسيناتور «بابريك ليهى»، فلقد أعلنا: أن الإدارة الأمريكية مدفوعة إلى هذه الحرب «بحماسة مسيحية»..[٢٢]

ولقد كتبت «النيوزويك» -الأمريكية عن «بوش – الصغير» (حامل البشارة)، فقالت: إنه يؤمن «أن حربه على العراق ستكون حربًا عادلة وفق المفهوم المسيحى كما شرحها القديس أغسطين -فى القرن الرابع- وفصّلها كل من توما الأكوينى [١٢٢٥- ١٢٧٤م] ومارتن لوثر [١٤٨٣- ١٥٤٦م] وآخرون».

وأنه عندما استخدم مصطلح «الأشرار» فى وصف خصومه، قد «نبش هذه الكلمة مباشرة من المزامير» و«أنه يفكر فى سياسة خارجية تستند إلى الإيمان.. ويفكر فى حرب باسم الحرية المدنية -بما فى ذلك الحرية الدينية- فى القلب القديم للإسلام العربى.. ويحظى بدعم قوى من قاعدته فى الجناح السياسى للمؤتمر المعمدانى الجنوبى، من أمثال «ريتشارد لاند» و «فرانكلين جراهام» -الأب الروحى لبوش- والذى سب رسول الإسلام، ويندد بالإسلام باعتباره إيمانًا عنيفًا وفاسدًا!.. ولا يخفى -مع المبشرين الإنجيليين- رغبتهم تحويل المسلمين إلى المسيحية، حتى - لا، بل لا سيما- فى بغداد»!(٢٣)

هذا ما كتبته «النيوزويك» -الأمريكية- قبل شن الحرب على العراق..

أما الـ «نيويورك تايمز»، فإنها كتبت مقالين - فى ٥، ٦ / ٤ / سنة ٢٠٠٣م - أى فى ذروة الحرب على العراق - عن انخراط المبشرين الإنجيليين، تحت قيادة الآباء الروحيين «لبوش»، فى الحملة الأمريكية على العراق، بصحبة القوات الأمريكية الغازية، .. الأمر الذى «صبغ الحرب على العراق بصبغة الحروب الصليبية. وأن من بين تلك الجماعات التبشيرية المصاحبة للجيش الأمريكى مبشرين تابعين للكنيسة المعمدانية والكنيسة المنهجية، وكلتا الكنيستين كانت ضمن أهم الجماعات التى دعمت الرئيس بوش.. وهناك ٨٠٠ مبشر تطوعوا لمصاحبة الجيش الأمريكى الزاحف على العراق، لتقديم الدعم الروحى والمادى للشعب العراقى.. ومن بين هؤلاء المبشرين «فرانكلين جراهام»، الذى دشن حفل تنصيب چورچ بوش رئيسًا.. ووالده «بيل جراهام»، الذى أثار عاصفة داخل المجتمعات الإسلامية عندما وصف النبى محمدًا بأنه إرهابى ووثنى.. ولقد أعلن المبشر «فرانكلين جراهام» - فى القاعدة الأمريكية فى الكويت-: «لقد جئت إلى هنا تمهيدًا لدخول العراق. فرغم أن نسبة المسلمين فى العراق تشكل ٩٧٪ من إجمالى تعداد السكان، إلا أننا يجب ألا ننسى أن المسيحية سبقت الإسلام فى دخول العراق.. إننى هنا لدعم مسيحيى العراق، لكننا فى الوقت ذاته نخطط لتقديم الدعم للمسلمين، ليس باسمنا، ولكن باسم الرب».

أما والد هذا المبشر - القس «بيل جراهام» فهو الأب الروحى لجورج بوش، الذى قال عنه بوش: إنه الرجل الذى قادنى إلى الرب.. وهو الذى جعل بوش يواظب يوميّا على القراءة فى كتاب القس «أوزوالد شامبرز»، الذى مات سنة ١٩١٧م وهو يعظ الجنود البريطانيين والاستراليين بالزحف إلى القدس وانتزاعها من المسلمين»!!..(٢٤)

- أما وزير العدل الأمريكى -نعم العدل! - «جون أشكروفت» فلقد تجاوز الحدود، فسب إله العالمين، الذى يعبده المسلمون، لا يشركون به أحدًا.. فقال: «إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل الإله»!!(٢٥)

وهو، بهذا الذى قاله، يضلل الناس عن حقيقة ثقافة «الشهادة.. والاستشهاد» الإسلامية، التى تدعو إلى التضحية بالمال والنفس فى سبيل المقدسات التى أجمعت عليها منظومات القيم الإنسانية -الدينية والوضعية- والتى أشار إليها الحديث النبوى الشريف: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد» - رواه الترمذى-.. فثقافة الشهادة والاستشهاد - الإسلامية - هى ثقافة رد العدوان.. نعم.. لقد أجمعت كل ثقافات الفطر الإنسانية السوية على ضرورة الاستشهاد فى سبيل حماية هذه المقدسات، اللهم إلا ثقافة الجبناء، الذين هم أحرص الناس على حياة، فلا يتقدمون إلا للعدوان على الأوطان والمقدسات!..

- أما مفكر الاستراتيجية الأمريكية «صموئيل هنتنجتون»، فلقد وضع - بعد ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م-القضية فى صورة الصدام بين الغرب وبين العقيدة والقناعات الإيمانية للإسلام، فقال: «إن عناصر صدام الحضارات متوافرة، وإن ردود الفعل تجاه أحداث ١١ سبتمبر تمت فى حدود الخطوط والأطر الحضارية بشكل صارم.. والصحوة الإسلامية هى رد فعل تجاه الحداثة والتحديث

والعولمة.. ومع ذلك، فإن عصر حروب المسلمين له جذوره فى أسباب أكثر عمومية، وهذه الأسباب تعنى العقيدة الإسلامية والقناعات الإيمانية فى الإسلام»![٢٦]

- وفى نفس التاريخ يكتب المفكر الاستراتيچى الأمريكى «فرانسيس فوكوياما» فيقول: «إن الصراع الحالى ليس ببساطة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية.. التى تقف ضد الحداثة الغربية.. وضد الدولة العلمانية.. وهذه الأيديولوچية الأصولية تمثل خطراً أكثر أساسية -فى بعض جوانبه-من الخطر الذى شكلته الشيوعية.. والمطلوب هو حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الحداثة الغربية.. والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»!..[٢٧]

* * *

تلك شهادات أمريكية على «البعد الدينى الصليبى» فى هذه الحرب التى أعلنها اليمين الدينى الأمريكى على الإسلام والمسلمين..

صحيح أن الهدف الأول لهذه الحرب هو الاستيلاء على مصادر الطاقة -التى يملك العراق وحده منها مخزونًا إذا قيس بحجم إنتاجه يجعله آخر بلد فى العالم سينفد منه البترول[٢٨]..! وذلك لتحقيق هيمنة الإمپريالية الأمريكية على العالم فى القرن الواحد والعشرين -الذى يريدونه قرنًا أمريكيًا.. لكن البعد الدينى فى عقيدة الإدارة الأمريكية التى تقود هذه الحرب لا يمكن أن يغفله عاقل.. ولقد شهد عليه الڤاتيكان.. والكثير من الأمريكان!..

وصحيح -أيضًا- أن هذه الحرب ليست بين المسيحية والإسلام، ولا بين المسيحيين والمسلمين؛ لأن أكبر وأهم كنائس الغرب، ومعها كل كنائس الشرق، قد وقفت وتقف ضد هذه الحرب.. لكنها حرب اليمين الدينى الأمريكى، المتحالف مع اليمين الدينى اليهودى ضد الإسلام وأمته وعالمه، لمعاجلة اليقظة الإسلامية، ولإبقاء ثروات العالم الإسلامى لقمة سائغة فى فم الاستغلال الأمريكى، والشركات متعددة الجنسيات ومتعدية القارات..[٢٩]

هكذا برئت النصرانية الحقة، وتبرأ من نزعات الحرب الدينية..

وهكذا سقط «التراث النصرانى الغربى» فى مستنقع هذه الحرب الدينية.. منذ الحملات الصليبية للبابا الذهبى «أوربان الثانى» [١٠٨٨- ١٠٩٩م] ..وحتى الحملة الصليبية المعاصرة لليمين الدينى الأمريكى، بقيادة الرئيس الأمريكى «چورج بوش - الصغير»!..

وأمام هذه الكارثة.. نتمنى قيام تحالف يضم كل العقلاء والشرفاء من مختلف الديانات والفلسفات والحضارات، لإنقاذ العالم،وإنقاذ الشعب الأمريكى من هذه الإدارة -إدارة اليمين الدينى- التى تريد فرض «الإمپريالية- الصليبية» على العالم من جديد.

٨- الإسلام والحرب الدينية

ولأن الشريعة الإسلامية هى خاتمة الشرائع الإلهية لدين الله الواحد.. فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهى فى الدعوة إلى الإيمان الدينى.. منهاج الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥- ١٢٨]..

وفى ميدان هذا الإيمان القلبى، فإن رسول الإسلام ﷺ ليس مسيطراً.. ولا وكيلاً. ولا يستطيع أن يهدى من أحب: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].. ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦].. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]..

ولقد عللت هذه الشريعة الإسلامية وفلسفت هذا المنهاج السلمى فى الدعوة إلى الإيمان الدينى، بأن الإيمان -الذى هو تصديق قلبى يصل إلى مرتبة اليقين- يستحيل تحصيله وبلوغه عن غير طريق هذا المنهاج، إذ الإكراه إنما يثمر نفاقًا، ولا يثمر إيمانًا بأى حال من الأحوال.. ولذلك جاء النهى عن الإكراه فى الدين، انطلاقًا من نفى إمكانية تحصيل التدين الحق بواسطة الإكراه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. وعلى هذا «النفى» تأسس «النهى» عن الإكراه..

ولقد أفاض القرآن الكريم فى تأكيد هذا المنهاج السلمى فى الدعوة إلى الإسلام، وفى تحصيل الإيمان بالدين..

- فشرّع لفلسفة «التدافع» - الذى هو حراك فكرى واجتماعى بين الفرقاء - مختلفة عن فلسفة «الصراع»- ففى «الصراع» يصرع كل طرف الطرف الآخر، منهيًا بذلك التعددية والتعايش والحوار: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨].. بينما «التدافع» حراك يُعدّل المواقف، ويعيد التوازن والعدل، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣- ٣٥].. ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧-٩]..

فالتدافع حراك يعدّل المواقف، مع الحفاظ على وجود «الآخر» وعلى تميّزه، رجاء أن تحل المودة بين الفرقاء المتعددين محل العداوة والبغضاء..

– وفى مواجهة الفلسفات التى اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جِبِلَّة جُبل عليها الإنسان، وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه.. بل واعتبرت الحروب طريقًا للتقدم!.. فى مواجهة هذه الفلسفات، أعلن القرآن الكريم أن القتال مكروه.. واستثناء.. وليس القاعدة.. وهو ضرورة تُقَدَّر بقدرها، وليس هو السبيل إلى تقدم الأمم وتطور المجتمعات وازدهار العلوم والحضارات: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة: ٢١٦]..

ولقد بينت هذه الفلسفة القرآنية وأكدتها السنة النبوية، بقول رسول الله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله**» -رواه الدارمى-..

– وفى إطار هذا المنهاج السلمى فى الدعوة وتحصيل الإيمان الدينى، عرض الإسلام التعايش على المشركين: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)**﴾ [الكافرون: ١- ٦].. ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف: ٢٩].. ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٦]..

بل قدم الإسلام العفو للذين أجرموا فى حق أهله ودعوته.. ومنحهم حرية الاختيار، فقال رسول الله ﷺ للمشركين الذين صنعوا بالمؤمنين ما صنعوا – وهو فى ساحة النصر يوم الفتح الأكبر.. فتح مكة سنة [٨هـ ٦٢٩م].. «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»!..

– ولم تخرج «الدولة الإسلامية» – التى تكونت عقب الهجرة سنة [١هـ ٦٢٢م]، والتى امتلكت وطنًا وأمة ونُظمًا وقانونًا وجيشًا ومؤسسات عقابية –

وهو ما تميزت به وامتازت الشريعة الإسلامية عن سائر الشرائع السماوية السابقة، التى وقف الرسل فيها عند حدود الدعوة والبلاغ- لم تخرج هذه الدولة الإسلامية عن هذا المنهاج السلمى فى الدعوة إلى الدين.. فوقفت كل حروبها عند حدود القصاص الذى يرد العدوان على حرية الدعوة وحرية الضمير، وذلك حتى تضمن الدولة للمؤمنين حرية العيش الحر والآمن فى الأوطان التى يعيشون فيها.. فكان «الإذن» بالقتال، و«الأمر» به، لا للدعوة إلى الدين وتحصيل الإيمان به.. وإنما لحماية حرية الدعوة والإيمان من الفتنة فى الدين.. وحماية حرية المؤمنين من الاستفزاز من الأرض والإخراج من الديار ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].. ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠]..

وحتى آيات سورة «براءة» -التوبة- التى يرجف المرجفون فيزعمون أنها تمثل «الوجه القتالى والعنيف» للإسلام.. نجدها تميّز فى المشركين بين المعاهدين، الذين يحترمون العهود، فتدعو -هذه الآيات- المسلمين إلى الوفاء بعهود هؤلاء المشركين: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [التوبة: ٤].. تميّز هذه الآيات بين هؤلاء المشركين المعاهدين، المحترمين للعهود، وبين المشركين الذين لا عهد لهم، والذين ﴿**لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ**﴾ [التوبة: ١٠].. فالقتال هنا لرد عدوان الذين لا عهد لهم، وهم معتدون، ولا يحترمون العهود ويفتنون المؤمنين فى دينهم، ويخرجونهم من ديارهم: ﴿**أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [التوبة: ١٣١]..

فمعيار الدولة الإسلامية، فى السلم والسلام أو الحرب والقتال، ليس

«الإيمان» و«الكفر»، وإنما هو التعايش السلمى بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين، بالفتنة فى الدين أو الإخراج من الديار. . وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له، يقول القرآن الكريم: ﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الممتحنة: ٧- ٩]. .

ولقد عاهد المسلمون النصارى، وجاء فى العهد الذى كتبه الرسول ﷺ لنصارى نجران ولكل المتدينين بالنصرانية: «**أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم**» (٣٠).

فالقتال، فقط، للدفاع، ولرد عدوان المعتدين، دونما زيادة على رد العدوان، وبالوسائل المكافئة لوسائل العدوان: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٦].

أما حديث رسول الله ﷺ - الذى يُساء فهمه كثيرًا - والذى يقول فيه: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...**» - رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارمى وأبو داود والإمام أحمد - . . فإن «أل - أداه التعريف» فى كلمة «الناس» هنا هى «للعهد»، أى الناس المعهودين، المقاتلين، المعتدين على المؤمنين بفتنتهم فى دينهم وإخراجهم من ديارهم. . فالحديث هنا عن المشركين المعتدين المقاتلين للمؤمنين، وليس كل الناس ولا

مطلق الناس.. والمقام مقام زمن الحرب والقتال.. وكلمة «الناس» فى هذا الحديث ككلمة [الناس] فى القرآن الكريم عندما يراد بها أناس معهودون محدودون: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ويشهد على ذلك أن إحدى روايات هذا الحديث: «**أُمرت أن أقاتل المشركين**».. ويشهد على ذلك أيضًا تحريم الإسلام مقاتلة المشركين غير المحاربين، من المعاهدين، ومن النساء والأطفال والقاعدين ورجال الدين.. إلخ.. ومن ثم فلا علاقة لهذا الحديث النبوى - من قريب أو بعيد - بالتشريع لقتال المخالفين فى الاعتقاد الدينى، لمجرد الاختلاف فى الاعتقاد.. فالمقصود بـ«الناس»: المعتدون المقاتلون من المشركين.. ثم إن الأحاديث النبوية هى البيان النبوى للبلاغ القرآنى، الذى يقرر النهى عن الإكراه فى الدين، والنفى لإمكانية تحصيل الإيمان الدينى بواسطة الإكراه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

* * *

وحتى هذا القتال - الذى كُتب على المسلمين، وهو كُره لهم - والذى وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعى لحماية حرية العقيدة وحرية الدعوة من الفتنة - التى هى أكبر من القتل المادى - ولحماية حرية الوطن، والحيلولة دون إخراج المؤمنين من ديارهم.. حتى هذا القتال - الاستثناء والضرورة للدفاع - قد وضع له الإسلام ودولته «دستورًا أخلاقيًا» تجاوز فى مثاليته - التى طبقها المسلمون - كل المواثيق الدولية التى تعارف عليها المجتمع الدولى نظريًا - [!!] - بعد أربعة عشر قرنًا من ظهور الإسلام!..

ففى القواعد الأخلاقية لدستور الفروسية الإسلامية، يروى عمر بن عبدالعزيز [٦١ -١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٢٠م] - رضى الله عنه - وهو على رأس السلطة التنفيذية - الخلافة - وليس فى صفوف المعارضة! - يروى فيقول: «إنه

بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يقول لهم: «اغزوا باسم الله، فى سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغُلّوا - [أى: لا تخونوا] - ولا تغدروا، ولا تَمْثُلوا - [أى لا تمثلوا بجثث القتلى] - ولا تقتلوا وليداً» - رواه مسلم ومالك فى الموطأ..

ولقد صاغ أبو بكر الصديق [٥١ ق.هـ - ١٣هـ ٥٧٣ - ٦٣٤م] رضى الله عنه - وهو رأس الدولة - قواعد هذا الدستور الأخلاقى للحرب، فى وثيقة، إسلامية، عندما أوصى يزيد بن أبى سفيان [١٨ هـ ٦٣٩م]، وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين فى الشام، فقال - فى وثيقة الوصايا العشر -: **«إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله - [الرهبان] - فدعهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له.. وإنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة. ولا صبياً. ولا كبيراً هرماً. ولا تقطعن شجراً مثمراً. ولا تخربن عامراً. ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة. ولا تحرقن نخلاً. ولا تفرقنه. ولا تغلل. ولا تجبن»** رواه مالك فى الموطأ..

فكانت هذه «وثيقة الوصايا العشر» الإسلامية، فى آداب الفروسية وأخلاقيات القتال، عندما يُفْرض على المسلمين القتال..

ولأن هذه هى حقيقة الموقف الإسلامى: الدعوة إلى الدين بالحكمة والموعظة الحسنة.. والجدال مع المخالفين بالتى هى أحسن.. والدعوة إلى حماية حرية الضمير والاعتقاد.. واللجوء إلى القتال - كضرورة استثنائية مفروضة ومكروهة - فقط لرد العدوان عن حرية الدين وحرية الوطن.. لأن هذه هى حقيقة الموقف الإسلامى - على مستوى التشريع - كانت الحقيقة المذهلة النابعة من استقراء واقع جميع الحروب التى تمت فى العهد النبوى، والتى انتصر بها الإسلام على الشرك والوثنية.. والتى تقول - هذه الحقيقة - إن ضحايا جميع هذه المعارك والغزوات لا تتعدى ٣٨٦ قتيلاً - ٢٠٣ هم مجموع قتلى المشركين واليهود و١٨٣ هم مجموع شهداء المسلمين - بينما تحدثت أسفار العهد القديم عن ٢,٠٠٠,٠٠٠ هم ضحايا الحروب اليهودية.. وتحدث تاريخ الحروب الدينية النصرانية - بين الكاثوليك والبروتستانت - عن ١٠,٠٠٠,٠٠٠ قتيل - ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا - .. ناهيك عن عشرات الملايين الذين

أُزهقت أرواحهم فى محاكم التفتيش الكنسية.. وفى الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين!!..

* * *

- ولقد استمر هذا المنهاج السلمى فى الدعوة إلى الإسلام سائدًا وحاكمًا ومرعيًّا فى «الدولة الإسلامية» و«التاريخ الإسلامى» و«الحضارة الإسلامية» و«التراث الإسلامى»..

لقد فتح المسلمون فى ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون.. لكن الفتح الرومانى كان فتح قهر واستعباد - رأينا صنيعه فى الاضطهاد الدينى والحضارى للنصرانية الشرقية- بينما كان الفتح الإسلامى فتح تحرير لضمائر الشعوب الشرقية من هذا الاضطهاد الدينى والحرب الدينية، حتى شهد بذلك أهل الديانات الأخرى، من غير المسلمين..

* فـ«ميخائيل السريانى» يقول: **«لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا المونوفيزتية بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه. لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام..»**[٣١].

فكان الفتح الإسلامى تحريرًا وإنقاذًا للنصرانية الشرقية من إبادة النصرانية الغربية والاستعمار الرومانى - البيزنطى.. حتى ليمكن القول، دون مبالغة، إن بقاء النصرانية الشرقية ووجودها إنما هو «هبة الإسلام.. والفتوحات الإسلامية».

ولقد تركت الدولة الإسلامية الناس - فى البلاد التى تحررت بالفتوحات الإسلامية - وما يدينون.. انطلاقًا من أن الإسلام مكمل للشرائع السابقة، ومتمم لمكارم الأخلاق التى جاءت فيها.. فهو يجل كتبها، ويقول عن التوراة: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. - وعن الإنجيل: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

ولقد صدقت الممارسات النبوية على هذا الموقف القرآنى من الديانات السابقة، وطبقته، فوجدنا «حاطب بن أبى بلتعة» [٣٥ ق.هـ - ٣٠هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م] الذى حمل رسالة رسول الله ﷺ إلى «المقوقس» - عظيم القبط بمصر- سنة ٧هـ، ٦٢٨م، يخاطب «المقوقس» «فيقول له: **«إن لك دينًا - [أى النصرانية] - لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا لك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»**.(٣٢)

ولذلك، كان انتشار الإسلام فى هذه البلاد التى حررتها الفتوحات الإسلامية تدريجيًا، ودون إكراه، بل ودون مؤسسة دينية تقوم حتى بالترغيب فى هذا الدين الجديد! حتى ليقول العالم الإنجليزى الحجة «سير. توماس أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠]: **«إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين نعموا - بوجه الإجمال - فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة»**(٣٣).

وفارق بين تسامح أوروبا مع الأديان بعد أن أدارت ظهرها - بالعلمانية - للأديان.. وبين تسامح المسلمين فى ظل حاكمية الإسلام للدولة والمجتمع وكل مناحى الحياة..

فبعد قرن من الفتح الإسلامى، كان الذين دخلوا الإسلام - من مصر وفارس وسوريا - لا يزيدون على ٢٠٪ من السكان.. «فالدولة» إسلامية.. و«الرعية» على دياناتها القديمة.. لقد كانت مصر - بسبب شدة الاضطهاد الرومانى لأهلها، والذى أفقدها إلى حد كبير ،مقوماتها الذاتية الموروثة، من اللغة التى كتبت باليونانية، إلى الثقافة التى غلبت عليها الهيلينية، إلى السياسة التى حرم منها النصارى طوال تاريخ النصرانية المصرية.. كانت مصر - لذلك- أكثر البلاد سرعة فى التحول إلى الإسلام، خصوصًا أن شرائح كبيرة من أهلها

كانوا على الوثنية القديمة، فانتقلوا سريعًا من الوثنية إلى الإسلام- وكان بينهم وبين النصارى عداوات و صراعات- . . لذلك، عندما جاءت سنة ١٨٤هـ ٨٠٠ م كانت نسبة الإسلام فى مصر ٧٧٪ ونسبة النصارى ٢٢٪ واليهود ١٪ من تعداد السكان. . [٣٤].

ولقد كان لطبيعة الإسلام، ولموقفه الإيجابى من الديانات السابقة- كتبها ورسلها وقيمها ومقدساتها وقديسيها - أثر كبير فى تحوّل أبناء تلك الديانات- وخاصة النصارى- إليه. . فهذا التحول يمثل لهم تقدمًا وارتقاء على سلم التدين بدين الله الواحد، ولا يمثل انقلابًا معاديًا لمواريثهم الدينية الأصلية. . وكما تقول شهادة «نصرانية غربية»: **«فإن الإسلام يقدم نفسه بوصفه امتدادًا للمسيحية واليهودية، وقد جاء فى لغة مألوفة.. وبعد قرون من المصادرة البيزنطية للحرية الدينية.. جاءت المعاهدات العربية لتعلن دون أدنى لبس أن أى إكراه لن يمارس فى شأن الدين.. وتم احترام تلك المعاهدات»..**[٣٥].

وبعبارة المستشرق الإنجليزى الحجة «مونتجمرى وات»- وهو الخبير فى الدراسات الإسلامية-: **«فإن الإسلام كان يمهد لانتقال مرن ناعم من الصور الراقية لأديان موجودة بالفعل لدين جديد(الإسلام).. »**[٣٦].

بل إن هذه المصادر «النصرانية- الغربية» ترجع تحول نصارى الشرق عن النصرانية إلى الإسلام، وتحول الشرق إلى قلب للعالم الإسلامى بعد أن كان قلب العالم المسيحى. . ترجع ذلك إلى عوامل داخلية فى الكنائس النصرانية المتصارعة ، وإلى ما أصاب العقائد النصرانية فى الشرق من تحوّلات وتعقيدات أتت بها العقلية النصرانية الرومانية ، وقرارات المجامع المسكونية الرومانية، والثقافة الهيلينية. . وهى تحولات وتعقيدات جعلت عقيدة التوحيد الإسلامى، البسيطة الواضحة ، أكثر جاذبية ،وأكثر تلبية للاحتياجات الروحية لهذا الإنسانى الشرقى، وأقدر على تحقيق السكينة والطمأنينة واليقين الإيمانى لهذا الإنسان. .

وعن هذه الحقيقة - حقيقة الضعف الذاتى والداخلى الذى أصاب النصرانية.. والقوة الذاتية التى تميّز بها الإسلام - نسوق عددًا من شهادات علماء الغرب - وكلهم نصارى-..

* يقول المستشرق الإيطالى «كايتانى - ليون - Caetani» [١٨٦٩-١٩٢٦م] - وهو عالم ومحقق وخبير فى التاريخ الإسلامى والدراسات الإسلامية -: **«إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحى. أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية، إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلّتْ آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الرِّيب ، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد، الذى بدد بضربة من ضرباته كل تلك الشكوك التافهة، وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى العرب»**(٣٧).

* ويقول العلامة «مراتشى - Marracci»: **«إن أسرار هذه العقيدة.. النصرانية.. قد فاقت طاقة الذكاء البشرى ، فغدت - على الأقل - من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة الفهم»**(٣٨).

* أما البروفسور «مونتيه - إدوار- Montih Edwar» [١٨٥٦ - ١٩٢٧م] - وهو مستشرق فرنسى خبير فى اللاهوت النصرانى، وفى الدراسات الإسلامية - فإنه يقول، عن مزايا الإسلام التى اجتذبت نصارى الشرق: **«إن الإسلام، فى جوهره، دين عقلانى، بأوسع معانى الكلمة، وإن تعريف «الأسلوب العقلى - Rationalism» بأنه**

طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس مـن المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على عقـيدة الإسلام تمام الانطباق. إن لدين محـمد كل العـلامات التى تدل على أنه مجـموعـة من العقائد قـامت على أسس المنطق والعـقل.. وإن بساطة هذه التـعاليم ووضوحهـا لهى، على وجه التحقـيق، من أظهر القوى الفعـالة فى الدين وفى نشاط الدعوة الإسلامية.. ولـقد حفظ القرآن منزلته، من غير أن يطرأ عليه تغـيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأسـاسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة. وقـد جهر القرآن دائما بمبدأ الوحدانية، فى عظمة وجلال وصفاء لا يعـتريه التحول، ومن العسير أن نجد فى غيـر الإسلام مـا يفـوق تلك المزايا.. ولقد كـان من المتوقع لعـقيـدة محـددة كل هذا التحـديد، خاليـة كل الخلو من جميع التـعقـيدات الفلسفـية، ثم هى تبعًا لذلك فى متناول إدراك الشخص العـادى، أن تمتلك، وإنها تمتلك فعلاً، قـوة عجيبة لاكـتساب طريقها إلى ضمائر الناس» (٣٩).

فالتوحيـد، وبساطته ووضوحه. . والخلو من الألغاز والأسرار والتـعقيدات الفلسفـية. . والعـقلانية والمنطق اللذان يقـدم بهمـا الإسلام هذا التوحـيد إلى ضمـائر الناس وعقـولهم. . كل ذلك فى كتاب - هو الـقرآن - محـفوظ من التغييـر والتبديل. . كل ذلك قد جعل الإسلام وعقـائده على نحو من العظمة والجلال والصفاء التى لا نظير لها فى غير هذا الإسلام. .

هكذا يقول خـبير اللاهوت النصـرانى، والدراسات الإسلامـية البروفـسور «مونتيه». .

ولهـذا رجحت كـفة الإسـلام، فـانصرفت إليـه قلوب وعـقول النصـارى الشرقـيين، بعد أن تحررت ضـمائرهم، بالفتوحـات الإسلاميـة، من اضطهاد الكنيسـة الرومانية والدولة البيـزنطية. . وتحرروا - كذلك - من الثـمرات المرة التى ألحقتها الثقافة الهيلينية بالنصرانية الشرقية. .

أما العـالم الإنجليـزى - النصـرانى - «مونتجـمرى وات - Montgomery Watt» - الذى حصـل على الدكتوراه فـى عقيـدة الكسب والجبـر والاختـيار

الإسـلاميـة، وكـتب العـديد من الكتب في الدراسـات الإسلامـيـة -الفكرية والتاريخية - فلقد قدّم الإسلام إلى العقل النصراني الغربي، في كتابه [الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر].. وفـيه نظرات علمية مقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل..وحول مفهوم الوحي في الإسـلام وفي اليهودية والنصرانية.. وعن مكانة القرآن في الثقافة الإسلامية.. وعن أصالته وجدته..إلخ.. إلخ.. كما تحدث عن الأمراض الذاتية والداخلية التي أصابت النصرانية الشرقية قبل ظهور الإسـلام، وعن مصـادر وعـوامل القوة الـذاتية للإسـلام، تلك التي جـعلت نصـارى الشرق يدخلون في دين مـحمـد، فيـتحـول الشرق من قلب للعـالـم المسـيـحي إلى قلب لعـالـم الإسـلام.. بل وتحدث عن أن المـستـقـبل إنما هو للإسلام!..

نعم.. تحدث «مونتجمري وات» عن ذلك كله فقال:

* عن الضـعف الداخلي والذاتي للنصرانيـة، كسـبب أول لتحـول نصارى الشرق إلى الإسلام: «**إن الجانب المهم في إنجاز الإسـلام في الشرق الأوسط هو أنه حل محل المسيحيـة، التي كانت محور الحياة الثقافيـة في هذه المنطقة ومناطق شاسعة كان سكـانها في غـالبهم يشكلون قلب العـالم المسيـحي، فأصـبحـوا يشكلون قلب العالم الإسلامي.**

إنه من الضـروري أن نتمـعن في أسبـاب هذا التغـير بعناية. لقـد تحدثنا عـن قوة الإسـلام، وإذا كـان عـلينا أن نحـذو حـذو «أرنولد چوزيف تويـنبي» [١٨٨٩ - ١٩٧٥م] لقلنا إن السبب الجـوهري هو الضعف الداخلي للمسـيحية،وكـمون بذور الضعف في قلبها.

يتـعين علينا أن نبحث عن جـذور فشل المسيـحية بمعـالجة مـوضوع المسـيحـيين الشـرقيين.. فكثـيـرون منهم، وخاصـة اللاهوتيين، استـخدمـوا اللغـة اليونانيـة في الكتابـات الجادة، لكن طريقة تـفكيرهـم كانت بـشكل أساسي بعـقليتهم في لـغاتهم الأصليـة - السـريانيـة.. والقـبطيـة.. والأرمنيـة.. إلخ - وقـد أدى الاخـتـلاف في

العقليات إلى اختلاف فى الصيغ اللاهوتية فى قضايا مختلفة. وعندما كانت تطرح هذه القضايا اللاهوتية المختلف عليها أمام المجامع المسكونية كان اليونانيون يستبعدون المسيحيين الشرقيين من حق التصويت.وبمرور الوقت وجد المسيحيون الشرقيون أنفسهم وقد اعتبرهم الآخرون هراطقة مخرفين، بل واعتبرتهم الإمبراطورية البيزنطية طريدى عدالة ومحرومين من حماية القانون.. وعندما تم طرد هذه الطوائف الشرقية من الكنيسة المسيحية للدولة البيزنطية قامت هذه الطوائف بتأسيس عقائد خاصة بها.. وتأسيس منظمات كنسية منفصلة.. فتنامت لدى الأطراف المتنازعة الرغبة فى عدم التوحد.. فأدى ذلك إلى إضعاف المسيحيين الشرقيين، والجهاز الكنسى الرئيسى للدولة البيزنطية على السواء..

ولقد تحولت الخلافات اللاهوتية إلى شعارات سياسية. لذلك، فعندما فتح المسلمون سوريا ومصر، رحب بهم السكان باعتبارهم محررين لهم من سطوة اليونانيين البيزنطيين الممقوتين.

وقد لخص «كريستوفر داوسون – Christopher Dawson» [١٨٦٧ – ١٩٠٠م] بعض هذه النقاط بأسلوبه الموجز المفعم بالمعانى عندما قال:إن محمداً كان هو إجابة الشرق عن تحدى الإسكندر. فقد كان محمد هو مؤسس الدولة الإسلامية التى سرعان ما اتسعت لتصبح دولة كبرى أصبح لها ثقافتها الخاصة وحضارتها المتميزة فى مواجهة الهيلينستية بوجه عام. وكانت عقلية العرب متماثلة مع عقلية أهل العراق والشام، وكانت أقرب إليهم من عقلية اليونانيين.. ففقدت الهيلينية قواعدها أمام الإسلام..

لذا فمن المقبول أن نجد معظم المسيحيين الشرقيين وقد تحولوا إلى الإسلام؛ لأنهم وجدوا فيه تعبيراً عن التوحيد أكثر ملاءمة لعقليتهم الواضحة أكثر مما وجدوا فى المسيحية.

لقد أكد الإسلام نفسه كدين مستقل عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية) ونقول عن حق: «إنه بالفعل كان يفوقهما ، أو أنه فعلاً كان متفوقًا عليهما، أو أرقى منهما..»(٤٠).

* وعن تميز القـرآن وامتيـازه بأنه وحى. . أى كلام الله. . الذى لم يصـبه تحريف ولا تعديل ولا تبـديل. . تميزه وامتيـازه فى ذلك عن التوراة والإنجيل، التى هى كتـابات كتّاب كـانوا يعتـقدون أن ما يكتـبونه هو «كلام الله بمعنى من المعانى». . ثم تعرضت هذه الكتابات للتحريف والتـعديل والتبديل. . عن تميز القرآن فـى هذه الميادين المهـمة والمحـورية عن التوراة والإنجـيل، كتب وشـهد «مونتجـمرى وات». . فقال: «إن القرآن ليس بأى حال من الأحوال كـلام محمد ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محـمدًا ليس أكثر من «رسول» اختـاره الله لحمل هذه الرسالة، إلى أهل مكة أولاً، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربى مبين..

إننى أعتقـد أن القرآن، بمعنى من المعانى، صادر عن الله، وبالتـالى فهو وحى.. إننا نؤمن بصدق محمـد وإخلاصه، عندما يقول: إن كلمات الله ليست نتـيجة أى تفكير واعٍ منه.. وربما كانت الملامح الأساسـية للوحى يمكن اختصارهـا فى العناصر الثلاثة الآتية:

١- أن الكلمات المنزلة على محمد كانت تحضر فى عقله الواعى.

٢- وأن تفكيره الشخصى لم يكن له دور فى ذلك.

٣- وأن يقينًا جازمًا كان يتملّك فؤاده أن هذه الكلمات هى من الله.

لقد وجد محمد الكلمات، أو المحتوى الشفهى حاضراً فى وعيه، فلما تمت كتابته شكّل النص القـرآنى الذى بين أيدينا.وكان محـمد واعيًـا تمامًا بأنه لا دخل لتـفكيره الواعى فى هذه الرسالة القرآنية التـى تصله، وبتعبير آخر فقد كـان يعتقد أنه يمكنه أن يفصل بين هذه الرسـالة القرآنيـة وبين تفكيره الواعى، الأمر الذى يـعنى أن القرآن لم يكن بأية حال من الأحوال، نتاج تفكير محمـد.. إنه لا ينبغى النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية. .

وفى الحوار مع الإسلام يجب أن يتخلى المسيـحيون عن فكرة أن محمداً لـم يتلق وحيّا، وعن الأفكار الشبيهة...

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتب القرآن بناء على وحى نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور «زيدًا».. [زيد بن ثابت [١١ق. هـ - ٤٥هـ ٦١١ - ٦٦٥م] - أو أى مسلم آخر يقوم بهذا العمل .. ومن هنا فإن كثيرًا من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه.. والقرآن كان يسجَّل فور نزوله.. ورغم كثرة القراءات للقرآن فإن أيّا منها لم يؤد إلى جنوح معانى القرآن بحيث تجعلها بعيدة عن المعانى المفهومة من القراءات الأخرى.. إن القرآن يحظى بقبول واسع، بصرف النظر عن لغته؛ لأنه يتناول القضايا الإنسانية..»[٤١].

أما مفهوم الوحى فى اليهودية والمسيحية، فإن «الكثير من المسيحيين لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجى ممثل فى ملك أو ملائكة يملونها على كتَّاب الأناجيل، وإنما يُلْقَى فى روع هؤلاء الكتّاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقّا، والأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم يعلنون دون تردد: «هكذا يقول الرب..».. ولذا فلا بد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات هو بمعنى من المعانى كلمات الله حقّا..

ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم فى حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التى ألقاها الله إليهم عن طريق محمد، تمامًا كما فعل ورقة بن نوفل [١٢ق هـ . ٦١١م] (الذى أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد). ومن هنا يمكن أن نقول:

إن إشارة القرآن إلى تحريف لحق اليهودية والمسيحية- وبصورتهما الموجودة على أيامه - قول صحيح»..[٤٢].

* وعن جدة القرآن. . وأصالته. . وتمثيله ملة إبراهيم - عليه السلام - فى صورتها النقية الأولى. . يقول العلامة «مونتجمرى وات» - منتقدًا اليهود والنصارى الذين يمارون فى ذلك -: «لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (مودة) تقديم القرآن للقارئ الأوروبى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية، عندما كان على أوروبا الغربية - التى ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام..

إن تفحص العلاقة بين القرآن والبيئة المكية، أو العربية عامة، يوضح لنا بجلاء أن رسالة الإسلام كانت ملائمة تمامًا للبشر الذين ظهر محمد بين ظهرانيهم، ولم يكن مجرد نقل من عقائد سابقة (يهودية أو مسيحية).. أما الأفكار التى اشترك فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية فقد اتخذت شكلاً عربيًا واضحًا.. وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم فى مرحلة نقائه الأولى..»(٤٣).

* وبسبب محورية القرآن فى الحياة الإسلامية، أثمرت جدته وأصالته جدة وأصالة فى الثقافة الإسلامية، ميزت النظرة الإسلامية للكون والعالم عن النظرة اليونانية. . وعن هذه الحقيقة من حقائق تميز الإسلام وثقافته يقول «مونتجمرى وات» : «ومهما كان الطريق الذى دخلت عن طريقه الثقافة اليونانية إلى الشرق، فإن المجتمع الإسلامى لم يقبل منها إلا ما هو مناسب وموائم لنسيج الحياة الإسلامية وللنظرة العقلية للعالم والكون التى يقرها القرآن، وبمرور الوقت تحقق أن حياة المجتمع الإسلامى بشكل عام قائمة على استمرار القرآن وتبوئه مكان المركز أو القطب أو المحور.. وما قبله الإسلام والبيئة الإسلامية سرعان ما انضم ليشكل رصيدًا ثقافيًا إسلاميًا متآلفًا ومتجانسًا ومقبولاً حتى فى عقر داره أو فى بلاد المنشأ»(٤٤).

* ولهذه المميزات والامتيازات التى تفرد بها القرآن والإسلام، عند مقارنته بالديانات التى سبقته. . فى معنى الوحى. . وتفرد القرآن بأنه الوحى الإلهى المباشر الذى لم يصبه تحريف ولا تبديل. . وفى الجدة والأصالة، التى جعلت الإسلام هو التعبير عن نقاء ملة إبراهيم عليه السلام، فى صورتها الأولى. . وفى انعكاس ذلك على تميز الثقافة الإسلامية عن الوافد الهيلينستى. . لكل ذلك، رأى العلامة «مونتجمرى وات» أن الإسلام - المتميز بالعالمية. . والأخوة

الإنسانية - هو الدين الذى سيكون دين المستقبل. . أو - على الأقل - صاحب الإسهام الأوفر والقِدْح المُعَلّى فى دين المستقبل. . وعن هذه الحقيقة كتب يقول: «إن هناك إشارات فى القرآن إلى أنه موجه للجنس البشرى قاطبة.. إن رسالة الإسلام التى وُجّهت فى البداية لأهل مكة والمدينة كانت تحمل فى طياتها بذور العالمية، أو أنها كانت منذ البداية.. أو منذ مضمونها الأول ذات أبعاد عالمية.. ولقد تأكد ذلك عمليًا بانتشار الإسلام فى العالم كله، وقَبِله بشر من مختلف الأجناس... وعلى المدى البعيد - بطبيعة الحال - من المتوقع أنه سيكون هناك دين واحد للعالم كله، مع وجود اختلافات داخل نطاق هذا الدين الواحد. ويمكن تشبيه هذه الفروق الداخلية بالمذاهب الأربعة لدى المسلمين من أهل السنة، فهم جميعًا مسلمون رغم اختلاف مذاهبهم...

ومعظم المسيحيين يميلون إلى افتراض أن المسيحية ستكون دين العالم كله فى المستقبل، لكن هذا أبعد ما يكون عن أن يكون أمرًا مؤكدًا. ولنذكر عنصرًا واحدًا، فبعض الأمم المسيحية الكبيرة تعانى بشدة من العنصرية، والدين الذى لا يستطيع أن يحل مشكلة العنصرية بين أعضائه من المستبعد أن يكون قادرًا على تقديم حلول كثيرة مجدية لمشاكل العالم الأخرى.

ومن بين مزايا الإسلام تعميقه لمفهوم الأخوّة، وعمق حججه، إلا أن الثقة بالنفس مصحوبة بعمق الحجج وقوتها قد تتحول إلى (عيب)، وليس ميزة عندما تعمى عين الإنسان عن رؤية ما هو جدير بالتقدير لدى الآخرين، لذا فقد يجد الإسلام صعوبة فى إدراج قيم أخرى من أديان أخرى ليستوعبها ويجعلها جزءًا منه.

إن الإسلام - بالتأكيد - مناضل قوى، ومنافس عظيم الشأن، سيعمل على مد الدين الواحد.. دين المستقبل - بهيكله الأساسى..»(٤٥).

***

تلك شهادات العلماء الثقاة المنصفين، من نصارى الغرب، الذين درسوا الإسلام والديانات الأخرى. . شهاداتهم على الوهن والتعقيد اللذين أصابت

بهما الثقافة الهيلينية الغربية النصرانية الشرقية.. تلك التى غرقت فى بحار الانقسامات الحادة والإلغازات والأسرار حتى استعصى فهمها على الخاصة، فضلاً عن العامة.. فجاء الإسلام، بتوحيده الواضح والبسيط، وعقلانيته ومنطقه، ووحيه الذى هو كلام الله المباشر، الذى لم يصبه تحريف ولا تعديل ولا تبديل. وإنسانيته وعالميته.. وجدته وأصالته، فاجتذب أهل الشرق، المطبوعين على بساطة الاعتقاد، فدخلوا أفواجًا فى هذا الدين، الذى احترم عقولهم وأيقظها، ورقق قلوبهم وأغناها، كما احترم المواريث الدينية التى نشأوا فى ظلالها.. وكذلك حقق لهم عزة الاستقلال عن التبعية للمركزية الغربية، فرأوا فى رسول الإسلام ﷺ إجابة الشرق عن تحدى الإسكندر - كما قال، بحق، «كريستوفر داوسون»!..

حدث كل ذلك، دونما إكراه للناس على الدخول فى الإسلام.. بل ودون «مؤسسة» للدعوة الإسلامية ترغب الناس فى هذا الدين!.. ومن باب أولى دون حروب دينية تقهر الناس على الدخول فى الإسلام.

***

لكن..

قد يسأل سائل- ومن حقه أن يسأل عن الحروب التى حدثت بين المسلمين، فى التاريخ الإسلامى: أليست حروبًا دينية، أثارتها المذهبيات والمعتقدات، على النحو الذى حدث فى التاريخ النصرانى الغربى ؟ ..

ونحن نجيب عن هذا السؤال فنقول :

* إن ما شهده هذا التاريخ الإسلامى من حروب داخلية ، إنما كانت حروبًا سياسية، ولم تكن دينية.. والسياسة والدولة والخلافة والإمارة، والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية- التى قامت بسببها هذه الحروب - هى- فى الإسلام - من «الفروع»، وليست من «الأصول» ولا من «عقائد الإسلام» ولا من أمهات الاعتقاد فى الإسلام.. والاختلاف فى كل الأمور السياسية والتنوع

والتعـدد «سنة» من سنن الله سبحانه وتعـالى، و«قانون» من قوانين الاجـتماع الإنسـانى، وليس مجـرد «حق» من حـقوق الإنسـان. . والتـدافع بين فرقـاء الاختـلافات السيـاسية لا يخرج أيّـا من هؤلاء الفرقاء من ملة الدين وعـقائد الإسـلام، فالمعـايـيـر الحـاكمـة للاخـتلاف فى هذه الأمـور هى «الصـواب»، و«الخطأ»، و «النفع» و «الضرر» وليست «الإيمان» و«الكفـر». . وحتى «البغى» - فى هذه الأمور - لا يخرج أصـحابه عن إطار «الإيمان الدينى» ولو بلغوا فى بغيهم السيـاسى حدود الاقتتال!. . ولقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الحـقيقة الإسلاميـة فقال: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]. .

فإذا ارتكب المؤمنون «خطأ» الاقـتتال فى الأمور السـياسية «الفـروع» - فإن هذا الخطأ - والبـغى فى هـذا الخطأ - لا يخـرج أصـحـابه من الملة، والإيمان بأصول الإسلام. .

ولقد أجمع أئمة وفلاسفـة وفقهاء أهل السنة - الذين يمثلون أكثر من ٩٠٪ من الأمة الإسـلامية - على أن الدولة والسيـاسة - وكل ما يتعلق بهـما - من الفروع، التى لا تكفير فيها، وعن هذه الحقـيقة تحدث حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] فقال: «**إن النظر فى الإمامة ليس من المهمـات، وليس أيضًا من المعـقولات، بل من الفـقهيـات - (أى الفروع) - وإن أصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر. وما عداه فروع**»[٤٦].

وحروب الفتنة الكبرى التى وقعت بين على بن أبى طالب [٢٣ق.هـ - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١م] ومـعاوية بن أبى سـفيـان [٢٠ق . هـ - ٦٠ هـ ٦٠٣ - ٦٨٠م] لم تكن حروبًا دينية، يطلب فيها فريق من الفـريق الآخر تغيير عقيدته أو تبديل مـذهبه، وإنما كانت حروبًا سـياسية، دارت حول الخـلافة، وبالذات

حول المسئولية عن مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان [٤٧ ق . هـ - ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦ م]. . وعن هذه الحقيقة الناصعة يقول على بن أبى طالب: «لقد التقينا - فى معركة «صفين» [٣٧ هـ - ٦٥٧م] - وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا فى الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا. والأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء. إننا - والله - ما قاتلنا أهل الشام - [معاوية ومن معه] - على ما توهم هؤلاء - [الخوارج] - من التكفير والافتراق فى الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة - [السياسية: رعية الدولة] وإنهم لإخواننا فى الدين، قبلتنا واحدة، ورأينا أننا على الحق دونهم... وإنى لأرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه، منا ومنهم، إلا أدخله الله الجنة..»(٤٧). . فهى حرب سياسية، دارت بين أبناء دين واحد، وأهم أطرافها يتمنى أن يكون كل قتلاها فى الجنة!.

* وعندما رفض عبد الله بن الزبير [١- ٧٣ هـ ٦٢٢ - ٦٩٢م] مبايعة الخليفة الأموى، وأعلن الثورة على الدولة الأموية، واتخذ من مكة عاصمة لدولته، ودارت الحرب بينه وبين الأمويين، حتى فى داخل الحرم المكى، وحول الكعبة، كانت الجيوش المتقاتلة تضع أسلحتها إذا أُذّن للصلاة، ويصلون جميعًا خلف إمام واحد، لإله واحد، بقرآن واحد، وعلى عقيدة واحدة. . لأن الحرب كانت سياسية، لا علاقة لها بعقائد الدين. .

* وكذلك كل الحروب التى شهدها التاريخ الإسلامى، كانت سياسية - متعلقة بالخلافة والسياسة للاجتماع - ولم تكن فيها حرب واحدة حول العقائد الدينية، أو للإكراه على الاعتقاد بمذهب فى الدين. .

وكما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] عن الحروب التى خاضها المسلمون: «كان المشركون يبدأون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم عن دينهم، ولو لم يبدأوا فى كل واقعة لكان اعتداؤهم بإخراج الرسول ﷺ من بلده، وفتنة المؤمنين وإيذائهم، ومنع الدعوة، كل ذلك كان

كافيًا فى اعتبارهم معتدين. فقتال النبى كله مدافعة عن الحق وأهله، وحماية لدعوة الحق، ولذلك كان تقديم الدعوة شرطًا لجواز القتال. وإنما تكون الدعوة بالحق والبرهان، لا بالسيف والسنان..

وكانت حروب الصحابة، فى الصدر الأول، لأجل حماية الدعوة ومنع المسلمين من تغلب الظالمين..

ولم يسمع فى تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين والأشاعرة، مع الاختلاف العظيم بينهما، ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة، سلفيين وأشاعرة، كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها.

نعم، سمع بحروب الخوارج، كما وقع من القرامطة وغيرهم. وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف فى العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية فى طريقة حكم الأمة، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة.

وأما ما كان من حروب الأمويين والهاشميين، فهى حرب على الخلافة، وهى بالسياسة أشبه، بل هى أصل السياسة..

لقد شهر المسلمون سيوفهم دفاعًا عن أنفسهم، وكفًا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورات الملك..

ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم، فكان الجوار طريق العلم بالإسلام، وكانت الحاجة لصالح العقل والعلم داعية للانتقال إليه.. وجملة القول فى القتال أنه شُرع للدفاع عن الحق، وأهله، وحماية الدعوة ونشرها.

إن سرعة انتشار الإسلام، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة، إنما كان لسهولة تعقله، ويسر أحكامه، وعدالة شريعته. وبالجملة، لأن فطَر البشر تطلب دينًا، وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها، وأدعى إلى

الطمأنينة فى الـدنيا والآخرة. ودين هذا شأنـه يجد إلى القلوب منفذًا، وإلى العـقول مـخلصًا، بدون حـاجـة إلى دعـاة ينفـقـون الأمـوال الكثـيـرة والأوقـات الطويلة، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه.

هذا كان حال الإسلام فى سذاجتـه - [بساطته] - الأولى وطهارته التى أنشأه الله عليها، ولا يزال على جانب عظيم فى بعض أطراف الأرض إلى اليوم»[٤٨].

***

أمـا هذا الخلط المعاصـر - فى الإعلام الغـربى، والكتـابات الغربيـة - بين مفهوم «الجهاد الإسـلامى» وبين «العنف. . والإرهاب». . فإنه أثر من سوء النية حينًا، والجهل فى بعض الأحايين. . ولا علاقة لهذا الخلط بحقائق مفاهيم هذه المصطلحات فى قاموس الإسلام. .

* فـ «الجهـاد» -فى المفهوم الإسلامى- هـو: بذل الوسع واستفراغ الجـهد والطاقة فى أى ميـدان من ميادين الإصلاح - فالدعوة إلى سـبيل الله بالحكمة والموعظة الحـسنة جهاد. . والإصـلاح التربوى والتـعليمى والثـقافى جـهاد. . والتنمية الاقـتصادية والاجتمـاعية جهـاد. . والرفق بالآباء والأمهات والأزواج والأولاد جهاد. . والاهتـمام بالعمل العام، والأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر جهـاد. . والبر والقسط مع المعاهدين والمـسالمين من غير المسلمين جـهاد. . بل وحتى الرفق بالحـيوان والنبات والطبيـعة جهاد. . فكل ميـادين الإصلاح، فى الدين والدنيا، هى -فى المفهوم الإسلامى - جهاد فى سبيل الله. .

ولقد ورد الحـديث فى القرآن الكريم عن الجهـاد أكثر مـا ورد مرادًا به بذل الوسع فى نشر الدعـوة الإسلامية. بالحكمة والموعظة الحـسنة، وفى الدفاع عن حرية هذه الدعوة، وحـرية الدعاة. . حتى إن الآية القرآنيـة التى وصف الجهاد فيها بأنه «جهاد كبير»، كان المراد به فيها الجهاد بالقرآن الكريم. . وليس بالعنف أو القتال: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وفى المواطن التى تحدث فيها القرآن الكريم عن الجهاد بالنفس تم التقديم دائمًا للجهاد بالمال: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤]. .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١]. .

ومع أن الجهاد هو «ذروة سنام الإسلام» - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف - فإن الجانب القتالى من الجهاد هو القتال الدفاعى، الذى هو «سياج» لحماية حرية الدعوة والدعاة واستقلال ديار الإسلام - كما مر فى الحديث - عن « الإذن» بالقتال، و «الأمر» به فى القرآن الكريم. .

* أما استخدام «العنف» لتحقيق أغراض سياسية، هذا الذى أطلقت عليه أجهزة الإعلام الغربية مصطلح «الإرهاب»، والذى نُسب ويُنسب - زورًا وبهتانًا - إلى الإسلام، فهو لون آخر من ألوان خلط الأوراق والمفاهيم. .

«فالعنف»، فى المصطلح الإسلامى، هو نقيض «الرفق». . وفى الحديث النبوى الشريف: **«إن الله تعالى يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف»**. رواه مسلم وأبو داود والدارمى وابن ماجة والإمام أحمد-. وفى صحيح البخارى، يقول رسول الله ﷺ لأم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها: **«مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش»**. وفى [الموطأ] - للإمام مالك، رضى الله عنه- يقول رسول الله ﷺ: **«إن الله تبارك وتعالى، رفيق يحب الرفق، ويرضى به، ويعين عليه ما لا يعين على العنف»**. .

فالرفق هو منهاج التعامل الإنسانى فى كل الميادين الحياتية. . والعنف هو نقيض هذا المنهاج.

* أما إطلاق الإعلام الـغربى، والكتابات الغربيـة مصطلح «الإرهاب» على استـخدام «العنف» لتحقـيق أغراض سيـاسية، فهـو - الآخر - خلط للأوراق والمفاهيم.. ذلك أن «الإرهاب».. فى مصطلح اللغة العربية، وفى الاستخدام القرآنـى.. هو مجرد «التـخويف للردع»، بغـرض تجنب «العنف والقـتال».. ولقد شهد عالمنا المعاصر ويشهد تجنب العنف والقتال عندما تصل القوى والدول المتنافسـة، ذات المصالح المتناقضـة، إلى مستويات مـتقاربة فى القـوة الرادعة، فتـمتنع هذه القوى والدول عن العـنف والعدوان والقتـال بسبب إرهاب الرادع والخوف من الردع.. فـإعداد القوة الرادعـة والمرهبة هو السبـيل للتوازن الذى يرهب الخصم ويخـيفـه، فيمـتنع العنف والعدوان والقتـال.. وهذا هو المعنى الذى جـاء فى القرآن الكريم لمصطـلح «الإرهاب» - أى مجـرد التخـويف.. وليس العنف المسلح - كما تزعم الكتابات الغربية-.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨، ٦٢].

فإعداد القـوة الرادعة هو الذى يرهب - أى يخيف - أهل الغـدر والخيانة، فـيمـتنع عدوانـهم.. فكأنما «الإرهاب» - بمعنى الإخـافة والردع لأهل الغـدر والخـيـانة - هو السـبـيل إلى السـلام، وتلافى العنف والقـتـال.. وليس هو الاستخدام للعنف والقتال، كما يزعم الزاعمون!..

***

تلك هى حـقيـقة الموقف الإسـلامى من الحروب الدينيـة.. اتسق فى هذا

الموقف: الإسلام الدين.. والإسلام الدولة.. والإسلام التراث.. والحضارة.. والتاريخ..

بينما رأينا كيف برئت شريعة موسى - عليه السلام. .ونصرانية المسيح - عليه السلام - من الحرب الدينية، والإكراه على الإيمان.. بينما سقط التراث اليهودى والتاريخ اليهودى.. وكذلك التراث النصرانى الغربى، وكنائس النصرانية الغربية.. سقطا فى مستنقع الحروب الدينية، والإبادة للأغيار والمخالفين، فانقلبا بذلك على حقيقة اليهودية والنصرانية انقلابًا شديدًا.. فأصبحنا أمام «مواريث» قد خانت أصولها الأولى، ومنابعها الجوهرية والنقية، التى أوحاها الله، سبحانه وتعالى، إلى موسى وعيسى - عليهما السلام..

ولقد رأينا هذه الحقائق التى شهد بها وعليها العلماء الثقاة من نصارى الغرب ودارسى العهد القديم، والخبراء فى دراسة الإسلام. فشهدوا - وهم شهود من أهلها - على تميّز الإسلام وامتيازه فى هذا الميدان..

فالحمد لله على سماحة الإسلام.. والحمد لله على نعمة الإسلام.

* * *

الهوامش:

(١) د . محـمد جلاء إدريس [فلسـفة الحرب فى الفكر الدينى الإسـرائيلى] ص ٨٤ طبعـة القاهرة سنة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

(٢) إسرائيل شاحـاك [الديانة اليهودية وموقفهـا من غير اليهود] ص ١٣٤ ، ١٣٥ترجمـة: حسن خضر. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

(٣) المرجع السابق. ص ١٣٦ - ١٤٠.

(٤) د . فؤاد حسنين على [التوارة: عرض وتحليل] ص ١١ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ - ٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦م.

(٥) [تاريخ نقـد العهد القـديم من أقدم العـصور حـتى العصـر الحديث] جـ١ص ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ١٩٦ - وهو مجموعة من الدراسات النقدية لمجموعة من العلماء والفلاسفة اليهود - جمعها وحررها العالم اليهودى «زالمان شارار». ترجمة: أحمد محمد هويدى، تقديم ومراجعة : د. محمد خليفة حسن. طبعة المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٦) [فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى] ص٥٧.

(٧) المرجع السابق. ص ٦٦ ، ٦٧.

(٨) المرجع السابق . ص٧٨.

(٩) ابن عبـد البر [الدرر فى اختـصار المغازى والسيـر]. تحقيق: د. شـوقى ضيف. طبعـة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(١٠) [فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى] ص١٨٩ - ١٩١.

(١١) د. عبد الوهاب المسيرى [موسوعـة اليهود واليهـودية والصهيونيـة] جـ٤ ص ١٤١ ، ١٤٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(١٢) د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(١٣) مكسيـموس مونرونـد [تاريخ الحروب المقدسـة فى الشرق المدعوة حـرب الصليب] المجلد الأول. ص٤١٣. ترجمة مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

(١٤) المصدر السابق. المجلد الأول، ص ١٧٢ ، ١٧٣.

(١٥) د. جاك تاجر [أقـباط ومسلمون منذ الفـتح العربى إلى سنة ١٩٢٢م] ص ١٥٣ ، طبعـة مصورة، أصدرها أقباط المهجر - مدينة جرسى - أمريكا سنة ١٩٨٤م.

(١٦) ول ديورانت [قصة الحضارة] المجلد السادس جـ٣، ٤ . ترجمة د. عبد الحميد يونس. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م و١٩٧٢م، والمجلد الرابع جـ٤ ص ٤٦ - ٥٣. وسير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠ - ٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢ - ١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤ - ١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(١٧) د. توفيق الطويل [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] ص ٧٠ - ١١٢ طبعة القاهرة سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

(١٨) صحيفة [الحياة] - لندن - فى ٢٩ - ٢- ٣ - ٢٠٠٣م.

(١٩) صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن فى ٨-٣-٢٠٠٣م - مقال الأستاذ زين العابدين الركابى.

(٢٠) صحيفة [العربى] - القاهرة فى ١٦-٣-٢٠٠٣م.

(٢١) صحيفة [الشرق الأوسط] لندن فى ١٠- ٣ - ٢٠٠٣م.

(٢٢) صحيفة [الحياة] - لندن- فى ١٥ - ٣- ٢٠٠٣م.

(٢٣) مجلة [النيوزويك]- الأمريكية- عدد ١١- ٣- ٢٠٠٣م.

(٢٤) ونحن ننقل ترجمة مقالى الـ[نيويورك تايمز] عن صحيفة [الأسبوع]- القاهرة -فى ١٤-٤-٢٠٠٣م.

(٢٥) صحيفة [الشرق الأوسط]- لندن- فى ٢١- ٢- ٢٠٠٢م.

(٢٦) [النيوزويك]- الأمريكية- العدد السنوى- ديسمبر ٢٠٠١م- فبراير سنة ٢٠٠٢م.

(٢٧) المرجع السابق. ذات العدد. . والتاريخ.

(٢٨) ملحق [الوسط]- صحيفة [الحياة] - لندن -فى ٢٧- ١- ٢٠٠٣م.

(٢٩) لمزيد من التفاصيل، انظر دراستنا عن «الهجمة الأمريكية على الإسلام» بكتابنا [فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] ص٩١- ١١٣ طبعة مكتبة الشروق الدولية. القاهرة سنة ٢٠٠٣ م .

(٣٠) د. محمد حميد الله- محقق- [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص١١١. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٣١) [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢.

(٣٢) ابن عبد الحكم [فتوح مصر واخبارها] ص ٤٦ طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

(٣٣) [الدعوة إلى الإسلام] ص٧٢٩، ٧٣٠.

(٣٤) فيليب فارج، يوسف كرباج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٢٥، ٣٢ ترجمة بشير السباعى. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

(٣٥) المرجع السابق. ص ٣٨، ٣٩.

(٣٦) مونتجمرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ١٠٢. ترجمة عبد الرحمن عبدالله الشيخ. طبعة القاهرة مكتبة الأسرة.

(٣٧) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٨٩، ٩٠.

(٣٨) المرجع السابق. ص ٤٥٤.

(٣٩) المرجع السابق. ص ٤٥٤، ٤٥٦.

(٤٠) [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ١٧٩- ١٨٤.

(٤١) المرجع السابق. ص ٣٥، ٣٦، ١٠٦، ٣٩، ٢٠٦، ٥٢- ٥٤، ٧١، ٢٣٠، ٦١، ١٢٨، ٦٣، ١٣١.

(٤٢) المرجع السابق. ص ٣٦، ١٧٠.

(٤٣) المرجع السابق. ص ٩٨، ١٠٥، ١١٠، ١١١.

(٤٤) المرجع السابق. ص ١٧٦، ١٧٨.

(٤٥) المرجع السابق. ص ٣٥، ٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨.

(٤٦) الغزالى [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٤. طبعة مكتبة صبيح القاهرة. بدون تاريخ.

(٤٧) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] جـ١٧ ص١٤١ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة ١٩٥٩م. والباقلانى [التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة] ص٢٣٧، ٢٣٨. تحقيق: محمود محمد الخضرى، د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة القاهرة ١٩٤٧م.

(٤٨) محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٤ ص ٤٧٥، ٤٧٦، جـ٣ ص ٢٦٧، ٤٧٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

* * *

النموذج الإسلامى لتحرير المرأة

فى قضـية المرأة وتحـريرها . . لن يختلف أغـلب العقلاء علـى أن المرأة قد حُمِّلت - تاريخيًا . . وحتى عصرنا الراهن - وفى كل الحضارات - من المظالم والقيود أكثر مماحُمِّل الرجال . .

ومن ثم، فإن أغـلب العقلاء لن يخـتلفوا على أن للمـرأة «قضـية» . . وأن تحريرها، وإن ارتبط بتحرر الرجل، إلا أنه يـحتاج إلى كثير من التميّـز، وكثير من الاختـصاص، وكـثيـر من الاهتمـام . . لكن الأمر الذى يثـير الكثـير من الاختـلاف - بل والخلاف - على النطاق العالمى، هو «النمـوذج الأمثل» الذى يحقق التحرير الحقيقى للنساء . .

* فهناك النموذج الغربى المتطرف - نموذج الحـركات الأنثوية الغربية - التى تريد تمركز الأنثى حول ذاتها، فى عالم خـالٍ من الرجال، تثور فيه الأنثى ضد الرجل، وضـد الفطرة السـوية التى فطر اللّه الناس عليـهـا، وضد كل القـيم والديانات . . وهو نموذج بلغ فى تطرفه وشذوذه حد الجنون! . .

* وهناك نموذج الجمـود والتقليد الذى حمـل ويحمل التقاليـد الراكدة على الدين، فيثبتها ويكرسها ويقدسها، حتى لكأن تحرير المرأة - فى هذا النموذج - هو تحريرها من كل دعوات ودعاوى التحرير! . .

* وهناك النموذج الوسطى المتـوازن، المعبر عن حقـيقة التحـرير الإسلامى للمرأة . . وهو الذى ينطلق من نـصوص ومنطق وفقه القـرآن الكريم، فى تحرير المرأة وإنصـافها، والمسـاواة بين النسـاء والرجال، الذين سـوى اللّه، سبحـانه وتعالى، بينهم عندما خلقهم جميعًا من نفس واحدة، وساوى بينهم جميعًا فى

حمل أمانة استعمار وعمران هذه الأرض، عندما استخلفهم جميعًا فى حمل هذه الأمانة.. كما ساوى بينهم فى الكرامة - عندما كرّم كل بنى آدم- وفى الأهلية.. والتكاليف.. والحساب.. والجزاء.. مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، لتتم نعمة السعادة الإنسانية بشوق كل طرف إلى الطرف الآخر، المتميز عنه - ولو كان ندًا مماثلاً لما كان «آخر» ولما كان مرغوبًا تهفو إليه القلوب - ولتكون هذه المساواة - فى الخلق.. وحمل الأمانة.. والكرامة.. والأهلية.. والتكاليف.. والحساب.. والجزاء.. والاشتراك - متضامنين - فى أداء فرائض العمل الاجتماعى العام، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر - لتكون هذه المساواة هى: **مساواة تكامل الشقين المتمايزين، لا مساواة الندين المتماثلين - والمتنافرين.**

ينطلق هذا النموذج الوسطى من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم، الذى جعل الرجل بعضًا من المرأة والمرأة بعضًا من الرجل ﴿ **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿ **لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فكل طرف هو لباس للطرف الثانى ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قد أفضى بعضهم إلى بعض ﴿ **وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ [النساء: ٢١]. وقامت روابط هذا الميثاق الغليظ - ميثاق الفطرة - الجامع لهم جميعًا على بنود عقد وعهد المودة والرحمة والسكن والسكينة ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم: ٢١].

كما ينطلق هذا النموذج الوسطى - فى تحرير المرأة وإنصافها - مع بقائها أنثى، تسعد - عندما تكون سوية - وتفخر وتباهى بأنوثتها، وتنفر وتهرب وتخجل من «الاسترجال» و«الإسبرطية» - كما يسعد الرجل السوى ويفخر ويباهى برجولته، وينفر من التخنث والأنوثة ينطلق أيضًا من التطبيقات النبوية لنصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم. . تلك التطبيقات التى حررت المرأة المسلمة، وأنقذتها من «الوأد» المادى والمعنوى، وجعلتها طاقة فاعلة فى بناء الأسرة والدولة والأمة والحضارة، ومشاركة فى سائر ميادين إقامة الدين والدنيا، منذ اللحظات الأولى لإشراق شمس الإسلام. .

كما ينطلق هذا النموذج الوسطى أيضًا من الاجتهاد الإسلامى الحديث والمعاصر، الذى أولى المرأة ما تستحق وما يجب لها من العناية، كطرف أصيل فى المشروع النهضوى المنشود الذى استهدفه تيار الإحياء والاجتهاد والتجديد، مستندا إلى القرآن الكريم وإلى تطبيقات التحرير الإسلامى للمرأة، فى مواجهة تصورات ونماذج الغلو الإسلامى والغلو العلمانى جميعًا. وإذا كان نموذج المرأة الذى يبشر به الغلو العلمانى، هو ذلك النموذج الغربى، الذى أخذت تشقى به ومنه المرأة الغربية ذاتها، وذلك بعد أن قادها إلى واقع رهيب وغريب. . فيه:

- أصبحت تجارة الدعارة ثالث التجارات الكبرى - بعد المخدرات والسلاح!-. . .وحجم رأسمالها السنوى ١٣ مليارًا من الدولارات. . !![١]

- وفيه - رغم التحلل الجنسى والإباحية المشاعة - أعلى نسبة لاغتصاب النساء فى العالم!. . وأعلى نسبة لتجارة الرقيق الأبيض فى العالم!. .

- وفيه - رغم ما تحقق تحت لافتات المساواة - أعلى نسبة من العنف الأسرى ضد النساء فى العالم!. .

- وفيه أعلى نسبة من «الأسَر» غير الشرعية فى العالم!. . تصل إلى ٥٠٪ من الأسر فى بعض المجتمعات الغربية!. .

– وفيه أعلى نسبــة من الطفولة غير الشرعية. . أو الــتى تنشأ وتتربى خارج الأسرة الشرعية فى العالم! – تصل إلى ٤٠٪ فى بعض المجتمعات الغربية!..

– وفيه أعلى نسبة من القلق والانتحار فى العالم.. حتى بين الأطفال– كما هو الحال فى أمــريكا– .. وحتى فى المجتــمعات التى تــتمتع بأعلى نســبة من الدخل، ومستــوى المعيشة، ومن الإباحيــة الجنسية – كمــا هو الحال فى البلاد الإسكندنافية–..

إذا كان هذا هو حال النموذج الغربى الذى تنــطلق منه،وتبشر بمثله حركات الغلو العلمانى النــسوية فى بلادنا.. فإن النموذج الذى يــريد تيار الغلو الدينى الحفــاظ عليه، وتكريســه، وتأبيده، والانطلاق منه، والتــبشــير به، هو نموذج «المرأة الدمــية» التى تجــر الذيول إلى المخــادع، وتقف طاقاتــها وملكاتهــا عند الإغراء بالفراش،وإنجــاب الأطفال.. وإذا تعلمت فإن تعليمهــا وعلومها يجب أن تقف عند حدود هذه الآفاق لا تعــدوها..أما النموذج الوسطى، الذى يمثل وسطية الإســلام فى تحرير المرأة وإنصافهــا، فإنه يباهى الدنيــا بنماذج الريادات النسائيــة اللاتى حررهن الإسلام مــنذ عصر النبــوة وحتى العصــر الذى نعيش فيه.. ويدعــو – هذا النموذج – إلى اتخاذ هذه النماذج الــريادية أسوة وقدوة ومُثلاً، منها نبدأ جهاد التحرير للمرأة فى عصرنا الحديث..

* فخديجــة بنت خويلد [٦٨ – ٣ق. هـ ٥٥٦ – ٦٢٠م] نموذج من نماذج الثمرات الطيبة لهذا التحرير الإسلامى للمرأة.. به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإسلامــية الجديدة والوليدة..وبه كانت الداعــمة – بالعقل والحكمــة والمال – وأيضًــا بالعــواطف المعطاءة – لرســول الإســلام، ودعــوته وأمته.. حتى كان عام وفاتها عام الحزن والحداد للجماعة المؤمنة كلها..

* وأسماء بنت أبى بكر الصديق [٢٣ ق هـ – ٧٣هـ ٥٩٧ – ٦٩٢م] كانت نموذجًا من نماذج ثمرات هذا التحرير..تحمل أمانة سر خطة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة [١ هـ ٦٢٢م] – وهى من أخطر الــتحولات فى تاريــخ الدعوة

والدولة والأمة-. . وتشارك فى تنفيذ هذا الحدث الأعظم. . وتشد أزر زوجها البطل الزبير بن العوام [٢٨ق هـ - ٣٦ هـ ٥٩٦ - ٦٥٦م] فتهيئ له بيته. . وتزرع له حقله. . وترعى فرس جهاده وقتاله. . وتقاتل معه فى بعض الغزوات. . وتربى ولده عبدالله بن الزبير [١ - ٧٣هـ ٦٢٢ - ٦٩٢م] على البطولة والفداء والاستشهاد. . وتعارض وتجابه الطغاة، من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى [٤٠ - ٩٥هـ ٦٦٠ - ٧١٤م]. . ومع كل ذلك تظل أسماء هذه هى الأنثى، التى تتزيا بالحشمة الإسلامية والشرقية، فلا تلبس ما يكشف أو يصف أو يشف. . وتحافظ على مشاعر الغيرة المفرطة عند زوجها!.

* والشّفاء بنت عبدالله بن عبد شمس القرشية العدوية [٢٠هـ ٦٤٠م] كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإسلامى لتحرير النساء. . سبقت إلى الإسلام. . وبايعت على الدخول فيه وفى أمته ودولته. . وتميزت بالعقل والرأى والحكمة. . واشتغلت بتعليم القراءة والكتابة، حتى كانت معلمة لحفصة أم المؤمنين. . وروت أحاديث رسول الله ﷺ. . وكانت تحاوره، وأحيانًا تلومه فيعتذر إليها ﷺ!. . وبلغت - فى المشاركة فى السلطة والدولة - أن ولاها عمر بن الخطاب «ولاية الحسبة» أى «وزارة» التجارات والأسواق، وأوزانها ومعاملاتها!. . تراقب وتحاسب، وتفصل بين التجار وأهل السوق، من الرجال والنساء. .

* وأم هانئ فاختة بنت أبى طالب [٤٠ هـ ٦٦١م] كانت من ثمرات هذا النموذج فى تحرير النساء. . أسلمت عام الفتح [٨ هـ ٦٢٩م]. . ومع أن زوجها قد فرّ بشركه إلى نجران يوم الفتح، فلقد أجارت - أى أعطت الأمان - لرجلين من قومه - بنى مخزوم - كانا مطلوبين للقصاص الإسلامى. . ووقفت - لذلك - فى وجه أخيها على بن أبى طالب، الذى هم بتنفيذ القصاص فيهما، فصارعته، حماية لمن أجارت، حتى لم يستطع منها فكاكًا. . واستجاب رسول الله ﷺ، لعهدها ولإجارتها، قائلاً:

- «**قد أجرنا من أجرت، وأمَّنّا من أَمّنتِ يا أم هانئ.. لكن لا تُغضبى عليًا، فإن الله يغضب لغضبه!..**».

فأطلقت أخاها.. فداعبه رسول الله ﷺ قائلا:

- «**يا علىّ غلبتك امرأة!..**».

- فقال على: والله يا رسول الله ما قدرت أن أرفع قدمى من الأرض!..

فضحك الرسول ﷺ وقال:

- «**لو أن أبا طالب ولد الناس كانوا شِجاعًا..**».

ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامى بأم هانئ الذروة، عندما خطبها رسول الله ﷺ لنفسه زوجًا وأمّا للمؤمنين، بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك، الذى فرّ بشركه إلى نجران، فاعتذرت عن خطبة الرسول - بأدب جم وحكمة بالغة - وقالت:

- يا رسول الله لأنت أحب إلىّ من سمعى وبصرى. وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلتُ على زوجى أن أُضيِّع بعض شأنى وولدى، وإن أقبلتُ على ولدى أن أضيع حق الزوج!..

فقبل المصطفى ﷺ اعتذارها، واحترم رغبتها التفرغ لأولادها - صنع ذلك وهو القائد المنتصر فى لحظات الفتح الأكبر والانتصار الأعظم التى يستبيح فى مثلها الفاتحون كل الحدود والسدود! وغالب عاطفته الإنسانية، وحبه لأم هانئ- وهو الذى كان قد سبق أن خطبها من أبيها أبى طالب، بعد وفاة زوجه خديجة، وقبل زواجها فى بنى مخزوم، لكن عمه أبا طالب اعتذر يومها للرسول، بأنه قد وعد آل مخزوم أن يزوجها فيهم، لهبيرة بن أبى وهب المخزومى، وقال للرسول ﷺ:

- يا بن أخى إنا قد صاهرناهم والكريم يكافئ الكريم..

غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنسانية.. واحترم حرية أم هانئ.. وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم، وشموخ للحرية والتحرير.. فقال النبى ﷺ:

- **«إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد فى صغره، وأرعاه على بَعْل فى ذات يده!..».**

* وعائشة بنت أبى بكر الصديق - زوج النبى ﷺ وأم المؤمنين - [٩ ق هـ- ٥٨ هـ ٦١٣ - ٦٧٨م] ثمرة من ثمرات هذا التحرير الإسلامى للنساء.. كانت الزوجة الرقيقة الحبيبة.. وراوية الأحاديث وحافظة السنة.. والفقيهة التى تراجع القرّاء والرواة والفقهاء والمجتهدين.. والمشيرة فى الشئون العامة.. والمتذوقة للفنون التى تعرضها فرقة فنية - من الأحباش - فى مسجد النبوة.. والممارسة لرياضة الجرى مع زوجها ﷺ أثناء السفر إلى الغزو والجهاد.. والمشاركة فى الصراع السياسى، الذى بلغ حد القتال، إبان الفتنة الكبرى..

* وحفصة بنت عمر بن الخطاب - زوج الرسول وأم المؤمنين - [١٨ق هـ - ٤٥ هـ ٦٠٤ - ٦٦٥م] كانت من ثمرات هذا التحرير الإسلامى للمرأة.. سبقت إلى الإسلام بمكة.. وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة.. وكانت شاعرة.. وخطيبة فصيحة.. وراوية للحديث.. ائتمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبى بكر الصديق، فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان، فنُسخت منه المصاحف التى وزعت على الأمصار.. وشاركت بالرأى فى تدبير شورى الأمة بعد استشهاد أبيها الفاروق.. ورثته نثرًا وشعرًا.. وخطبت فى الناس بمناقب أبى بكر وعمر.. وتحدثت عن سنة الإسلام فى الاختيار الشورى للخلفاء، والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم..

* ونسيبة بنت كعب الأنصارية - أم عمارة - [١٣ هـ ٦٤٣م] كانت ثمرة ناضجة متألقة من ثمرات هذا التحرير - شاركت فى بيعة العقبة [٢ ق هـ ٦٢٠م] - الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية الأولى- فمارست، فى ظلال

الإسلام، وتحريره للمرأة، قمة الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرنًا.. وشاركت فى بيعة الرضوان - تحت الشجرة - عام الحديبية [٦ هـ ٦٢٨م]- «على الحرب والقتال» عندما شاع أن قريشًا قتلت مندوب المسلمين إليهم - عثمان بن عفان- ونزل فيها وفى الذين بايعوا معها نساء ورجالاً قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح:١٨].

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الفتح: ١٠].

وكانت أم عمارة ممن أوفى بما عاهد عليه الله.. ففى يوم أحد - وعندما انهزم المسلمون، وفر كثير من الرجال - كانت ضمن أقل من عشرة هم الذين صمدوا لجيش الشرك، فحموا رسول الله ﷺ من القتل.. ويومئذ رآها الرسول وقد كسرت سنه وسالت دماؤه - وهى مشمرة، قد ربطت ثوبها على وسطها، تقاتل دونه، وتتصدى «لابن قميئة» - الذى اندفع نحو الرسول ﷺ قائلا: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا!-.. رآها الرسول وهى تتلقى فى كتفها الطعنة التى أراد «ابن قميئة» توجيهها إلى الرسول.. وكانت أمها معها تعصب لها جراحها!.. وكان معها - كذلك - فى هذه الملحمة ابنها الذى نزف فعصبت نزيفه، ثم استنهضته للقتال!.. وعندما جُرحت جرحها الغائر فى كتفها نادى الرسول على ابنها:

« أمك، أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت».

ثم نادى على أحد الفارين كى يعطيها ترسه لتترس به.. وقال لها - فى إعجاب-:

«من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟!.. لمقام نسيبة بنت كعب يوم أحد خير من فلان وفلان.. ما ألتفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى!..».

أما هى، التى غادرت أرض المعركة يومئذ وفى جسدها ثلاثة عشر جرحًا.. فلقد قالت لرسول الله ﷺ:

- ادع الله أن نرافقك فى الجنة..

- فقال ﷺ: «**اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة..**».

- فقالت: ما أبالى بعد ذلك ما أصابنى فى الدنيا!..

وعندما رجع الرسول القائد إلى المدينة، ذهب إلى بيتها ليعودها، ويطمئن عليها قبل أن يذهب إلى بيته!..

وواصلت أم عمارة جهاد التحرير الإسلامى للمرأة المسلمة.. فذهبت إلى رسول الله ﷺ محتجة على ما حسبته امتيازات للرجال على النساء، فقالت:

- يا رسول الله، ما أرى كل شيء إلا للرجال. وما أرى النساء يُذْكَرْنَ بشيء!..

فنزل الروح الأمين على قلب الصادق الأمين بالتنزيل الذى يقرن - فى صراحة اللفظ - النساء بالرجال: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وتواصل أم عمارة الجهاد القتالى يوم خيبر [٧ هـ - ٦٢٨م]. .ويوم حنين (٨هـ- ٦٣٠م).. ويوم اليمامة [١٢ هـ٦٣٣م] فى حروب الردة ضد مسيلمة الكذاب.. وفى موقعة اليمامة هذه استشهد ابنها حبيب بن زيد بن عاصم، ومثّل مسيلمة الكذاب بجثته!.. وفقدت أم عمارة يدها فى القتال.. وعادت إلى المدينة وفى جسدها أحد عشر جرحًا!.. فذهب لعيادتها بمنزلها خليفة المسلمين أبو بكر الصديق!..

* وأسـمـاء بنت يزيد بن السـكن الأنصـارية [٣٠ هـ ٦٥٠م] كـانت هى الأخرى واحـدة من الكواكب اللاتى حررهن الإسلام فـأضأن فى سمـاء تحرير المرأة المسلمة. . شاركت - مع أم عـمارة - فى عقد تأسيس الدولة الإسـلامية الأولى، ببيعـة العقبة [٢ ق هـ ٦٢٠م]. . وشهـدت يوم الفتح الأعظم - فتح مكة [٨ هـ ٦٢٩] - وقاتلت يوم اليرموك [١٥ هـ ٦٣٦م] - فى فتوحات الشام وقتلت تسـعة من الروم بعمـود خيمـتها!. . وكـانت من ذوات الرأى والعقل والحكمة والدين. . خطيبـة فصيحة تهز أعـواد المنابر إذا خطبت. . وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتتزعم المطالبة بما لهن من حقوق، حتى لقد سميت - فى كتب السنة والسيـرة - بـ«وافدة النساء» - أى رسولة وزعيـمة النساء، فى المطالبـة بحقوقـهن - لأنها ذهبـت إلى رسول الله ﷺ - وهو فى المسـجد - متحدثة باسم نساء المسلمين، فقالت:

أنا وافدة من خلفى من النساء يقـلن بقولى وهنّ على مثل رأيى!. . إن الله قد بعـثك للرجال والنساء. . ولقـد غلبنا عليك الرجال، فاجـعل لنا يومًا من نفسك، تعلمنـا فيه. . فوعـدهن رسول الله ﷺ يومًا، لقـيهن فيـه، فوعظهن وأمرهن. . وروت عن رسول الله ﷺ أكثر من ثمانين حديثًا. .

***

تلك مجـرد إشارات لأمثلة من النماذج التى جـسدت نوعية التـحرير الذى أنجـزه الإسلام للمـرأة، منذ فـجر البـعثـة النبـوية، وإشراق شـمس حضـارة الإسلام. .

وإذا كـانت هذه النمـاذج شاهـدة شهـادة صـدق على نوعـية التـحـرير، ونموذجه. . فإن الآفـاق الواسعة التى بلغتهـا موجات هذا التحـرير تشهد على عموم النعمة التى تمثلت فيه.

فيوم انتـقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى [١١ هـ - ٦٣٢م] كـان تعداد الأمة التى دخلت الـدين الجـديد، وانخـرطت فى رعيـة الدولـة الوليـدة ١٢٤,٠٠٠ من

المسلمين والمسلمات.. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التى تربت فى مدرسة النبوة وتميز عطاؤها فى مختلف ميادين العطاء.. رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة.. فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء!.. أى أن التحرير الإسلامى للمرأة قد دفع إلى مراكز الريادة والقيادة أكثر من واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة، إبان ثورة التحرير الإسلامى، فى أقل من ربع قرن من الزمان!.. وهى أعلى نسبة للريادات النسائية فى أى ثورة من ثورات التحرير أو نهضة من النهضات..

وإذا كانت رياح الجاهلية قد أعادت بعض التقاليد والعادات - التى سبقت وسادت مجتمعات ما قبل الإسلام - فإن هذه التقاليد الراكدة لم تستطع غلبة إنجازات التحرير الإسلامى للمرأة - رغم مغالبتها لهذه الإنجازات - فظلت روح هذا التحرير وثمراته ملحوظة حتى فى عصور التراجع الحضارى الذى أصاب عالم الإسلام، فى ظل عسكرة الدولة تحت حكم المماليك والعثمانيين.. فظلت حياتنا الاجتماعية الإسلامية زاخرة بنماذج النساء المُحدّثات.. والفقيهات.. والشاعرات والأديبات.. اللائى بلغ شأوهن فى العلم الحد الذى تتلمذ عليهن وأخذ «الإجازة» العلمية منهن عدد من كبار أئمة الفقهاء والحفاظ والمحدثين والمجددين!..

وعندما رصد عالم التاريخ والتراجم والطبقات عمر رضا كحالة [١٣٢٣ - ١٤٠٨ هـ ١٩٠٥ - ١٩٨٧م] أعلام النساء اللائى تفوقن وبرزن وتقدمن صفوف الصفوة فى تاريخنا الحضارى، إذا به يترجم لثلاثة آلاف من أعلام النساء فى المحيط العربى وحده - وهو محيط لا يمثل إلا خُمْس أمة الإسلام!..

صحيح أن نسبة الصفوة وأعلام النساء - فى تاريخنا الحضارى - كان يجب أن تكون أضعاف أضعاف هذا العدد، وذلك قياسًا على حجم وتعداد صفوة وأعلام النساء فى عهد النبوة.. لكن يظل هذا التعداد شهادة صدق للنموذج الإسلامى فى تحرير النساء، ووسامًا على صدر حضارة الإسلام تباهى

به كل الحضـــارات. . فلقد اسـتعصى هذا النمـوذج على الهزيمة أمــام العادات والتقاليد الراكدة، التى عادت فسادت فى حـقبة تراجعه الحضارى، فظل فاعلاً على امتداد تاريخ الإسلام. . ثم عاد لتتألق معالمه المتميزة فى اجتهادات مدرسة الإحياء والتجـديد الإسلامى الحديث والمعاصر. . إن الحضــارة الإسلامية، التى جسدت الإحياء الإسلامى فى مختلف ميادين الإبداع الحضارى - لأن الإسلام هو الإحياء فى مختلف هذه الميادين- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤]. إن هذه الحضارة الإسـلامية قد أفرزت أعلام العلماء فى مـختلف ميادين العلم - بما فى ذلك الفلك والطبيـعة والجبر والحساب والهندسة والرياضيات والطب والصيدلة. . إلخ. . إلخ - قبل أن يمر قـرن من الزمان على إشـراق شمس الإسـلام - ناهيك عن العلوم الشـرعيـة والإنسانية والاجـتماعية والآداب والفنون- بـينما الحضارة المسيـحية، فى أوربا النصرانية، قد ظلت سـتة عشر قرنًا قبل أن تشـهد عالمًا واحدًا فى الفلك!!. . بل إن هذا الفلـكى - كـوبر نيكوس [١٤٧٣ - ١٥٤٣م] - الذى لـم تعـرفـه أوروبا النصرانيـة إلا فى القرن السادس عشر، لم تـتح له النصرانية وكنيسـتها ولاهوتها نـشر كتـابه فى حيـاته!. وعندما نشـر بعد وفـاته [١٥٤٣م] حرّمت الكنيسة توزيعه، فظل محجوبًا ومصادرًا حتى سنة ١٧٥٨م!. .

ولـم يزدهر الفلك وغيره من العلوم - ويتـحرر الإنسان الأوروبى، إلا على أنقاض سلطان الدين!. .

وكذلك كـان حال المرأة فى الحـضارة المسـيحـية الأوروبيـة. . ظلت النظرة الدونية إليـها هى السائدة باعتبـارها نجسًا لا طهر له، وشـيطانًا بلا روح، فهى امتـداد لغواية الشيطان التى أثمرت الخطـيئة التى حملتـها البشرية على امـتداد تاريخها الطويل!. .

وإذا كان الإيمان الإسلامى. . وفقه الدعوة الإسلامية. . وشورى هذه الدعوة قد بدأت جميعها بامرأة - هى خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها-. . وإذا

كانت علوم الإسـلام قد عرفت الريادات من الـنساء منذ فجـر الدعوة، وعلى امتداد تاريخـها الطويل.. فإن الحضارة المسـيحية لـم تعرف عـالمة فى النصرانية ولاهوتها.. ولا تزال الكنائس النصـرانية تحرم المرأة من هذا الشـرف حتى هذه اللحظات!..

أما هذا الذى سموه فى النهضة الأوروبـية تحرير المرأة فلقد جاء هو الآخر -كتحـرير العلماء- على أنقاض سلطان الدين والكنيـسة واللاهوت.. ولذلك، جاء رد فـعل لاديني، يحرر المرأة من الدين، بدلاً من أن يحـررها بالدين!.. لذلك، كانـت رسالة العقل المـسلم هى حماية المجـتمع المسلم مـن الوقوع فى مستنقع التقليد، تقليد الآخر الغربى، ذلك الذى حذرنا من تقليده رسولنا ﷺ عندما تنبأ بظهور ومجيء هذا النموذج البائس للمقلدين: «**لتتبعن سنة من قبلكم باعًا بباع، وذراعًا بذراع، وشبرًا بشبـر، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم فيه**» رواه ابن ماجـة-.. وسواء أكان هذا التـقليد تقليـدًا للنموذج الغـربى البائد، الذى احتقر المرأة، وقيد ملكاتها وطاقاتها بالعادات والتقاليد الجاهلية عدة قرون.. أم كـان تقليدًا للـغلو العلمانـى الأوروبى والغربى، الذى جـعل من المرأة سلعـة إغراء، وصورة غـلاف، وإعلانًا يغرى بالنهم والاستهـلاك، فكان «تحريره» لها تحريرًا من الفطرة، ومن الدين!.. أو كان تقليدًا لعـاداتنا الجاهلية، التى عادت فسادت فى عصر التراجع الحضارى لأمة الإسلام..

سواء أكان التـقليد للنموذج الغربى المغالى فى مناقـضة الفطرة والقيم.. أم كان تقليدًا للعـادات والتقاليد الاجتمـاعية الإسلامية البـائدة.. فإنه مرذول.. وفى النموذج الإسلامى الوسطى لتحـرير المرأة بالإسلام النموذج المثالى، الذى يحرر المرأة، مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، تلك التى فطر الله عليها الناس، من الذكور والإناث جميعًا.. فهو تحرير تسعد به المرأة، بدلاً من أن تشقى بالنموذج الغربى «للتحرير»!.. أو تظل حبـيسة العادات والتقاليد الراكدة، التى يحملها البعض - زورًا بهتانًا - على حقيقة الإسلام..

***

خمس شبهات

وإذا كانت هذه هى الرؤية الإسلامية لأهلية المرأة.. ولمكانتها من الرجل.. ولموقعها من المشاركة فى العمل الاجتماعى العام.. وهى الرؤية الوسط، التى تُنصف المرأة فتسوى بينها وبين الرجل - مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الذكورة والأنوثة، وتشرك المرأة مع الرجل فى النهوض بولايات العمل الاجتماعى العام - التى تجمعها فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

إذا كانت هذه هى الرؤية الإسلامية - الوسط: العدل - لهذه القضية - التى دار ويدور حولها لغط كثير، وجدل كبير وشديد - فإن اكتمال مقومات هذه الرؤية مرهون بإزالة كل ما أثير ويثار حولها من الشبهات.. ففى المنهاج الإسلامى لا يكفى تبليغ الدعوة.. ولا حتى إقامة الحجة.. وإنما لا بد - معهما أيضًا - من إزالة الشبهات..

ولأن هذه الرؤية التى قدمناها هى الوسط - أى الإسلامية الحقة - كما نحسب - فلقد اتفق أطراف الغلو على ما أثير ويثار ضدها من شبهات!.. فصدقت فى هذا الاتفاق الذى جمع طرفى الغلو - غلو الجمود والتقليد لتراث عصر تراجعنا الحضارى.. وغلو الجمود والتقليد العلمانى للنموذج الغربى الوضعى اللادينى - صدقت فى هذا الاتفاق والاجتماع المقولة السياسية المعاصرة التى تقول: **إن أقصى اليمين وأقصى اليسار إنما يجتمعان على الأرض المشتركة للموقف الخاطئ!..**

ومن هنا رأينا طرفى الغلو الدينى واللادينى يجتمعان على إثارة خمس شبهات.. يحسبها الإسلاميون الغلاة، الذين حملوا العادات والتقاليد الراكدة على الإسلام، فجعلوها دينًا.. يحسبونها مانعة دينيًا من اكتمال أهلية المرأة، ومن مشاركتها فى العمل الاجتماعى العام.. ويحسبها غلاة العلمانيين عقبات إسلامية تحول دون اكتمال أهلية المرأة، فتجعل منها - من ثم - نصف

إنسان. . ولذلك كانت دعوتهم إلى إسقاط الحل الإسلامى لتحرير المرأة، وإلى التماس هذا الحل فى النموذج الغربى لهذا التحرير. .

فمع اختلاف وتناقض المنطلقات والانتماءات، اتفق أهل الغلو، الدينى واللادينى، على إثارة هذه الشبهات الخمس، التى يحسبها الإسلاميون منهم دينًا فيدافعون عنها. . ويحسبها العلمانيون منهم دينًا، فيرفضون الإسلام بسببها! . .

ولذلك، كانت إزالة هذه الشبهات - فى هذا القسم من هذه الدراسة - جهادًا فكريًا على الجبهتين معًا. . جبهة الغلو والتقليد والجمود الدينى. . وجبهة الغلو والتقليد والجمود التغريبى اللادينى. .

أما هذه الشبهات الخمس المثارة حول أهلية المرأة. . ومشاركتها للرجل فى العمل الاجتماعى العام - فهى:

١- أن الإسلام يجعل ميراث الأنثى نصف ميراث الذكر ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

وفى ذلك - كما يقول العلمانيون - انتقاص من أهلية المرأة، يجعلها نصف إنسان! . .

٢- وأن الإسلام يجعل شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وفى ذلك انتقاص من أهليتها، يجعل منها نصف إنسان.

٣- وأن الإسلام- بنص الحديث النبوى الشريف - يجعل النساء ناقصات عقل ودين. . وهو بذلك يقنن ويشرع انعدام أهلية المرأة، ويحول دون مساواتها بالرجال.

٤- وأن الإسلام يشرِّع لعزل المرأة عن المشاركة فى ولايات العمل العام، وذلك عندما يجعل ولايتها فيه وله المقدمة المفضية لعدم الفلاح «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

٥- كـمـا أن المفـهـوم الشـائع - لدى أهل الغلو الديـنى واللادينى - عن «القوامة» - التى قـررها الإسلام للرجال على النساء - قـد جعل فريقى الغلو يجتمـعون على أن هذه القوامة إنما تنـتقص من كمال أهليـة المرأة ومن مساواة النساء للرجال.. لأنها تجعل النساء أسيـرات مقهورات عند القوّامين عليهن من الرجال.

تلك هى الشـبـهات الخـمس التى «عَـشَّشت وتُعـشِّش» فى عـقول غـلاة الإسلامـيين - الذين جعلوا تقاليـد مجتمـعاتهم، الموروثة عن عصـور التراجع الحضارى، دينًا يتـدينون به!- والتى «عَشَّشت وتُعشِّش» فى العـقل العلمانى، حتى لقد رفض، لذلك، سـبيل الإسلام لتحرير المـرأة، والتمس هذا النموذج الغربى اللادينى.. وهى الشبهات التى لا بد من محـاكمتها بالمنطق الإسلامى، لكشف زيفها، وبراءة الإسلام من عوارها وعوراتها.

***

الشبهة الأولى: أن ميراث الأنثى نصف ميراث الذكر

صحيح وحق أن آيات الميـراث، فى القرآن الكريم، قد جاء فيـها قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].. لكن كثيرين من الذين يثيرون الشبـهات حول أهلية المرأة فى الإسلام، متـخذين من التمايز فى الميراث سـبيلاً إلى ذلـك، لا يفقهـون أن توريث المرأة على النصف من الرجل ليس مـوقفًـا عامًـا ولا قـاعدة مطّردة فى تـوريث الإسلام لكل الذكـور وكل الإناث.. فالقـرآن الكريم لم يقل: يوصيكم الله فى المواريـث والوارثين للذكر مـثل حظ الأنثيين.. وإنما قـال: ﴿يُوصِـيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَـرِ مِـثْلُ حَظِّ الأُنثَـيَيْنِ﴾.. أى أن هذا التميـيز ليس قاعدة مطّردة فـى كل حالات الميراث، وإنما هو فى حالات خاصة، بل ومحدودة، من بين حالات الميراث..

بل إن الفقه الحقيقى لفلسفة الإسلام فى الميراث تكشف عن أن التمايز فى أنصبة الوارثين والوارثات لا يرجع إلى معيار الذكورة والأنوثة. . وإنما لهذه الفلسفة الإسلامية فى التوريث حِكَم إلهية، ومقاصد ربانية قد خفيت عن الذين جعلوا التفاوت بين الذكور والإناث فى بعض مسائل الميراث وحالاته شبهة على كمال أهلية المرأة فى الإسلام. . ذلك أن التفاوت بين أنصبة الوارثين والوارثات - فى فلسفة الميراث الإسلامى - إنما تحكمه ثلاثة معايير:

أولها: درجة القرابة بين الوارث - ذكراً أو أنثى - وبين المورِّث - المتوفَّى - فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب فى الميراث.. وكلما ابتعدت الصلة قل النصيب فى الميراث، دونما اعتبار لجنس الوارثين..

وثانيها: موقع الجيل الوارث من التتابع الزمنى للأجيال.. فالأجيال التى تستقبل الحياة، وتستعد لتحمل أعبائها، عادة يكون نصيبها فى الميراث أكبر من نصيب الأجيال التى تستدبر الحياة، وتتخفف من أعبائها، بل وتصبح أعباؤها - عادة - مفروضة على غيرها، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين والوارثات.. فبنت المتوفَّى ترث أكثر من أمه - وكلتاهما أنثى - بل وترث البنت أكثر من الأب! - حتى لو كانت رضيعة لم تدرك شكل أبيها.. وحتى لو كان الأب هو مصدر الثروة التى للابن، والتى تنفرد البنت بنصفها! -.. وكذلك يرث الابن أكثر من الأب - وكلاهما من الذكور! -..

وفى هذا المعيار من معايير فلسفة الميراث فى الإسلام حِكَم إلهية بالغة، ومقاصد ربانية سامية تخفى على الكثيرين!.. وهى معايير لا علاقة لها بالذكورة والأنوثة على الإطلاق..

وثالثها: العبء المالى الذى يوجب الشرع الإسلامى على الوارث تحمله والقيام به حيال الآخرين.. وهذا هو المعيار الوحيد الذى يثمر تفاوتاً بين الذكر والأنثى.. لكنه تفاوت لا يفضى إلى أى ظلم للأنثى، أو انتقاص من إنصافها.. بل ربما كان العكس هو الصحيح!..

ففى حـالة ما إذا اتفق وتساوى الوارثون فى درجـة القرابة.. واتفقـوا وتساووا فى موقع الجـيل الوارث من تتـابع الأجيال - مـثل أولاد المتوفَّى، ذكـورًا وإناثًا - يكون تفاوت العبء المالى هو الـسبب فى التفـاوت فى أنصبة الميـراث.. ولذلك، لم يعمم القرآن الكريم هذا التـفاوت بين الذكر والأنـثى فى عموم الوارثين، وإنما حـصره فى هذه الحالة بالذات، فقالت الآية القرآنية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾.. ولـم تقل: يوصيكم الله فى عموم الوارثين..

والحكمة فى هذا التفاوت، فى هذه الحالة بالذات، هى أن الذكر هنا مكلف بإعالة أنثى - هى زوجه - مع أولادها.. بينمـا الأنثى الوارثة - أخت الذكر - إعالتـها، مع أولادها، فريضة على الذكر المقترن بها.. فهى - مع هذا النقص فى ميراثها - بالنسبة لأخيها، الذى ورث ضعف مـيراثها، أكثر حظًا وامتيازًا منه فى الميـراث.. فميراثها - مع إعفائها من الإنفاق الـواجب - هو ذمة مالية خالصة ومدخرة، لجبـر الاستضعاف الأنثوى، ولتأمين حياتها ضد المخاطر والتـقلبات.. وتلك حكمة إلهية قد تخفى على الكثيرين..

وإذا كانت هذه هى الفلسفة الإسلامية فى تفاوت أنصبة الوارثين والوارثات- وهى التى يغـفل عنهـا طرفا الغلـو، الدينى واللادينى، الذين يحـسبـون هذا التفـاوت الجزئى شبهـة تلحق بأهلية المرأة فى الإسـلام - فإن استقـراء حالات ومسـائل الميـراث - كمـا جاءت فى علم الفـرائض (المواريث) - يكشف عن حقيقة قد تذهل الكثـيرين عن أفكارهم المسبقة، والمغلوطة فى هذا الموضوع.. فهذا الاستقراء لحالات ومسائل الميراث، يقول لنا:

«١ - إن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل.

٢ - وهناك حـالات أضعـاف هذه الحالات الأربع تـرث فيـها المرأة مـثل الرجل تمامًا.

٣ - وهناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل.

٤ - وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال..

أى أن هناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل، أو أكثر منه، أو ترث هى ولا يرث نظيرها من الرجال، فى مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل..»!![٢]

وفى دراسة «إحصائية - استقرائية» لحالات الميراث - فى الفقه الإسلامى - خلص العالم السودانى الشيخ عبد الجليل ندى الكارورى، إلى أن الأنثى ترث نصف الذكر فى حالات تمثل ١٣,٣٣٪ من حالات الميراث، بينما ترث الأنثى مثل الذكر أو أكثر من الذكر فى حالات تبلغ ٨٦,٦٧٪ من حالات الميراث.. أى أن المرأة متميزة عن الرجل فيما يقرب من ٩٠٪ من حالات الميراث!.. وذلك فضلاً عن أن إرث الرجل غالبًا ما يكون بالتعصيب، أى أنه ينتظر ما يفضل من بقية الورثة.. أما إرث المرأة فهو غالبًا محدد بالفرض الشرعى[٣]..

تلك هى ثمرات استقراء حالات ومسائل الميراث - فى علم الفرائض (المواريث) - التى حكمتها المعايير الإسلامية التى حددتها فلسفة الإسلام فى التوريث.. والتى لم تقف عند معيار الذكورة والأنوثة، كما يحسب الكثيرون الذين لا يعلمون!..

وبذلك نرى سقوط الشبهة الأولى من الشبهات الخمس المثارة حول أهلية المرأة، كما قررها الإسلام.

* * *

الشبهة الثانية: أن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل

أما الشبهة الثانية - والزائفة - التى تثار حول موقف الإسلام من شهادة المرأة.. والتى يقول مثيروها: إن الإسلام قد جعل المرأة نصف إنسان، وذلك

عندما جعل شهادتها نصف شهادة الرجل، مستدلين على ذلك بآية سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. .

ومصدر الشبهة التى حسب مثيروها أن الإسلام قد انتقص من أهلية المرأة، بجعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ هو الخلط بين «الشهادة» وبين «الإشهاد» - الذى تتحدث عنه هذه الآية الكريمة. . فالشهادة، التى يعتمد عليها القضاء فى اكتشاف العدل المؤسس على البينة، واستخلاصه من ثنايا دعاوى الخصوم، لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معيارًا لصدقها أو كذبها، ومن ثم قبولها أو رفضها.. وإنما معيارها تحقق اطمئنان القاضى لصدق الشهادة، بصرف النظر عن جنس الشاهد، ذكرًا كان أو أنثى، وبصرف النظر عن عدد الشهود.. فللقاضى، إذا اطمأن ضميره إلى ظهور البينة أن يعتمد شهادة رجلين، أو امرأتين، أو رجل وامرأة، أو رجل وامرأتين، أو امرأة ورجلين، أو رجل واحد، أو امرأة واحدة.. ولا أثر للذكورة أو الأنوثة فى الشهادة التى يحكم القضاء بناء على ما تقدمه له من البينات..

أما آية سورة البقرة، التى قالت: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾.. فإنها تتحدث عن أمر آخر غير «الشهادة» أمام القضاء.. تتحدث عن «الإشهاد»، الذى يقوم به صاحب الدَّين، للاستيثاق من الحفاظ على دَيْنه، وليس عن «الشهادة» التى يعتمد عليها القاضى فى حكمه بين المتنازعين.. فهى - الآية - موجهة لصاحب الحق - الدَّيْن - وليس إلى القاضى الحاكم فى النزاع.. بل إن هذه الآية لا تتوجه إلى كل صاحب حق - دَيْن - ولا تشترط ما اشترطت من مستويات الإشهاد وعدد الشهود فى كل حالات الدَّيْن.. وإنما توجهت بالنصح والإرشاد - فقط النصح والإرشاد - إلى دائن خاص، وفى حالات خاصة من الديون، لها ملابسات خاصة نصت عليها الآية.. فهو دين إلى أجل مسمى. . ولا بد من كتابته. . ولا بد من عدالة الكاتب. ويحرم امتناع الكاتب عن الكتابة. . ولا بد من إملاء الذى عليه الحق. . وإن لم يستطع فليملل وليه بالعدل. . والإشهاد لا بد أن يكون من رجلين من المؤمنين. . أو رجل وامرأتين من المؤمنين. . وأن يكون الشهود ممن ترضى عنهم الجماعة. . ولا يصح امتناع الشهود عن الشهادة. . وليست هذه الشروط بمطلوبة فى التجارة الحاضرة. . ولا فى المبايعات. .

ثم إن الآية ترى فى هذا المستوى من الإشهاد الوضع الأقسط والأقوم. . وذلك لا ينفى المستوى الأدنى من القسط. .

ولقد فقه هذه الحقيقة - حقيقة أن هذه الآية إنما تتحدث عن «الإشهاد» فى دَيْن خاص، وليس عن «الشهادة». . وأنها نصيحة وإرشاد لصاحب الدَّيْن - ذى المواصفات والملابسات الخاصة - وليست تشريعًا موجهًا إلى القاضى - الحاكم - فى المنازعات. . فقه ذلك العلماء المجتهدون. .

ومن هؤلاء العلماء الفقهاء الذين فقهوا هذه الحقيقة، وفصّلوا القول فيها، شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] وتلميذه العلامة

ابن القيم [٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] - من القدماء - والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] والإمام الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣هـ - ١٨٩٣- ١٩٦٣م]- من المحدثين والمعاصرين - فقال ابن تيمية - فيما يرويه عنه ويؤكد عليه ابن القيم-:

قال - عن «البينة» التي يحكم القاضي بناء عليها.. والتي وضع قاعدتها الشرعية والفقهية حديث رسول الله ﷺ: **«البينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه»** - رواه البخاري والترمذي وابن ماجة -:

«إن البينة، في الشرع، اسم لما يبيّن الحق ويظهره، وهي تارة تكون أربعة شهود، وتارة ثلاثة، بالنص في بينة المفلس، وتارة شاهدين، وشاهد واحد، وامرأة واحدة، وتكون نُكولاً(٤)**، ويمينًا، أو خمسين يمينًا، أو أربعة أيمان، وتكون شاهد الحال. فقوله ﷺ: «البينة على المدعى»، أي عليه أن يظهر ما يبيّن صحة دعواه، فإذا ظهر صدقه بطريق من الطرق حُكِمَ له..»**(٥).

فكما تقوم البينة بشهادة الرجل الواحد أو أكثر، تقوم بشهادة المرأة الواحدة، أو أكثر، وفق معيار البينة التي يطمئن إليها ضمير الحاكم - القاضي -..

* ولقد فصّل ابن تيمية القول في التمييز بين طرق حفظ الحقوق، التي أرشدت إليها ونصحت بها آية الإشهاد - الآية ٢٨٢ من سورة البقرة - وهي الموجهة إلى صاحب «الحق - الدَّين» - وبين طرق البينة، التي يحكم الحاكم - القاضي - بناء عليها.. وأورد ابن القيم تفصيل ابن تيمية هذا تحت عنوان **[الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه]**.. فقال:

«إن القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحكم بها الحاكم، وإنما ذكر النوعين من البينات في الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ

كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] -.. فأمرهم، سبحانه، بحفظ حقوقهم بالكتاب(٦)، وأمر من عليه الحق أن يملى الكاتب، فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه أملى عنه وليه، ثم أمر من له الحق أن يُشهد على حقه رجلين، فإن لم يجد فرجل وامرأتان، ثم نهى الشهداء المتحملين للشهادة عن التخلف عن إقامتها إذا طُلبوا لذلك، ثم رخّص لهم فى التجارة الحاضرة ألا يكتبوها، ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع، ثم أمرهم إذا كانوا على سفر، ولم يجدوا كاتبًا، أن يستوثقوا بالرهان المقبوضة.

كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم، وما تحفظ به الحقوق شيء، وما يحكم به الحاكم - [القاضى] - شيء، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين، فإن الحاكم يحكم بالنكول، واليمين المردودة - ولا ذكر لهما فى القرآن - وأيضًا، فإن الحاكم يحكم بالقرعة - بكتاب الله وسنة رسوله الصريحة الصحيحة - ويحكم بالقافة(٧) - بالسنة الصريحة الصحيحة، التى لا معارض لها - ويحكم بالقسامة(٨) - بالسنة الصحيحة الصريحة - ويحكم بشاهد الحال إذا تداعا الزوجان أو الصانعان متاع البيت والدكان، ويحكم، عند من أنكر الحكم، بالشاهد واليمين، بوجود الآجرّ فى الحائط، فيجعله للمدعى إذا كان جهته - وهذا كله ليس فى القرآن، ولا حكم به رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه..

فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين بدلٌ عن الشاهدين، وأنه لا يُقْضَى بهما إلا عند عدم الشاهدين.

قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها انتقلوا

إلى ما دونها.. وهو، سبحانه، لم يذكر ما يحكم به الحاكم، وإنما أرشدنا إلى ما يُحفظ به الحق، وطرق الحكم أوسع من الطرق التى تُحفظ بها الحقوق..»(٩).

وبعد إيراد ابن القيم لهذه النصوص - نقلاً عن شيخه وشيخ الإسلام ابن تيمية - علق عليها، مؤكدًا إياها، فقال:

«قلت - [أى ابن القيم] -: وليس فى القرآن ما يقتضى أنه لا يُحْكَم إلا بشاهدين، أو شاهد وامرأتين، فإن الله، سبحانه، إنما أمر بذلك أصحاب الحقوق أن يحفظوا حقوقهم بهذا النِّصاب، ولم يأمر بذلك الحكام أن يحكموا به، فضلاً عن أن يكون قد أمرهم ألا يقضوا إلا بذلك. ولهذا يحكم الحاكم بالنكول، واليمين المردودة، والمرأة الواحدة، والنساء المنفردات لا رجل معهن، وبمعاقد القُمُط(١٠)، ووجوه الآجرّ، وغير ذلك من طرق الحكم التى لم تُذكر فى القرآن.. فطرق الحكم شىء، وطرق حفظ الحقوق شىء آخر، وليس بينهما تلازم، فتُحفظ الحقوق بما لا يحكم به الحاكم مما يعلم صاحب الحق أنه يحفظ به حقه، ويحكم الحاكم بما لا يحفظ به صاحب الحق حقه، ولا خطر على باله..»(١١).

فطرق الإشهاد، فى آية سورة البقرة - التى تجعل شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد - هى نصيحة وإرشاد لصاحب الدَّيْن - ذى الطبيعة الخاصة -.. وليست التشريع الموجه إلى الحاكم - القاضى - والجامع لطرق الشهادات والبينات.. إنها خاصة بدَيْن، له مواصفاته وملابساته، وليست التشريع العام فى البينات التى تُظهر العدل فيحكم به القضاة..

* وبعد هذا الضبط والتمييز والتحديد.. أخذ ابن تيمية يعدد حالات البينات، والشهادات التى يجوز للقاضى - الحاكم - الحكم بناء عليها.. فقال:

«إنه يجوز للحاكم - [القاضى] - الحكم بشهادة الرجل الواحد إذا عرف صدقه، فى غير الحدود، ولم يوجب الله على الحكام ألا يحكموا إلا بشاهدين أصلاً، وإنما

أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين، أو بشاهد وامرأتين، وهذا لا يدل على أن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك، بل قد حكم رسول الله ﷺ بالشاهد واليمين، وبالشاهد فقط، وليس ذلك مخالفًا لكتاب الله عند من فهمه، ولا بين حكم الله وحكم رسوله خلاف.. وقد قبل النبي شهادة الأعرابي وحده على رؤية هلال رمضان، وتسمية بعض الفقهاء ذلك إخبارًا، لا شهادة، أمر لفظي لا يقدح في الاستدلال، ولفظ الحديث يردّ قوله. وأجاز ﷺ شهادة الشاهد الواحد في قضية السَّلَب[12]، ولم يُطالب القاتل بشاهد آخر، ولا استحلفه، وهذه القصة - [وروايتها في الصحيحين] - صريحة في ذلك.. وقد صرح الأصحاب: أنه تُقبل شهادة الرجل الواحد من غير يمين عند الحاجة، وهو الذي نقله الخِرَقي [٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م] في مختصره، فقال: وتُقْبَلُ شهادة الطبيب العدل في الموضحة[13] إذا لم يقدر على طبيبين، وكذلك البيطار في داء الدابة..»[14].

* وكما تجوز شهادة الرجل الواحد - في غير الحدود -.. وكما تجوز شهادة الرجال وحدهم، في الحدود، تجوز - عند البعض - شهادة النساء وحدهن في الحدود.. وعن ذلك يقول ابن تيمية، فيما نقله عنه ابن القيم:

«وقد قبل النبي ﷺ شهادة المرأة الواحدة في الرضاع، وقد شهدت على فعل نفسها، ففي الصحيحين عن عقبة بن الحارث: «أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب، فجاءت أَمَةٌ سوداء، فقالت: قد أرضعتكما. فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فأعرض عني، قال: فتنحيتُ فذكرتُ ذلك له، قال: فكيف؟ ،قد زعمتْ أنْ قد أرضعتكما!».

وقد نص أحمد على ذلك في رواية بكر بن محمد عن أبيه، قال: في المرأة تشهد على ما لا يحضره الرجال من إثبات استهلال الصبي[15]، وفي الحمّام يدخله النساء، فتكون بينهن جراحات.

وقال إسحاق بن منصور: قلتُ لأحمد، في شهادة الاستدلال: تجوز شهادة امرأة واحدة في الحيض والعدة والسقط والحمّام، وكل ما لا يطّلع عليه إلا النساء؟

فقال: تجوز شهادة امرأة إذا كانت ثقة، ويجوز القضاء بشهادة النساء منفردات فى غير الحدود والقصاص عند جماعة من الخَلَف والسلف. وعن عطاء [٢٧ - ١١٤ هـ - ٦٤٧ - ٧٣٢ م] أنه أجاز شهادة النساء فى النكاح. وعن شريح [٧٨ هـ - ٦٩٧م] أنه أجاز شهادة النساء فى الطلاق. وقال بعض الناس: تجوز شهادة النساء فى الحدود. وقال مهنا: قال لى أحمد بن حنبل: قال أبو حنيفة: تجوز شهادة القابلة وحدها، وإن كانت يهودية أو نصرانية..»[١٦].

ذلك أن العبرة هنا - فى الشهادة - إنما هى الخبرة والعدالة، وليست العبرة بجنس الشاهد - ذكرًا كان أو أنثى - ففى مهن مثل الطب.. والبيطرة.. والترجمة أمام القاضى.. تكون العبرة «بمعرفة أهل الخبرة»[١٧].

* بل لقد ذكر ابن تيمية - فى حديثه عن الإشهاد الذى تحدثت عنه آية سورة البقرة - أن نسيان المرأة، ومن ثم حاجتها إلى أخرى تذكّرها ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ ليس طبعًا ولا جبلة فى كل النساء، وليس حتمًا فى كل أنواع الشهادات.. وإنما هو أمر له علاقة بالخبرة والمران، أى أنه مما يلحقه التطور والتغيير.. وحكى ذلك عنه ابن القيم فقال:

«قال شيخنا ابن تيمية، رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل واحد إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى إذا ضلت، وهذا إنما يكون فيما فيه الضلال فى العادة، وهو النسيان وعدم الضبط.. فما كان من الشهادات لا يُخَافُ فيه الضلال فى العادة لم تكن فيه على نصف الرجل..»[١٨].

فحتى فى الإشهاد، يجوز لصاحب الدَّيْن أن يحفظ دَينه - وفق نصيحة وإرشاد آية سورة البقرة - بإشهاد رجل وامرأة، أو امرأتين، وذلك عند توافر

الخبرة للمرأة في موضوع الإشهاد.. فهى - فى هذا الإشهاد - ليست شهادتها دائمًا على النصف من شهادة الرجل..

ولقد كرر ابن القيم - وأكّد - هذا الذى أشرنا إلى طرف منه، فى غير كتابه [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية]، فقال، فى كتابه [إعلام الموقعين عن رب العالمين] - أثناء حديثه عن «البينة»، وحديث رسول الله ﷺ: «**البينة على المدعى واليمين على من أنكر**» - خلال شرحه لخطاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى [٢١ ق هـ - ٤٤ هـ - ٦٠٢ - ٦٦٥ م] فى قواعد القضاء وآدابه - قال:

«إن البينة فى كلام الله ورسوله، وكلام الصحابة اسم لكل ما يبين الحق.. ولم يختص لفظ البينة بالشاهدين.. وقال الله فى آية الدَّيْن: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فهذا فى التَّحمل والوثيقة التى يحفظ بها صاحب المال حقه، لا فى طرق الحكم وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شىء وهذا شىء، فذكر سبحانه ما يحفظ به الحقوق من الشهود، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك.. فإن طرق الحكم أعم من طرق حفظ الحقوق.. وقال سبحانه: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ لأن صاحب الحق هو الذى يحفظ ماله بمن يرضاه..».

وعلل ابن تيمية حكمة كون شهادة المرأتين - فى هذه الحالة - تعدلان شهادة الرجل الواحد، بأن المرأة ليست مما يتحمل عادة مجالس وأنواع هذه المعاملات.. لكن إذا تطورت خبراتها وممارساتها وعاداتها، كانت شهادتها - حتى فى الإشهاد على حفظ الحقوق والديون - مساوية لشهادة الرجل.. فقال:

«ولا ريب أن هذه الحكمة فى التعدد هى فى التحمل، فأما إذا عقلت المرأة - [أى ضبطت] - وحفظت وكانت ممن يوثق بدينها فإن المقصود حاصل بخبرها كما

حصل بأخبار الديانات، ولهذا تُقبل شهادتها وحدها فى مواضع، ويُحكم بشهادة امرأتين ويمين الطالب فى أصح القولين، وهو قول مالك [٩٣ - ١٧٩هـ - ٧١٢ - ٧٩٥ م] وأحد الوجهين فى مذهب أحمد..

والمقصود أن الشارع لم يَقِف الحكم فى حفظ الحقوق البتة على شهادة ذكرين، لا فى الدماء ولا فى الأموال ولا فى الفروج ولا فى الحدود.. وسر المسألة ألا يلزم من الأمر بالتعدد فى جانب التحمل وحفظ الحقوق الأمر بالتعدد فى جانب الحكم والثبوت، فالخبر الصادق لا تأتى الشريعة برده أبدًا»(١٩).

* وهذا الذى قاله ابن تيمية وابن القيم - فى حديثهما عن آية سورة البقرة- هو الذى ذكره الإمام محمد عبده، عندما أرجع تميز شهادة الرجال على هذا الحق - الذى تحدثت عنه الآية - على شهادة النساء، إلى كون النساء - فى ذلك التاريخ - كن بعيدات عن حضور مجالس التجارات، ومن ثم بعيدات عن تحصيل التحمل والخبرات فى هذه الميادين.. وهو واقع تاريخى خاضع للتطور والتغيير، وليس طبيعة ولا جبلة فى جنس النساء على مر العصور.. ولو عاش الإمام محمد عبده إلى زمننا هذا، الذى زخر ويزخر بالمتخصصات فى المحاسبة، والاقتصاد، وإدارة الأعمال، وبـ «سيدات الأعمال» اللائى ينافسن «رجال الأعمال»، لأفاض وتوسع فيما قال، ومع ذلك، فحسبه أنه قد تحدث - قبل أكثر من قرن من الزمان - فى تفسيره لآية سورة البقرة هذه، رافضًا أن يكون نسيان المرأة جبلة فيها وعامًا فى كل موضوعات الشهادات، فقال:

«تكلم المفسرون فى هذا، وجعلوا سببه المزاج، فقالوا إن مزاج المرأة يعتريه البرد فيتبعه النسيان، وهذا غير متحقق، والسبب الصحيح أن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، فلذلك تكون ذاكرتها ضعيفة، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها، فإنها أقوى ذاكرة من الرجل،

يعنى أن من طبع البشـر، ذكرانًا وإناثًا، أن يقوى تذكـرهم للأمور التى تهمـهم ويكثر اشتغالهم بها»[٢٠].

ولقد سار الشيخ محمود شلتوت - الذى استوعب اجتهادات ابن تيمية وابن القيم ومحـمد عبده - على هذا الطريق، مضـيفًا إلى هذه الاجتهـادات ملمحًا آخر عندما لفت الـنظر إلى تساوى شهادة المرأة بشهـادة الرجل فى «اللعان». . فكَتَب يقول - عن شهـادة المرأة، وكيف أنها دليل على كمال أهليـتها، وذلك على العكس من الفكر المغلوط الذى يحـسب موقف الإسلام من هذه القضـية انتقاصًا من إنسانيتها. . كتب يقول:

«إن قـول الله، سبـحانه وتعـالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ ليس واردًا فى مقـام الشهادة التى يقضى بهـا القاضى ويحكم، وإنما هو فى مقـام الإرشاد إلى طرق الاستـيثاق والاطمئنان على الحـقوق بين المتعاملين وقت التـعامل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾[البقـرة:٢٨٢].. فالمقـام مقام استـيثاق على الحقوق، لا مقـام قضاء بها. والآية ترشد إلى أفضل أنواع الاستـيثاق الذى تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهما.

وليس مـعنى هذا أن شهـادة المرأة الواحدة، أو شـهادة النسـاء اللاتى ليس معـهن رجل، لا يثـبت بها الحق، ولا يحكم بهـا القاضى، فـإن أقصى مـا يطلبه القـضاء هو «البينة».

وقد حقق العلامة ابن القيم أن البـينة فى الشرع أعم من الشهادة، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهـره، هو بينة يقـضى بهـا القـاضى ويحكم. ومن ذلك: يحكم القـاضى بالقرائن القطعية، ويحكم بشـهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها.

واعتبار المرأتين في الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها، الذى يتبع نقص إنسانيتها ويكون أثرًا له، وإنما هو لأن المرأة - كما قال الشيخ عبده - «ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها، فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويمارسونها، ويكثر اشتغالهم بها.

والآية جاءت على ما كان مألوفًا فى شأن المرأة، ولا يزال أكثر النساء كذلك، لا يشهدن مجالس المداينات ولا يشتغلن بأسواق المبايعات، واشتغال بعضهن بذلك لا ينافى هذا الأصل الذى تقضى به طبيعتها فى الحياة».

وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق، وكان المتعاملون فى بيئة يغلب فيها اشتغال النساء بالمبايعات وحضور مجالس المداينات، كان لهم الحق فى الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه.

هذا وقد نص الفقهاء على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة وحدها، وهى القضايا التى لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها، كالولادة والبكارة، وعيوب النساء والقضايا الباطنية. وعلى أن منها ما تقبل فيه شهادة الرجل وحده، وهى القضايا التى تثير موضوعاتها عاطفة المرأة ولا تقوى على تحملها، على أنهم قد رأوا قبول شهادتها فى الدماء إذا تعينت طريقًا لثبوت الحق واطمئنان القاضى إليها. وعلى أن منها ما تقبل شهادتهما معًا.

وما لنا نذهب بعيدًا، وقد نص القرآن على أن المرأة كالرجل - سواء بسواء - فى شهادات اللعان، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجه وليس له على ما يقول شهود ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ

فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦-٩]..

أربع شهادات من الرجل، يعقبها استمطار لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ويقابلها ويبطل عملها، أربع شهادات من المرأة، يعقبها استمطار غضب الله عليها إن كان من الصادقين.. فهذه عدالة الإسلام فى توزيع الحقوق العامة بين الرجل والمرأة، وهى عدالة تحقق أنهما فى الإنسانية سواء..»(٢١).

هكذا وضحت صفحة الإسلام.. وصفحات الاجتهاد الإسلامى فى قضية مساواة شهادة المرأة وشهادة الرجل، طالما امتلك الشاهد أو الشاهدة مقومات ومؤهلات وخبرة هذه الشهادة.. لأن الأهلية الإنسانية بالنسبة لكل منهما واحدة، ونابعة من وحدة الخلق، والمساواة فى التكاليف، والتناصر فى المشاركة بحمل الأمانة التى حملها الإنسان، أمانة استعمار وعمران هذه الحياة.

* وأخيرًا - وليس آخرًا - فإن ابن القيم يستدل بالآية القرآنية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] على أن المرأة كالرجل فى هذه الشهادة على بلاغ الشريعة ورواية السنة النبوية.. فالمرأة كالرجل فى «رواية الحديث، التى هى شهادة على رسول الله ﷺ»..

وإذا كان ذلك مما أجمعت عليه الأمة، ومارسته راويات الحديث النبوى جيلاً بعد جيل - والرواية شهادة - «فكيف تقبل الشهادة - من المرأة - على رسول الله ﷺ ولا تقبل على واحد من الناس؟.. إن المرأة العدل - [بنص عبارة ابن القيم] - كالرجل فى الصدق والأمانة والديانة»(٢٢).

ذلكم هو منطق شريعة الإسلام - وكلها منطق - وهذا هو عدلها بين النساء والرجال - وكلها عدل - وكما يقول ابن القيم:

«وما أثبت الله ورسوله قط حكمًا من الأحكام يُقطع ببطلان سببه حسًا أو عقلاً، فحاشا أحكامه سبحانه من ذلك، فإنه لا أحسن حكمًا منه، سبحانه وتعالى، ولا أعدل. ولا يحكم حكمًا يقول العقل: ليته حكم بخلافه، بل أحكامه كلها مما يشهد العقل والفِطَر بحسنها، ووقوعها على أتم الوجوه وأحسنها، وأنه لا يصلح فى موضعها سواها»[٢٣].

* * *

هذا.. ولقد تعمدنا - فى إزالة هذه الشبهة - أمرين:

أولهما: أن ندع نصوص أئمة الاجتهاد الإسلامى هى التى تبدد غيوم هذه الشبهة، لا نصوصنا نحن.. وذلك حتى لا ندع سبيلاً لشبهات جديدة فى هذا الموضوع!

وثانيهما: أن تكون هذه النصوص للأئمة المبرزين فى إطار السلف والسلفيين.. وذلك حتى نقطع الطريق على أدعياء السلفية الذين حملوا العادات الراكدة لمجتمعاتهم على دين الإسلام، فاستبدلوا هذه العادات بشريعة الإسلام!.. وحتى نقطع الطريق - كذلك - على غلاة العلمانيين والعلمانيات، الذين استبدلوا البدع الفكرية الوافدة بحقائق الإسلام وحقيقته، والذين يتحسسون مسدساتهم إذا ذكرت مصطلحات السلفية والسلفيين!..

فإنصاف المرأة، وكمال واكتمال أهليتها هو موقف الإسلام، الذى نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين.. وهو موقف كل تيارات الاجتهاد الإسلامى، على امتداد تاريخ الإسلام.

* * *

الشبهة الثالثة: أن النساء ناقصات عقل ودين

المصدر الحقيقى لهذه الشبهة هو العادات والتقاليد الموروثة، والتى تنظر إلى المرأة نظرة دونية. . وهى عادات وتقاليد جاهلية، حرر الإسلام المرأة منها. . لكنها عادت إلى الحياة الاجتماعية، فى عصور التراجع الحضارى، مستندة - كذلك - إلى رصيد التمييز ضد المرأة الذى كانت عليه مجتمعات غير إسلامية، دخلت فى إطار الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية، دون أن تتخلص تمامًا من هذه المواريث. . فسرعة الفتوحات الإسلامية - التى اقتضتها معاجلة القوى العظمى المناوئة للإسلام - قوى الفرس والروم - وما تبعها من سرعة امتداد الدولة الإسلامية، قد أدخلت فى الحياة الإسلامية شعوبًا وعادات وتقاليد لم تتح هذه السرعة للتربية الإسلامية وقيمها أن تخلِّص تلك الشعوب من تلك العادات والتقاليد، والتى تكون - عادة - أشد رسوخًا وحاكمية من القيم الجديدة. . حتى لتغالب فيه هذه العادات الموروثة العقائد والأنساق الفكرية، والمثل السامية للأديان والدعوات الجديدة والوليدة، محاولة التغلب عليها!. .

ولقد حاولت هذه العادات والتقاليد - بعد أن ترسخت وطال عليها الأمد، فى ظل عسكرة الدولة الإسلامية - فى العهدين المملوكى والعثمانى - أن تجد لنظرتها الدونية للمرأة «غطاء شرعيّا» فى التفسيرات المغلوطة لبعض الأحاديث النبوية، وذلك بعد عزل هذه الأحاديث عن سياقها، وتجريدها من ملابسات ورودها، وفصلها عن المنطق الإسلامى - منطق تحرير المرأة، كجزء من تحريره للإنسان، ذكرًا كان أو أنثى هذا الإنسان. . فلقد جاء الإسلام ليضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، وليحيى ملكات وطاقات الإنسان - مطلق جنس ونوع الإنسان - وليشرك الإناث والذكور جميعًا فى حمل الأمانة التى حملها الإنسان، وليكون بعضهم أولياء بعض فى النهوض بالفرائض الاجتماعية، الشاملة لكل ألوان العمل الاجتماعى والعام. .

لكن العادات والتقاليد الجاهلية - فى احتقار المرأة، والانتقاص من أهليتها، وعزلها عن العمل العام، وتعطيل ملكاتها وطاقاتها الفطرية - قد دخلت فى حرب ضروس ضد القيم الإسلامية لتحرير المرأة.. وسعت إلى التفسيرات الشاذة والمغلوطة لبعض الأحاديث النبوية والمأثورات الإسلامية كى تكون «غطاء شرعيًا» لهذه العادات والتقاليد..

فبعد أن بلغ التحرير الإسلامى للمرأة إلى حيث أصبحت به وفيه:

* طليعة الإيمان بالإسلام.. والطاقة الخلاقة الداعمة للدين ورسوله ﷺ كما كان حال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد [٦٨ - ٣ ق هـ ٥٥٦ - ٦٢٠م] رضى الله عنها.. حتى لقد كان عام وفاتها عام حزن المسلمين ورسول الإسلام ودعوة الإسلام..

* وطليعة شهداء الإسلام.. كما جسدتها شهادة سمية بنت خباط [٧ ق هـ ٦١٥ م] - أم عمار بن ياسر [٥٧ ق هـ - ٣٧ هـ ٥٦٧ - ٦٥٧ م].

* وطليعة المشاركة فى العمل العام - السياسى منه، والشورى، والفقهى، والدعوى، والأدبى، والاجتماعى.. بل والقتالى - كما تجسدت فى كوكبة النخبة والصفوة النسائية التى تربت فى مدرسة النبوة..

بعد أن بلغ التحرير الإسلامى للمرأة هذه الآفاق.. أعادت العادات والتقاليد المرأة - أو حاولت إعادتها - إلى أسر وأغلال منظومة من القيم الغريبة عن الروح الإسلامية.. حتى أصبحت المفاخرة والمباهاة بأعراف ترى:

* أن المرأة الكريمة لا يليق بها أن تخرج من مخدعها إلا مرتين: أولاهما: إلى مخدع الزوجية.. وثانيتهما: إلى القبر الذى تُدفن فيه!..

* فهى عورة، لا يسترها إلا «القبر»!

ولم أر نعمة شملت كريمًا كنعمة عورة سُترت بقبر!

وإذا كان الإسلام قد حفظ حياتها من الوأد - المادى: القتل - .. فإن المجد والمكرمات - فى تلك العادات - هى فى موتها!

ومـــن غـــاية المجـد والمكرمـــات   بقـــاء البنين ومـــوت البنات!

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقًا   والموت أكرم نزّال على الحرم!

* وشوراها شؤم يجب اجـتنابها.. وإذا حدثت فلمخالفتـها، وللحذر من الأخذ بها!

والأكثر خطورة من هذه الأعـراف والعادات والتقاليـد، التى سادت أوساطًا ملحوظة ومؤثـرة فى حياتنا الاجتمـاعية، إبان مرحلة التـراجع الحضارى، هى التفـسيرات المغلوطة لبـعض المرويات الإسلامية، بحـثًا عن مرجـعية إسلامـية وغطاء شـرعى لقـيم التـخلف والانحـطاط التى سـادت عـالم المرأة فى ذلك التاريخ.. ولـقد كان الحظ الأوفـر فى هذا المقام للتـفسـير الخـاطئ الذى ساد وانتشر لحديث رسول الله ﷺ - الذى رواه البخارى ومسلم - عن نقص النساء فى العقل والدين.. وهـو حديث رواه الصحـابى الجليل أبو سعيـد الخدرى، رضى الله عنه، فـقـال: «خرج رسـول الله ﷺ - فى أضـحى أو فطر - إلى المصلى، فمرّ على النساء، فقال:

- «**يا معشـر النساء، ما رأيت من ناقصات عـقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**».

- قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟

- قال: «**أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل**»؟.

- قلن: بلى.

- قال: «**فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصلّ ولم تصم؟**».

- قلن: بلى.

- قال: «**فذلك من نقصان دينها**».

ذلكم هو الحديث الذى اتُّـخذَ تفسـيره المغلوط - ولا يزال - «غطاء شرعـيًا»

للعادات والتقاليد التى تنتقص من أهلية المرأة. . والذى ينطلق منه نفر من غلاة الإسلاميين فى «جهادهم» ضد إنصاف المرأة وتحريرها من أغلال التقاليد الراكدة. . وينطلق منه المتغربون وغلاة العلمانيين فى دعوتهم إلى إسقاط الإسلام من حسابات تحرير المرأة، وطلب هذا التحرير فى النماذج الغربية الوافدة. .

الأمر الذى يستوجب إنقاذ المرأة من هذه التفسيرات المغلوطة لهذا الحديث. . بل وإنقاذ هذا الحديث الشريف من هذه التفسيرات! . .

وذلك من خلال نظرات فى «متن» الحديث و«مضمونه» نكثفها فى عدد من النقاط:

أولاها: أن الذاكرة الضابطة لنص هذا الحديث قد أصابها ما يطرح بعض علامات الاستفهام. . ففى رواية الحديث شك - من الراوى - حول مناسبة قوله. . هل كان ذلك فى عيد الأضحى؟ أم فى عيد الفطر؟. . وهو شك لا يمكن إغفاله عند وزن المرويات والمأثورات.

وثانيتها: أن الحديث يخاطب حالة خاصة من النساء، ولا يشرّع شريعة دائمة ولا عامة فى مطلق النساء.. فهو يتحدث عن «واقع».. والحديث عن «الواقع» - القابل للتغير والتطور - شىء، والتشريع «للثوابت» - عبادات وقيمًا ومعاملات - شىء آخر..

فعندما يقول الرسول ﷺ: «إنا أمّة أُمية، لا نكتب ولا نحسُب» - رواه البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود والإمام أحمد - فهو يصف «واقعًا»، ولا يشرع لتأبيد الجهل بالكتابة والحساب؛ لأن القرآن الكريم قد بدأ بفريضة «القراءة» لكتاب الكون ولكتابات الأقلام ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥] ولأن الرسول ﷺ الذى وصف «واقع» الأمية الكتابية والحسابية، هو الذى غيّر هذا الواقع، بتحويل البدو الجهلاء الأميين إلى قرّاء وعلماء وفقهاء، وذلك امتثالاً لأمر ربه، فى القرآن الكريم، الذى علمنا أن من وظائف جعل الله، سبحانه وتعالى، القمر منازل أن نتعلم عدد السنين والحساب ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].. فوصف «الواقع» - كما نقول الآن مثلاً: «نحن مجتمعات متخلفة» - لا يعنى شرعنة هذا «الواقع» ولا تأييده، فضلاً عن تأبيده، بأى حال من الأحوال.

وثالثتها: أن فى بعض روايات هذا الحديث - وخاصة رواية ابن عباس، رضى الله عنهما.. ما يقطع بأن المقصود به إنما هى حالات خاصة لنساء لهن صفات خاصة، هى التى جعلت منهن أكثر أهل النار، لا لأنهن نساء، وإنما لأنهن - كما تنص وتعلل هذه الرواية - «يكفرن العشير»، ولو أحسن هذا العشير إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منه هنَةً أو شيئًا لا يعجبها، كفرت - كفر نعمة - بكل النعم التى أنعم عليها بها، وقالت - بسبب النزق أو الحمق أو غلبة العاطفة التى تنسيها ما قدمه لها هذا العشير من إحسان -: «ما رأيت منك خيراً قط»! - رواه البخارى ومسلم والنسائى ومالك - فى الموطأ..

فهذا الحديث - إذن - وصف لحالة بعينها، وخاص بهذه الحالة.. وليس تشريعًا عامًا ودائمًا لجنس النساء..

ورابعتها: أن مناسبة الحديث ترشح ألفاظه وأوصافه لأن يكون المقصود من ورائها المدح وليس الذم.. فالذين يعرفون خلق من صنعه الله على عينه، حتى جعله صاحب الخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].. والذين يعرفون كيف جعل صلى الله عليه وسلم من «العيد» - الذى قال فيه هذا الحديث - «فرحة» أشرك فى الاستمتاع بها - مع الرجال - كل النساء، حتى الصغيرات، بل وحتى الحُيَّض والنُّفَّساء!.. الذين يعرفون صاحب هذا الخلق العظيم، ويعرفون رفقه بالقوارير، ووصاياه بهن حتى وهو على فراش المرض يودع هذه الدنيا.. لا يمكن أن يتصوروه ﷺ ذلك الذى يختار يوم الزينة والفرحة ليجابه كل النساء ومطلق جنس النساء بالذم والتقريع والحكم المؤبد عليهن بنقصان الأهلية، لنقصانهن فى العقل والدين!..

وإذا كانت المناسبة - يوم العيد والزينة والفرحة - لا ترشح أن يكون الذم

والغم والحزن والتبكيت هو المقصود.. فإن ألفاظ الحديث تشهد على أن المقصود إنما كان المديح، الذى يستخدم وصف «الواقع» الذى تشترك فى التحلى بصفاته غالبية النساء.. إن لم يكن كل النساء..

فالحديث يشير إلى غلبة العاطفة والرقة على المرأة، وهى عاطفة ورقة صارت «سلاحًا» تغلب به هذه المرأة أشد الرجال حزمًا وشدة وعقلاً.. وإذا كانت غلبة العاطفة إنما تعنى تفوقها على الحسابات العقلية المجردة والجامدة، فإننا نكون أمام عملة ذات وجهين، تمثلها المرأة.. فعند المرأة تغلب العاطفة على العقلانية - وذلك على عكس الرجل، الذى تغلب عقلانيته وحساباته العقلانية عواطفه- وفى هذا التمايز فطرة إلهية، وحكمة بالغة، ليكون عطاء المرأة فى ميادين العاطفة بلا حدود وبلا حسابات.. وليكون عطاء الرجل فى مجالات العقلانية المجردة والجامدة مكملاً لما نقص عند «الشق اللطيف والرقيق!»..

فنقص العقل - الذى أشارت إليه كلمات الحديث النبوى الشريف - هو وصف لواقع تتزين به المرأة السوية وتفخر به - لأنه يعنى غلبة عاطفتها على عقلانيتها المجردة.. ولذلك، كانت «مداعبة» صاحب الخلق العظيم - الذى آتاه ربه جوامع الكلم - للنساء، فى يوم الفرحة والزينة، عندما قال لهن: إنهن يغلبن بسلاح العاطفة وسلطان الاستضعاف أهل الحزم والألباب من عقلاء الرجال، ويخترقن بالعواطف الرقيقة أمنع الحصون!:

- «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن».

فهو مدح للعاطفة الرقيقة التى تذهب بحزم ذوى العقول والألباب.. ويابؤس وشقاء المرأة التى حرمت من شرف امتلاك هذا السلاح الذى فطر الله النساء على تقلده والتزين به فى هذه الحياة!.. بل - وأيضًا - يا بؤس أهل الحزم والعقلانية - من الرجال - الذين حرموا - فى هذه الحياة - من الهزيمة أمام هذا السلاح - سلاح العاطفة والاستضعاف!..

وإذا كان هذا هو المعنى المناسب واللائق - بالقائل وبالمخاطب وبالمناسبة -

وأيضًا المحـبب لكل النســاء والرجال مـعًا - الذى قصـدت إليه ألفـاظ «نقص العقل» فى الحديث النبوى الشريف. . فإن المراد «بنقص الدين» - هو الآخر - وصف الواقع غير المذموم - بل إنه الواقع المحمود والممدوح!-. .

فعندمـا سألت النسوة رسـول الله ﷺ عن المقصود من نقـصهن فى الدين، تحـدث عن اختـصاصـهن «برخص» فى العـبـادات تزيد على «الرخص» التى يشاركن فيها الرجال. . فالنساء يشاركن الرجال فى كل «الرخص» التى رخّص فـيهـا الشـارع - من إفطار الصائـم فى المرض والسفـر. . إلى قـصر الصـلاة وجمعها فى السفـر. . إلى إباحة المحرمات عند الضرورات. . إلخ. . إلخ. - ثم يزدن على الرجال فى «رخص» خـاصة بالإناث - من مثل سقـوط فرائض الصلاة والصيام عن الحُيَّض والنّفّساء. . وإفطار المرضع، عند الحاجة، فى شهر رمضان. . إلخ. . إلخ. .

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، يحب أن تُؤتَى رخـصه كما يحب أن تُؤتَى عزائمه، فإن التزام النساء بهذه «الرخص» الشرعـية هو الواجب المطلوب والمحمود، وفيه لهن الأجر والثـواب.. ولا يمكن أن يكون بالأمر المرذول والمذموم.. ووصف واقـعه - فى هذا الحديث النبوى - مثله كمثل وصف الحديث لغلبة العـاطفة الرقيقة الفياضة على العقـلانية الجامـدة، عند النساء، هو وصف لواقع مـحمـود.. ولا يمكن أن يكون ذمًا للنساء، ينتقص من أهلية المرأة ومساواتها للرجال، بأى حال من الأحوال.

إن العـقل ملكة من الملكات التى أنعم الله بهـا على الإنسـان، وليس هناك إنسان - رجلاً كان أو امرأة - يتساوى مع الآخر مـساواة كمية ودقيقة فى ملكة العقل ونعـمته. . ففى ذلك يتـفاوت الناس ويختلفون. . بل إن عـقل الإنسان الواحد وضبطه - ذكرًا كان أو أنثى - يتفاوت، زيادة ونقصًا بمرور الزمن، وبما يكتسب من المعارف والعلوم والخـبرات. . وليست هناك جبلة ولا طبيـعة تفرق بين الرجال والنساء فى هذا الموضوع. .

وإذا كـان العـقل - فى الإسـلام - هو مناط التـكليف، فـإن المسـاواة بين النسـاء

والرجال فى التكليف والحساب والجزاء شاهدة على أن التفسيرات المغلوطة لهذا الحديث النبوى الشريف، هى تفسيرات ناقضة لمنطق الإسلام فى المساواة بين النساء والرجال فى التكليف.. ولو كان لهذه التفسيرات المغلوطة نصيب من الصحة لنقصت تكاليف الإسلام للنساء عن تكليفاته للرجال، ولكانت تكاليفهن فى الصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة وغيرها على النصف من تكاليف الرجال!..

ولكنها «الرخص»، التى يُؤجر عليها الملتزمون بها والملتزمات، كما يُؤجرون جميعًا عندما ينهضون بعزائم التكاليف.. إن النقص المذموم - فى أى أمر من الأمور- هو الذى يمكن إزالته وجبره وتغييره، وإذا تغير وانجبر كان محمودًا.. ولو كانت «الرخص» التى شرعت للنساء - بسقوط الصلاة والصيام للحائض والنفساء - مثلاً- نقصًا مذمومًا، لكان صيامهن وصلاتهن وهن حُيّض ونفساء أمرًا مقبولاً ومحمودًا ومأجورًا.. لكن الحال ليس كذلك، بل إنه على العكس من ذلك.

وأخيرًا، فهل يعقل عاقل.. وهل يجوز فى أى منطق، أن يعهد الإسلام، وتعهد الفطرة الإلهية بأهم الصناعات الإنسانية والاجتماعية - صناعة الإنسان، ورعاية الأسرة، وصياغة مستقبل الأمة - إلى ناقصات العقل والدين، بهذا المعنى السلبى، الذى ظلم به غلاة الإسلاميين وغلاة العلمانيين الإسلام، ورسوله الكريم، الذى حرر المرأة تحريره للرجل، عندما بعثه الله بالحياة والإحياء لمطلق الإنسان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فوضع بهذا الإحياء، عن الناس - كل الناس - ما كانوا قد حُمِّلوا من الآصار والأغلال ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إنها تفسيرات مغلوطة، وساقطة، حاول بها أسرى العادات والتقاليد إضفاء

الشرعية الدينية على هذه العادات والتقاليد التى لا علاقة لها بالإسلام.. والتى يبرأ منها هذا الحديث النبوى الشريف..

وإذا كان لنا - فى ختام إزالة هذه الشبهة - أن نزكى المنطق الإسلامى الذى صوبنا به معنى الحديث النبوى الشريف، وخاصة بالنسبة للذين لا يطمئنون إلى المنطق إلا إذا دعمته وزكته «النصوص»، فإننا نذكر بكلمات إمام السلفية ابن القيم، التى تقول:

«إن المرأة العدل كالرجل فى الصدق والأمانة والديانة..»(٢٤).

وبكلمات الإمام محمد عبده، التى تقول:

«إن حقوق الرجل والمرأة متبادلة، وإنهما أكفاء.. وهما متماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل، أى أن كلاً منهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويُسَرُّ به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه..»(٢٥).

وبكلمات الشيخ محمود شلتوت، التى تقول:

«لقد قرر الإسلام الفطرة التى خلقت عليها المرأة.. فطرة الإنسانية ذات العقل والإدراك والفهم.. فهى ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل، مسئولة عن نفسها، وعن عبادتها، وعن بيتها، وعن جماعتها.. وهى لا تقل فى مطلق المسئولية عن مسئولية أخيها الرجل، وإن منزلتها فى المثوبة والعقوبة عند الله معقودة بما يكون منها من طاعة أو مخالفة، وطاعة الرجل لا تنفعها وهى طالحة منحرفة، ومعصيته لا تضرها، وهى صالحة مستقيمة ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وليقف المتأمل عند هذا التعبير الإلهى «بعضكم من بعض»، ليعرف كيف سما القرآن بالمرأة حتى جعلها بعضًا من الرجل، وكيف حد من طغيان الرجل فجعله

بعضًا من المرأة. وليس فى الإمكان ما يُؤدّى به معنى المساواة أوضح ولا أسهل من هذه الكلمة التى تفيض بها طبيعة الرجل والمرأة، والتى تتجلى فى حياتهما المشتركة، دون تفاضل وسلطان ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[النساء: ٣٢]..

وإذا كانت المرأة مسئولة، مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها، فهى فى نظر الإسلام أيضًا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والإرشاد إلى الفضائل، والتحذير من الرذائل. وقد صرح القرآن بمسئوليتها فى ذلك الجانب، وقرن بينها وبين أخيها الرجل فى تلك المسئولية، كما قرن بينها وبينه فى مسئولية الانحراف عن واجب الإيمان والإخلاص لله وللمسلمين ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨]..

فليس من الإسلام أن تُلقى المرأة حظها من تلك المسئولية - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى أكبر مسئولية فى نظر الإسلام - على الرجل وحده، بحجة أنه أقدر منها عليها، أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب، فللرجل دائرته، وللمرأة دائرتها، والحياة لا تستقيم إلا بتكاتف النوعين فيما ينهض بأمتهما، فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما انحرفت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم..

والإسلام - [فوق ذلك] - لم يقف بالمرأة عند حد اشتراكها مع أخيها الرجل فى المسئوليات - جميعها خاصها وعامها - بل رفع من شأنها، وقرر - تلقاء تحملها هذه المسئوليات - احترام رأيها فيما تبدو وجاهته، شأنه فى رأى الرجل تمامًا سواء بسواء.

وإذا كان الإسلام جاء باختيار آراء بعض الرجال، فقد جاء أيضًا باختيار رأى بعض النساء.

وفى سورة المجادلة، احترم الإسلام رأى المرأة، وجعلها مجادلة ومحاورة للرسول، وجمعها وإياه فى خطاب واحد ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] وقرر رأيها، وجعله تشريعًا عامًا خالدًا.. فكانت سورة المجادلة أثرًا من آثار الفكر النسائى، وصفحة إلهية خالدة نلمح فيها على مر الدهور صورة احترام الإسلام لرأى المرأة، فالإسلام لا يرى المرأة مجرد زهرة، ينعم الرجل بشم رائحتها، وإنما هى مخلوق عاقل مفكر، له رأى، وللرأى قيمته ووزنه.

وليس هناك فارق دينى بين المرأة والرجل فى التكليف وأهليته، سوى أن التكليف يلحقها قبل أن يلحق الرجل، وذلك لوصولها - بطبيعتها - إلى مناط التكليف، وهو البلوغ، قبل أن يصل إليه الرجل»![٢٦]

* * *

هكذا تضافرت الحجج المنطقية مع نصوص الاجتهاد الإسلامى على إزالة شبهة الانتقاص من أهلية المرأة، بدعوى أن النساء ناقصات عقل ودين..

وهكذا وضحت المعانى والمقاصد الحقة لحديث رسول الله ﷺ الذى اتخذت منه التفسيرات المغلوطة «غطاء شرعيّا» للعادات والتقاليد الراكدة، تلك التى حملها البعض - من غلاة الإسلاميين - على الإسلام، زورًا وبهتانًا.. والتى حسبها غلاة العلمانيين دينًا إلهيّا، فدعوا - لذلك - إلى تحرير المرأة من هذا الإسلام!.

* * *

لقد صدق الله العظيم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

إننا نلح منذ سنوات طوال - وقبلنا ومعنا الكثيرون من علماء الإسلام ومفكريه - على أن هذا الدين الحنيف إنما يمثل ثورة كبرى لتحرير المرأة، لكن الخلاف بيننا وبين الغرب والمتغربين هو حول «نموذج» هذا التحرير.. فهم

يريدون المرأة «ندًا مساويًا للرجل». . ونحن - مع الإسـلام - نريد لها «مساواة الشقين المتكاملـين، لا الندين المتماثلين». . وذلك، لتـتحرر المرأة، مع بقـائها أنثى، ومع بقاء الرجل رجلاً، كى يثمر هذا التـمايز الفطرى بقاء وتجدد القبول والرغبة، والجاذبية، والسعادة بينهما - سعادة النوع الإنسانى -. .

ونلح على أن هذا «التشابه. . والتمايز» بين النساء والرجال، هو الذى أشار إليه القرآن الكريم عندما قرن المساواة بالتمايز، فقالت آياته المحكمات: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

نلح على ذلك المنهـاج فى التحرير الإسـلامى للمرأة. . ولقـد شاءت إرادة الله، سـبحـانه وتعالى، أن يشـهد شـاهد من أهلهـا على صدق هذا المنهـاج الإسلامى، فـتنشر صـحيفـة [الأهرام] تقريرًا علمـيًا عن نتـائج دراسة علمـية استغرقت أبحـاثها عشرين عامًا، وقام بهـا فريق من علماء النفس فى الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا بها تكشف عن مصـداقية حقائق هذا المنهاج القرآنى - فى تشابه الرجال والنساء فى اثنتـين وثلاثين صفة. . وتميّز المرأة عن الرجل فى اثنتين وثلاثين صـفة. . وتميـز الرجل عن المرأة - كـذلك - فى اثنتين وثلاثين صفة - فـهناك التشابه ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١]، ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وهناك التمايز الفطرى ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾. . فهما يتـشابهان فى نصف الصفات، ويتمايزان فى نصفها الآخر. .

فالنمـوذج الأمثل لتحررهمـا معًا هو «مسـاواة الشقين المتكاملين، لا الندين المتمـاثلين». . ولذلك، آثرت أن أقدم للقارئ خـلاصة هذه الدراسة العلمـية، كما نشرتها [الأهرام] - تحت عنوان [اخـتلاف صفات الرجل عن المرأة لمصلحة كليهما] - ونصها:

«فى دراسة قام بها علماء النفس فى الولايات المتحدة الأمريكية، على مدى

عشـرين عامًـا، تم حصر عـدد الصفات الموجـودة فى كل من الرجل والمرأة، ووجد أن هناك ٣٢ صفة مشتركة فى كل منهما، وأن ٣٢ صفة أخرى موجودة فى الرجل، و٣٢ صفة أخرى موجودة عند المرأة، بدرجات مختلفة فى الشدة، ومن هنا جاءت الفروق بين صفات الرجولة والأنوثة.

وتوصل العلماء من خلال هذه التجـارب إلى أن وجود نصف عدد الصفات مشتركـة فى كل من الرجل والمرأة يعمل على وجود الأسس المشتركـة بينهما، لتسهيل التفاهم والتعامل مع بعضهما البعض..

أما وجود عدد آخر من الصفات متسـاويًا بينهما ومختلفًا عند كل منهما فى الدرجة والشهرة فمعناه تحقيق التكامل بينهما.

كمـا توصلوا إلى أنه كى يعـيش كلٌّ من الرجل والمرأة فى انسجـام وتناغم تام، لا بد أن يكون لدى كل منهـما الصفـات السيكولوچية المخـتلفة، فمـثلاً الرجل العصبى الحـاد المزاج لا يمكنه أن يتعايش مع امرأة عصبـية حادة المزاج، والرجل البخيل عليه ألا يتـزوج امرأة بخيلة، والرجل المنطوى، الذى لا يحب الناس، لا يجوز أن يتزوج من امرأة منطوية ولا تحب الناس. وهكذا.

وكان من نتائج هذه الدراسـات الوصول إلى نتيجة مـهمة، ألا وهى أن كل إنسان يجب ألا يعـيش مع إنسان مـتماثل مـعه فى الصـفات وكل شىء، أى صورة طبق الأصل من صـفاته الشخـصية، ومن هنا جـاءت الصفات المميـزة للرجولة متمـثلة فى: قوة العضلات وخشونتها، والشـهامة، والقوة فى الحق، والشجاعـة فى موضع الشجاعة، والنخـوة، والاهتمام بمساندة المرأة وحمـايتها والدفاع عنها وجلب السـعادة لها. كما تتضمن أيضًـا صفات الحب، والعطاء، والحنان، والكرم، والصدق فى المشاعر وفى القول، وحسن التصرف.. إلخ..

أما عن صـفات الأنوثة، فـهى تتمـيز بالدفء، والنعـومة، والحـساسـية، والحنان، والتضـحيـة، والعطاء، وحب الخير، والتـفانى فى خـدمة أولادها، والحكمـة، والحرص علـى تماسك الأسر وترابطهـا، وحب المديح، والذكـاء، وحسن التصرف، وغير ذلك من الصفات..

ولذلك، فمن المهم أن يكون لدى كل من الرجل والمرأة دراية كافية بطبيعة الرجل وطبيعة المرأة، وبذلك يسهل على كل منهما التعامل مع الطرف الآخر فى ضوء خصائص كل منهما. . فعندما يعرف الرجل أن المرأة مخلوق مشحون بالمشاعر والأحاسيس والعواطف، فإنه يستطيع أن يتعامل معها على هذا الأساس. وبالمثل، إذا عرفت المرأة طبيعة الرجل، فإن هذا سيساعدها أيضًا على التعامل معه. . »(٢٧).

تلك هى شهادة الدراسة العلمية، التى قام بها فريق من علماء النفس - فى الولايات المتحدة الأمريكية - والتى استغرق البحث فيها عشرين عامًا. . والتى تصدق على صدق المنهاج القرآنى فى علاقة النساء بالرجال: الاشتراك والتماثل فى العديد من الصفات. . والتمايز فى العديد من الصفات، لتكون بينهما «المساواة» و«التمايز» فى ذات الوقت. .

ومرة أخرى - لا أخيرة - صدق الله العظيم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

* * *

الشبهة الرابعة: ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة

إن «الولاية» - بكسر الواو وفتحها - هى «النُّصْرَة». . وكل من ولى أمر الآخر فهو وليه(٢٨) ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [الجمعة: ٦]، ﴿مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وإذا كانت «النُّصْرَة» هى معنى «الولاية»، فلا مجال للخلاف على أن للمرأة نصرة وسلطانًا، أى ولاية، فى كثير من ميادين الحياة.

فالمسلمون مجمعون على أن الإسلام قد سبق كل الشرائع الوضعية والحضارات الإنسانية عندما أعطى للمرأة ذمة مالية خاصة، وولاية وسلطانًا على أموالها، تملكًا وتنمية واستثمارًا وإنفاقًا، مثلها فى ذلك مثل الرجل سواء بسواء.. والولاية المالية والاقتصادية من أفعل الولايات والسلطات فى المجتمعات الإنسانية، على مر تاريخ تلك المجتمعات.. وفى استثمار الأموال ولاية وسلطان يتجاوز الإطار الخاص إلى النطاق العام..

والمسلمون مجمعون على أن للمرأة ولاية على نفسها، تؤسس لها حرية وسلطانًا فى شئون زواجها، عندما يتقدم إليها الراغبون فى الاقتران بها، وسلطانها فى هذا يعلو سلطان وليها الخاص، والولى العام لأمر أمة الإسلام..

والمسلمون مجمعون على أن للمرأة ولاية ورعاية وسلطانًا فى بيت زوجها، وفى تربية أبنائهما.. وهى ولاية نص على تميزها بها وفيها حديث رسول الله ﷺ الذى فصّل أنواع وميادين الولايات: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راعٍ عليهم وهو مسئول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته**» - رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد -.

لكن قطاعًا من الفقهاء قد وقف بالولايات المباحة والمفتوحة ميادينها أمام المرأة عند «**الولايات الخاصة**»، واختاروا حجب المرأة عن «**الولايات العامة**»، التى تلى فيها أمر غيرها من الناس، خارج الأسرة وشئونها..

ونحن نعتقد أن ما سبق أن قدمناه - فى القسم الأول من هذه الدراسة - من وقائع تطبيقات وممارسات مجتمع النبوة والخلافة الراشدة لمشاركات النساء فى العمل العام - بدءًا من الشورى فى الأمور العامة.. والمشاركة فى تأسيس الدولة الإسلامية الأولى.. وحتى ولاية الحسبة والأسواق والتجارات، التى ولاّها عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، «للشِّفاء بنت عبدالله بن عبد شمس [٢٠ هـ - ٦٤١ م].. وانتهاء بالقتال فى ميادين الوغى.. وأيضًا ما أوردناه

من الآيات القرآنية الدالة على أن الموالاة والتناصر بين الرجال والنساء فى العمل العام - سائر ميادين العمل العام - وهى التى تناولها القرآن الكريم تحت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧١].

نعتقد أن ما سبق أن أوردناه حول هذه القضية - قضية ولاية المرأة ومشاركتها مع الرجل فى ولايات العمل العام - كافٍ، ووافٍ فى الرد على الذين يمارون فى ولاية المرأة للعمل العام..

أما الإضافة التى نقدمها فى هذا القسم من هذه الدراسة - قسم إزالة الشبهات - فهى خاصة بمناقشة الفهم المغلوط للحديث النبوى الشريف: «**ما أفلح قوم يلى أمرهم امرأة**».. إذ هو الحديث الذى يستظل بظله كل الذين يحرّمون مشاركة المرأة فى الولايات العامة والعمل العام..

ولقد وردت لهذا الحديث روايات متعددة، منها: «**لن يفلح قوم تملكهم امرأة**».. و«**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**».. و«**لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة**» - رواها: البخارى والترمذى والنسائى والإمام أحمد -..

وإذا كانت صحة الحديث - من حيث «**الرواية**» - هى حقيقة لا شبهة فيها.. فإن إغفال مناسبة ورود هذا الحديث يجعل «**الدراية**» بمعناه الحقيقى مخالفة للاستدلال به على تحريم ولاية المرأة للعمل العام..

ذلك أن ملابسات قول الرسول ﷺ لهذا الحديث تقول: إن نفرًا قد قدموا من بلاد فارس إلى المدينة المنورة، فسألهم رسول الله ﷺ:

- «**من يلى أمر فارس**»؟

- قال [أحدهم]: امرأة.

- فقال صلى الله عليه وسلم: «**ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**».

فملابسات ورود الحديث تجعله نبوءة سياسية بزوال ملك فارس - وهى نبوءة نبوية قد تحققت بعد ذلك بسنوات - أكثر منه تشريعًا عامًا يحرم ولاية المرأة للعمل السياسى العام..

ثم إن هذه الملابسات تجعل معنى هذا الحديث خاصًا «بالولاية العامة»، أى رئاسة الدولة وقيادة الأمة.. فالمقام كان مقام الحديث عن امرأة تولت عرش الكسروية الفارسية، التى كانت تمثل إحدى القوتين العظميين فى النظام العالمى لذلك التاريخ.. ولا خلاف بين جمهور الفقهاء - باستثناء طائفة من الخوارج - على اشتراط «الذكورة» فيمن يلى «الإمامة العظمى» والخلافة العامة لدار الإسلام وأمة الإسلام.. أما ما عدا هذا المنصب - بما فى ذلك ولايات الأقاليم والأقطار والدول القومية والقطرية والوطنية - فإنها لا تدخل فى ولاية الإمامة العظمى لدار الإسلام وأمته.. لأنها ولايات خاصة وجزئية، يفرض واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر المشاركة فى حمل أماناتها على الرجال والنساء دون تفريق.

فالشبهة إنما جاءت من خلط مثل هذه الولايات - الجزئية والخاصة - بالإمامة العظمى والولاية العامة لدار الإسلام وأمته - وهى الولاية التى اشترط جمهور الفقهاء «الذكورة» فيمن يليها -.. ولا حديث للفقه المعاصر عن ولاية المرأة لهذه الإمامة العظمى؛ لأن هذه الولاية قد غابت عن متناول الرجال، فضلاً عن النساء، منذ سقوط الخلافة العثمانية [١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م] وحتى الآن!..

وأمر آخر لا بد من الإشارة إليه، ونحن نزيل هذه الشبهة عن ولاية المرأة للعمل العام، وهو تغير مفهوم الولاية العامة فى عصرنا الحديث، وذلك بانتقاله من «سلطان الفرد» إلى «سلطان المؤسسة»، التى يشترك فيها جمع من ذوى السلطان والاختصاص.

لقد تحوّل «القضاء» من قضاء القاضى الفرد إلى قضاء مُؤَسَّسى، يشترك فى الحكم فيه عدد من القضاة.. فإذا شاركت المرأة فى «هيئة المحكمة» فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة للقضاء، بالمعنى الذى كان واردًا فى فقه القدماء؛ لأن الولاية

هنا - الآن - لمؤسسة وجمع، وليست لفرد من الأفراد، رجلاً كان أو امرأة.. بل لقد أصبحت مؤسسة التشريع والتقنين مشاركة فى ولاية القضاء، بتشريعها القوانين التى ينفذها القضاة.. فلم يعد قاضى اليوم ذلك الذى يجتهد فى استنباط الحكم واستخلاص القانون، وإنما أصبح «المنفذ» للقانون الذى صاغته وقننته مؤسسة، تمثل الاجتهاد الجماعى والمؤسسى - لا الفردى - فى صياغة القانون..

وكذلك الحال مع تحول التشريع والتقنين من اجتهاد الفرد إلى اجتهاد مؤسسات الصياغة والتشريع والتقنين.. فإذا شاركت المرأة فى هذه المؤسسات، فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة لسلطة التشريع بالمعنى التاريخى والقديم لولاية التشريع..

وتحولت سلطات صنع «القرارات التنفيذية» - فى النظم الشورية والديموقراطية - من سلطة الفرد إلى سلطان المؤسسات المشاركة فى الإعداد لصناعة القرار.. فإذا شاركت المرأة فى هذه المؤسسات، فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة لهذه السلطات والولايات، بالمعنى الذى كان فى ذهن الفقهاء الذين عرضوا لهذه القضية فى ظل «فردية» الولايات، وقبل تعقد النظم الحديثة والمعاصرة، وتميزها بالمؤسسية والمؤسسات..

لقد تحدث القرآن الكريم عن ملكة سبأ - وهى امرأة - فأثنى عليها وعلى ولايتها للولاية العامة؛ لأنها كانت تحكم بالمؤسسة الشورية - لا بالولاية الفردية - ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].. وذم القرآن الكريم فرعون مصر - وهو رجل - لأنه قد انفرد بسلطان الولاية العامة وسلطة صنع القرار ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].. فلم تكن العبرة بالذكورة أو الأنوثة فى الولاية العامة - حتى الولاية العامة - وإنما كانت العبرة بكون هذه الولاية «مؤسسة شورية» أم «سلطانًا فرديًا مطلقًا»؟..

* * *

أما ولاية المرأة للقضاء. . والتي يثيرها البعض كشبهة على اكتمال أهلية المرأة فى الرؤية الإسلامية. . فإن إزالة هذه الشبهة يمكن أن تتحقق بالتنبيه على عدد من النقاط:

أولها: أن ما لدينا فى تراثنا حول قضية ولاية المرأة لمنصب القضاء هو «**فكر إسلامى**» و«**اجتهادات فقهية**» أثمرت «**أحكامًا فقهية**».. وليس «**دينًا**» وضعه الله، سبحانه وتعالى، وأوحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام. فالقرآن الكريم لم يعرض لهذه القضية، كما لم تعرض لها السنة النبوية؛ لأن القضية لم تكن مطروحة على الحياة الاجتماعية والواقع العملى لمجتمع صدر الإسلام، فليس لدينا فيها نصوص دينية أصلاً، ومن ثم فإنها من مواطن ومسائل الاجتهاد. .

ثم إن هذه القضية هى من «مسائل المعاملات»، وليست من «شعائر العبادات».. وإذا كانت «العبادات توقيفية»، تُلْتَمس من النص، وتقف عند الوارد فيه، فإن «المعاملات» تحكمها المقاصد الشرعية، وتحقيق المصالح الشرعية المعتبرة.. والموازنة بين المصالح والمفاسد فيها.. ويكفى فى «المعاملات» أن لا تخالف ما ورد فى النص، لا أن يكون قد ورد فيها نص..

ومعلوم أن «الأحكام الفقهية»، التى هى اجتهادات الفقهاء، مثلها كمثل الفتاوى، تتغير بتغير الزمان والمكان والمصالح الشرعية المعتبرة. .

فتولى المرأة للقضاء قضية فقهية، لم ولن يُغْلَق فيها باب الاجتهاد الفقهى الإسلامى. .

وثانيها: أن اجتهادات الفقهاء القدماء حول تولى المرأة لمنصب القضاء هى اجتهادات متعددة ومختلفة باختلاف وتعدد مذاهبهم واجتهاداتهم فى هذه المسألة، ولقد امتد زمن اختلافهم فيها جيلاً بعد جيل. . ومن ثم فليس هناك «إجماع فقهى» فى هذه المسألة حتى يكون هناك إلزام للخلف بإجماع السلف - وذلك فضلاً عن أن إلزام الخلف بإجماع السلف هو أمر ليس محل إجماع. . ناهيكم عن أن قضية إمكانية تحقق الإجماع - أى اجتماع سائر فقهاء عصر ما

على مسألة من مسائل فقه الفروع - كهذه المسألة - هو مما لا يتُصور حدوثه - حتى لقد أنكر كثير من الفقهاء إمكانية حدوث الإجماع فى مثل هذه الفروع أصلاً. . ومن هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] الذى قال: «**من ادعى الإجماع فقد كذب!**»..

فباب الاجتهاد الجديد والمعاصر والمستقبلى فى هذه المسألة - وغيرها من فقه الفروع - مفتوح. . لأنها ليست من المعلوم من الدين بالضرورة، أى المسائل التى لم ولن تختلف فيها مذاهب الأمة ولا الفطَر السليمة لعلماء وعقلاء الإسلام. .

وثالثها: أن جريان «العادة»، فى الأعصر الإسلامية السابقة، على عدم ولاية المرأة لمنصب القضاء لا يعنى «تحريم» الدين لولايتها هذا المنصب، فدعوة المرأة للقتال، وانخراطها فى معاركه هو مما لم تجرِ به «العادة» فى الأعصر الإسلامية السابقة، ولم يعن ذلك «تحريم» اشتراك المرأة فى الحرب والجهاد القتالى عند الحاجة والاستطاعة وتعيُّن فريضة الجهاد القتالى على كل مسلم ومسلمة. . فهى قد مارست هذا القتال، وشاركت فى معاركه على عصر النبوة والخلافة الراشدة. . من غزوة أُحد [٣ هـ - ٦٢٥ م] إلى موقعة اليمامة [١٢ هـ - ٦٣٣م] ضد ردة مسيلمة الكذاب. . فـ «العادة» مرتبطة «بالحاجات» المتغيرة بتغير المصالح والظروف والملابسات، وليست هى مصدر الحلال والحرام. .

ورابعها: أن علة اختلاف الفقهاء حول جواز تولى المرأة لمنصب القضاء، فى غيبة النصوص الدينية - القرآنية والنبوية - التى تتناول هذه القضية، كانت اختلاف هؤلاء الفقهاء فى الحكم الذى «قاسوا» عليه توليها للقضاء. . فالذين «قاسوا» القضاء على «الإمامة العظمى» - التى هى الخلافة العامة على أمة الإسلام ودار الإسلام - مثل فقهاء المذهب الشافعى - قد منعوا توليها للقضاء، لاتفاق جمهور الفقهاء - باستثناء بعض الخوارج - على جعل «الذكورة» شرطًا من شروط الخليفة والإمام، فاشترطوا هذا الشرط - «الذكورة» - فى القاضى، قياسًا على الخلافة والإمامة العظمى. .

وظل هذا «القياس» قياسًا على «حكم فقهى» - ليس عليه إجماع - وليس «قياسًا» على نص قطعى الدلالة والثبوت. .

والذين أجازوا توليها القضاء، فيما عدا قضاء «القصاص والحدود» - مثل أبى حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧ م] وفقهاء مذهبه - قالوا بذلك «لقياسهم» القضاء على «الشهادة»، فأجازوا قضاءها فيما أجازوا شهادتها فيه، أى فيما عدا «القصاص والحدود».

فالقياس هنا - أيضًا - على «حكم فقهى» وليس على نص قطعى الدلالة والثبوت. . وهذا الحكم الفقهى المقيس عليه - وهو شهادة المرأة فى القصاص والحدود. . أى فى الدماء - ليس موضع إجماع. . فلقد سبق ذكرنا - فى رد شبهة أن شهادة المرأة هى على النصف من شهادة الرجل - إجازة بعض الفقهاء لشهادتها فى الدماء، وخاصة إذا كانت شهادتها فيها هى مصدر البينة الحافظة لحدود الله وحقوق الأولياء.

أما الفقهاء الذين أجازوا قضاء المرأة فى كل القضايا - مثل الإمام محمد بن جرير الطبرى [٢٢٤ - ٣١٠ هـ ٨٣٩ - ٩٢٣ م] - فقد حكموا بذلك «لقياسهم» القضاء على «الفتيا». . فالمسلمون قد أجمعوا على جواز تولى المرأة منصب الإفتاء الدينى - أى التبليغ عن رسول الله ﷺ - وهو من أخطر المناصب الدينية - وفى توليها للإفتاء سنة عملية مارستها نساء كثيرات على عهد النبوة - من أمهات المؤمنين وغيرهن - فقاس هؤلاء الفقهاء قضاء المرأة على فتياها، وحكموا بجواز توليها كل أنواع القضاء، لممارستها الإفتاء فى مختلف الأحكام. .

وهم قد عللوا ذلك بتقريرهم أن الجوهرى والثابت فى شروط القاضى إنما يحكمه ويحدده الهدف والقصد من القضاء، وهو: ضمان وقوع الحكم بالعدل بين المتقاضين. . وبعبارة أبى الوليد بن رشد - الحفيد - [٥٢٠ - ٥٩٥هـ ١١٢٦ - ١١٩٨ م]: **فإن «من رأى حكم المرأة نافذًا فى كل شىء قال: إن الأصل**

هو أن كل من يأتى منه الفصل بين الناس فحكمه جائز، إلا ما خصصه الإجماع من الإمامة الكبرى»[٢٩].

وخامسها: أن «الذكورة» لم تكن الشرط الوحيد الذى اختلف حوله الفقهاء من بين شروط من يتولى القضاء.. فهم - مثلاً - اختلفوا فى شرط «الاجتهاد»، فأوجب الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠ م] وبعض المالكية أن يكون القاضى مجتهدًا.. على حين أسقط أبو حنيفة هذا الشرط، بل وأجاز قضاء «العامى»، أى الأمى فى القراءة والكتابة - وهو غير الجاهل - ووافقه بعض فقهاء المالكية، قياسًا على أمية النبى ﷺ[٣٠]..

واختلفوا - كذلك - فى شرط كون القاضى «عاملاً»، وليس مجرد «عالم» بأصول الشرع الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.. فاشترطه الشافعى، وتجاوز عنه غيره من الفقهاء[٣١].

كما اشترط أبو حنيفة، دون سواه، أن يكون القاضى عربيًا من قريش[٣٢].

فشرط «الذكورة» فى القاضى، هو واحد من الشروط التى اختلف فيها الفقهاء، حيث اشترطه البعض فى بعض القضايا دون البعض الآخر، وليس فيه إجماع.. كما أنه ليس فيه نصوص دينية تمنع أو تقيد اجتهادات المجتهدين..

وسادسها: أن منصب القضاء وولايته قد أصابها هى الأخرى ما أصاب الولايات السياسية، والتشريعية، والتنفيذية من تطور انتقل بها من «الولاية الفردية» إلى ولاية «المؤسسة»، فلم تعد «ولاية رجل» أو «ولاية امرأة»، وإنما أصبح «الرجل» جزءًا من المؤسسة والمجموع، وأصبحت «المرأة» جزءًا من المؤسسة والمجموع.. ومن ثم أصبحت القضية فى «كيف جديد» يحتاج إلى «تكييف جديد»، يقدمه الاجتهاد الجديد لهذا الطور المؤسسى الجديد الذى انتقلت إليه كل هذه الولايات.. ومنها ولاية المرأة للقضاء..

* * *

الشبهة الخامسة: الرجال قوامون على النساء

فى المدينة المنورة نزلت آيات «القوامة» - قوامة الرجال على النساء - وفى ظل المفهوم الصحيح لهذه القوامة تحررت المرأة المسلمة من تقاليد الجاهلية الأولى، وشاركت الرجال فى العمل العام - مختلف ميادين العمل العام - على النحو الذى أشرنا إلى نماذجه فى القسم الأول من هذه الدراسة - فكان مفهوم القوامة حاضراً طوال عصر ذلك التحرير.. ولم يكن عائقًا بين المرأة وبين هذا التحرير..

ولحكمة إلهية قرن القرآن الكريم - فى آيات القوامة - بين مساواة النساء للرجال، وبين درجة القوامة التى للرجال على النساء، بل وقدم هذه المساواة على تلك الدرجة، عاطفًا الثانية على الأولى بـ «واو» العطف، دلالة على المعية والاقتران.. أى أن المساواة والقوامة صنوان مقترنان، يرتبط كل منهما بالآخر، وليسا نقيضين، حتى يتوهم واهم أن القوامة نقيض ينتقص من المساواة.

لحكمة إلهية جاء ذلك فى القرآن الكريم، عندما قال الله، سبحانه وتعالى، فى سياق الحديث عن شئون الأسرة وأحكامها: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وفى سورة النساء جاء البيان لهذه الدرجة التى للرجال على النساء - فى سياق الحديث عن شئون الأسرة، وتوزيع العمل والأنصبة بين طرفى الميثاق الغليظ الذى قامت به الأسرة - الرجل والمرأة - فإذا بآية القوامة تأتى تالية للآيات التى تتحدث عن توزيع الأنصبة والحظوظ والحقوق بين النساء وبين الرجال، دونما غبن لطرف، أو تمييز يخل بمبدأ المساواة، وإنما وفق الجهد والكسب الذى يحصّل به كل طرف ما يستحق من ثمرات.. ﴿**وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا**

اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٢ - ٣٤].

ولقد فقه حبر الأمة، عبد الله بن عباس [٣ ق هـ- ٦٨ هـ- ٦١٩- ٦٨٧م] - الذى دعا له الرسول ﷺ ربه أن يفقهه فى الدين - فهم الحكمة الإلهية فى اقتران المساواة بالقوامة، فقال - فى تفسيره لقول الله، سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ تلك العبارة الإنسانية، والحكمة الجامعة: «**إننى لأتزين لامرأتى، كما تتزين لى، لهذه الآية**»!.

وفهم المسلمون - قبل عصر التراجع الحضارى، الذى أعاد بعضًا من التقاليد الجاهلية الراكدة إلى حياة المرأة المسلمة مرة أخرى - أن درجة القوامة هى رعاية ربّان الأسرة - الرجل - لسفينتها، وأن هذه الرعاية هى مسئولية وعطاء.. وليست ديكتاتورية ولا استبدادًا ينقص أو ينتقص من المساواة التى قرنها القرآن الكريم بهذه القوامة، بل وقدمها عليها..

ولم يكن هذا الفهم الإسلامى لهذه القوامة مجرد تفسيرات أو استنتاجات، وإنما كان فقهًا محكومًا بمنطق القواعد القرآنية الحاكمة لمجتمع الأسرة، وعلاقة الزوج بزوجه.. فكل شئون الأسرة تُدار، وكل قراراتها تُتَّخذ بالشورى، أى بمشاركة كل أعضاء الأسرة فى صنع واتخاذ هذه القرارات؛ لأن هؤلاء الأعضاء مؤمنون بالإسلام، والشورى صفة أصيلة من صفات المؤمنين والمؤمنات ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧ - ٣٩].

فالشورى واحدة من الصفات المميزة للمؤمنين والمؤمنات، فى كل ميادين التدبير وصناعة القرار.. والأسرة هى الميدان التأسيسى والأول فى هذه

الميادين. تجبُ هذه الشورى، ويلزم هذا التشاور فى مجتمع الأسرة - لتتأسس التدابير والقرارات على الرضا، الذى لا سبيل إليه إلا بالمشاركة الشورية فى صنع القرارات.. يستوى فى ذلك الصغير والخطير من هذه التدابير والقرارات.. حتى لقد شاءت الحكمة الإلهية أن ينص القرآن الكريم على تأسيس قرار الرضاعة للأطفال - أى سقاية المستقبل وصناعة الغد - على الرضا الذى تثمره الشورى.. ففى سياق الآيات التى تتحدث عن حدود الله فى شئون الأسرة.. تلك الحدود المؤسسة على منظومة القيم.. والمعروف.. والإحسان.. ونفى الجُناح والحرج. وعدم المضارة والظلم والعدوان.. والدعوة إلى ضبط شئون الأسرة بقيم التزكية والطهر. لا «بترسانة» القوانين الصماء!.. فى هذا السياق ينص القرآن الكريم على أن تكون الشورى هى آلية الأسرة فى صنع كل القرارات ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

هكذا فهم المسلمون معنى القوامة.. فهى مسئولية وتكاليف للرجل، مصاحبة لمساواة النساء بالرجال.. وبعبارة الإمام محمد عبده: «**إنها تفرض على المرأة شيئًا وعلى الرجل أشياء**»..

وكانت السنة النبوية - فى عصر البعثة - البيان النبوى للبلاغ القرآنى فى هذا الموضوع.. فالمعصوم ﷺ الذى حمّله ربه الحمل الثقيل - فى الدين.. والدولة.. والأمة.. والمجتمع - ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥] هو الذى كان فى خدمة أهله - أزواجه - وكانت شوراهن معه وله صفة من

صفات بيت النبوة، فى الخاص والعام من الأمور والتدابير.. ويكفى أن هذه السنة العملية قد تجسدت تحريرًا للمرأة، شاركت فيه الرجال بكل ميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية.. وحتى القتال.. كما كان صلى الله عليه وسلم دائم التأكيد على التوصية بالنساء خيرًا.. فحريتهن حديثة العهد، وهن قريبات من عبودية التقاليد الجاهلية، واستضعافهن يحتاج إلى دوام التوصية بهن والرعاية لهن.. وعنه ﷺ تروى أقرب زوجاته إليه - عائشة رضى الله عنها -: «**إنما النساء شقائق الرجال**» - رواه أبو داود والترمذى والدارمى والإمام أحمد - وعندما سئلت:

- ما كان رسول الله ﷺ يعمل فى بيته؟

- قالت: «**كان بشرًا من البشر، يفلى ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه**». رواه الإمام أحمد.

يفعل ذلك، وهو القَوَّام على الأمة كلها، فى الدين والدولة والدنيا جميعًا!..

وفى خطبته ﷺ بحجة الوداع [١٠ هـ - ٦٣٢ م] - وهى التى كانت إعلانًا عالميًا خالدًا للحقوق والواجبات، الدينية والمدنية - كما صاغها الإسلام - أفرد صلى الله عليه وسلم للوصية بالنساء فقرات خاصة، أكد فيها على التضامن والتناصر بين النساء والرجال فى المساواة والحقوق والواجبات، فقال:

«**ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. ألا إن لكم على نسائكم حقًا ولنسائكم عليكم حقًا.. فاتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلغت!. اللهم فاشهد**»(٣٣).

هكذا فُهمت القوامة فى عصر التنزيل.. فكانت قيادة للرجل فى الأسرة، اقتضتها مؤهلاته ومسئولياته فى البذل والعطاء.. وهى قيادة محكومة بالمساواة

والتناصـر والتكافل بين الزوج وزوجه فى الحـقوق والواجـبات. . ومحـكومة بالشورى الـتى يسهم بهـا الجميع ويشـاركون فى تدبيـر شئـون الأسرة. . هذه الأسرة التى قامت على «الميثاق الغليـظ» - ميثاق الفطرة - والتى تأسست على المودة والرحمة، حتى غدت المرأة فيها السكن والسكينة لزوجها، أفضى بعضهم إلى بعض، هن لباس لكم وأنتم لبـاس لهن، فهى بعض الرجل والرجل بعض منها ﴿بَعْـضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمـران: ١٩٥]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]. .

وإذا كانت القـوامة ضرورة من ضرورات النظـام والتنظيم فى أية وحدة من وحدات التنظيم الاجتماعى ،لأن وجود الـقائد الذى يحسم الاختلاف والخلاف، هو مما لا يقـوم النظام والانتظام إلا به. . فلـقد ربط القـرآن هذه الدرجـة فى الريادة والقـيادة بالمؤهلات وبـالعطاء، وليس بمجرد «الجنـس» فجـاء التعـبيـر القرآنى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ وليس كل رجل قوّامًا على كل امرأة. . لأن إمكانات القوامـة معهـودة فى الجملة والغالب لدى الرجـال، فإذا تخلفت هذه الإمكانات عند واحد من الرجـال، كان الباب مفتوحـًا أمام الزوجة - إذا امتلكت من هذه المقومات أكثر مما لديه - لتـدير دفة الاجتماع الأسرى - على نحو ما هو حادث فى بعض الحالات!. .

هكذا كانت القوامة - فى الفكر والتطبيق - فى عصر صدر الإسلام. . لكن الذى حدث بعـد القرون الأولى، وبعـد الفتـوحات التى أدخلت إلى المجـتمع الإسلامـى شعـوبًا لم يهذب الإسـلام عاداتهـا الجاهليـة، فى النظر إلى المرأة والعلاقة بها، قد أصاب النموذج الإسـلامى بتراجعات وتشوهات أشاعت تلك العادات والتقاليد الجاهلية فى المجتمعات الإسلامية من جديد. .

ويكفى أن نعرف أن كلمة «عَوَان»، التى وصف الرسول ﷺ بها النساء، فى

خطبة حجة الوداع، والتى تعنى - فى [لسان العرب] - «النَّصَف والوسط»(٣٤) - أى الخيار - وتعنى ذات المعنى فى موسوعات مصطلحات الفنون(٣٥).. قد أصبحت تعنى - فى عصر التراجع الحضارى - أن المرأة أسيرة لدى الرجل، وأن النساء أسرى عند الرجال.. وأن القوامة هى لون من «القهر» لأولئك النساء الأسيرات!!.. حتى وجدنا إمامًا عظيمًا مثل ابن القيم، يعبر عن واقع عصره - العصر المملوكى - فيقول هذا الكلام الغريب والعجيب!

«إن السيد قاهر لمملوكه، حاكم عليه، مالك له. والزوج قاهر لزوجته، حاكم عليها، وهى تحت سلطانه وحكمه شبه الأسير»(٣٦)!!

وهو فهم لمعنى القوامة، وعلاقة الزوج بزوجه، يمثل انقلابًا جذريًا على إنجازات الإسلام فى علاقة الأزواج بالزوجات!.. انقلاب العادات والتقاليد الجاهلية التى ارتدت تغالب قيم الإسلام فى تحرير المرأة ومساواة النساء للرجال..

ووجدنا كذلك - فى عصور التقليد والجمود الفقهى - تعريف بعض «الفقهاء» لعقد النكاح، فإذا به: «**عقد تمليك بضع الزوجة**»!!.. وهو انقلاب على المعانى القرآنية السامية لمصطلحات «الميثاق الغليظ» و«المودة.. والرحمة.. والسكن والسكينة.. وإفضاء كل طرف إلى الطرف الآخر، حتى أصبح كل منهما لباسًا له».

هكذا حدث الانقلاب، فى عصور التراجع الحضارى لمسيرة أمة الإسلام..

ولذلك، كان من مقتضيات البعث الحضارى، الحديث والمعاصر، لنموذج الإسلام فى تحرير المرأة وإنصافها، كبديل للنموذج الغربى - الذى اقتحم عالم الإسلام فى ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية لبلادنا - والذى شقيت وتشقى به المرأة السوية فى الغرب ذاته - كان من مقتضيات ذلك إعادة المفاهيم الإسلامية الصحيحة لمعنى قوامة الرجال على النساء.. وهى المهمة التى نهضت بها

الاجتهادات الإسلامية الحديثة والمعاصرة لأعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد . . .

فالإمام محمد عبده، قد وقف أمام آيات القوامة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [النساء: ٣٤] فإذا به يقول:

«هذه كلمة جليلة جدًا، جمعت، على إيجازها، ما لا يُؤَدى بالتفصيل إلا فى سفر كبير، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق، إلا أمرًا واحدًا عبّر عنه بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وقد أحال فى معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس فى معاشراتهن ومعاملاتهن فى أهليهن، وما يجرى عليه عرف الناس هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم.

فهذه الجملة تعطى الرجل ميزانًا يزن به معاملته لزوجه فى جميع الشئون والأحوال، فإذا همّ بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه، ولهذا قال ابن عباس، رضى الله عنهما: إننى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى، لهذه الآية.

وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها، وإنما المراد: أن الحقوق بينهما متبادلة، وأنهما كفئان، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها، وإن لم يكن مثله فى شخصه، فهو مثله فى جنسه، فهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل، أى أن كلاً منهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبداً يستذله ويستخدمه فى مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول فى الحياة المشتركة التى لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه..

هذه الدرجة التى رُفع النساء إليها، لم يرفعهن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده..

لقد خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة، فى العبادات والمعاملات، كما خاطب الرجال، وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهم عليهن، وقرن أسماءهن بأسمائهم فى آيات كثيرة، وبايع النبى ﷺ المؤمنات، كما بايع المؤمنين، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة، كما أمرهم، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن فى الدنيا والآخرة..

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فهو يوجب على المرأة شيئًا وعلى الرجال أشياء، ذلك أن هذه الدرجة درجة الرياسة والقيام على المصالح، المفسرة بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. .

إن الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس؛ لأن المجتمعين لا بد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم فى بعض الأمور، ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يُرجع إلى رأيه فى الخلاف، لئلا يعمل كل ضد الآخر فتفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله، ومن ثم كان هو المُطالب شرعًا بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هى مطالبة بطاعته فى المعروف.

إن المراد بالقيام - «القوامة» - هنا هو الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره، وليس معناه أن يكون المرءوس مقهورًا مسلوب الإرادة لا يعمل عملاً إلا ما يوجهه إليه رئيسه..

إن المرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن..

أما الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم، فإنما يلدون عبيدًا لغيرهم(٣٧)»!!..

وإذا كانت عصور التراجع الحضارى - كما سبق أن أشرنا - قد استبدلت بالمعانى السامية لعقد الزواج - المودة. . والرحمة. . والسكن. . والميثاق الغليظ

- ذلك المعنى الغريب - «عـقد تمليك بُضع الزوجـة»! - وعقد أسر وقـهر! - فلقد أعـاد الاجتهاد الإسـلامى الحديث والمعاصر الاعـتبار إلى المعانى القـرآنية السـاميـة. . وكتب الشـيخ محـمود شلتـوت [١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م] - فى تفـسيـره للقرآن الكريم - تحت عنوان [الزواج مـيثـاق غليظ] يقول:

«لقد أفرغت سـورة النساء على عقد الزواج صـبغة كريمة أخـرجته عن أن يكون عقـد تمليك كعـقد البـيع والإجارة، أو نوعًا من الاسـترقـاق والأسر.. أفرغـت عليه صبغة «الميثاق الغليظ».

ولهذا التـعبير قيـمته فى الإيحاء بموجـبات الحفظ والرحمـة والمودة. وبذلك كان الزواج عهدًا شريفًا وميثاقًا غليظًا ترتبط به القلوب، وتختلط به المصالح، ويندمج كل من الطرفين فى صاحبـه، فيتحد شـعورهما، وتلتقى رغبـاتهما وآمالهما. كـان علاقة دونها عـلاقة الصداقـة والقرابة، وعـلاقة الأبوة والبنوة ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] يتفـكرون فيدركـون أن سعـادة الحيـاة الزوجيـة إنما تُبنى على هذه العناصر الـثلاثة: السكن، والمودة، والرحمة..

وإذا تنبـهنا إلى أن كلمة مـيثـاق لم ترد فى القرآن الكـريم إلا تعبـيرًا عمـا بين الله وعباده من موجبات التوحـيد، والتزام الأحكام، وعما بين الدولة والدولة من الشئون العامة والخطيرة، علمنا مـقدار المكانة التى سما القرآن بعقـد الزواج إليها. وإذا تنبهنا مـرة أخرى إلى أن وصف الميـثاق «بالغليـظ» لم يرد فى موضع من مـواضعـه إلا فى عقـد الزواج وفيمـا أخذه الله علـى أنبيـائه من مواثيق ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] تضاعف لديـنا سمو هذه المكانة الـتى رفع القرآن إليهـا هذه الرابطة السامية».

ثم تحدث الشيخ شلتوت عن المفهوم الإسلامى الصحيح «للقوامة»، فقال:

«.. وبينت السورة الدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء، بعد أن سوّى بينهما فى الحقوق والواجبات، وأنها لا تعدو درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة، وبحكم الكد والعمل فى تحصيل المال الذى ينفقه فى سبيل القيام بحقوق الزوجة والأسرة، وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد والتسخير، كما يصورها المخادعون المغرضون»(٣٨) . .

تلك هى شبهة الفهم الخاطئ والمغلوط لقوامة الرجال على النساء. . والتى لا تعدو أن تكون الانعكاس لواقع بعض العادات الجاهلية التى ارتدت، فى عصور التراجع الحضارى لأمتنا الإسلامية، فغالبت التحرير الإسلامى للمرأة، حتى انتقلت بالقوامة من الرعاية والريادة، المؤسسة على إمكانات المسئولية والبذل والعطاء، إلى قهر السيد للمسود، والحر للعبد والمالك للمملوك! . .

ولأن هذا الفهم غريب ومغلوط، فإن السبيل إلى نفيه وإزالة غباره وآثاره هو سبيل البديل الإسلامى، الذى فقهه الصحابة، رضوان الله عليهم، للقوامة. . والذى بعثه - من جديد - الاجتهاد الإسلامى الحديث والمعاصر، ذلك الذى ضربنا عليه الأمثال من فكر وإبداع الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت. .

بل إننا نضيف، للذين يرون فى القوامة استبدادًا بالمرأة، وقهرًا لها - سواء منهم غلاة الإسلاميين، الذين ينظرون للمرأة نظرة دونية، ويعطلون ملكاتها وطاقاتها بالتقاليد - أم غلاة العلمانيين، الذين حسبوا ويحسبون أن هذا الفهم المغلوط هو صحيح الإسلام وحقيقته، فيطلبون تحرير المرأة بالنموذج الغربى. . بل وتحريرها من الإسلام! . . نقول لهؤلاء جميعًا:

إن هذه الرعاية، التى هى القوامة، لم يجعلها الإسلام حكرًا للرجل بإطلاق. . ولم يحرم منها المرأة بإطلاق. . وإنما جعل للمرأة رعاية - أى «قوامة»- فى الميادين التى هى فيها أبرع وبها أخبر من الرجال. . ويشهد على هذه الحقيقة نص حديث رسول الله ﷺ: **«كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته،**

فالأمير الذى على الناس راعٍ عليهم، وهو مسئول عنهم،والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهى مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته» - رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد.

فهذه الرعاية «القوامة» - هى فى حقيقتها «تقسيم للعمل» تحدد الخبرةُ والكفاءةُ ميادين الاختصاص فيه.. فالكل راعٍ ومسئول - وليس فقط الرجال هم الرعاة والمسئولين - وكل صاحب أو صاحبة خبرة وكفاءة هو راعٍ وقوّام، أو راعية وقوّامة على ميدان من الميادين وتخصص من التخصصات.. وإن تميزت رعاية الرجال وقوامتهم فى الأسر والبيوت والعائلات وفقًا للخبرة والإمكانات التى يتميزون بها فى ميادين الكد والحماية.. فإن لرعاية المرأة تميزًا فى إدارة مملكة الأسرة وفى تربية الأبناء والبنات.. حتى لنلمح ذلك فى حديث الرسول ﷺ - الذى سبق إيراده - عندما جعل الرجل راعيًا ومسئولاً عن **«أهل بيته»**، بينما جعل المرأة راعية ومسئولة عن **«بيت بعلها وولده»**!..

فهى - «القوامة» - توزيع للعمل، تحدد الخبرة والكفاءة ميادينه.. وليست قهرًا ولا قسرًا ولا تملكًا ولا عبودية، بحال من الأحوال.

هكذا وضحت قضية القوامة.. وسقطت المعانى الزائفة والمغلوطة لآخر الشبهات التى يتعلق بها الغلاة.. غلاة الإسلاميين.. وغلاة العلمانيين.

* * *

.. وبعـــد ...

فسواء نظرنا إلى قضية المرأة وإنصافها وتحريرها، فى إطار النظرة العامة التى نظر الإسلام بها إلى المرأة - نظرة الإنصاف والمساواة للرجل فى الخلق من نفس واحدة.. وفى الإنسانية - وفى التكريم لكل بنى آدم.. وفى حمل الأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان - ذكرًا وأنثى.. وفى الأهلية للتكاليف.. وفى الحساب.. وفى الجزاء-.. مع الحفاظ على فطرة تميّز الأنوثة عن الذكورة، تميز التكامل لا الأنداد والأضداد.

سواء نظرنا إلـى هذه القضيـة فى إطارها النظرى هذا. . أم نظرنا إليـها من خلال تطـبيقـات مجـتمع النبـوة، الذى مارست فـيه المرأة فـقه هذا التـحرير الإسلامى لملـكاتها وطاقاتهـا - على النحو الذى شـاركت فيـه الرجال بإقـامة الدين. . وبناء الدولة. . والمجتـمع. . والحضارة. . أم نظرنا إلى هذه القـضية من خلال «الفكر الفقـهى» الإسلامى، الذى اختلف أئمته حـول بعض القضايا الفرعية - التى اتُّخِـذَت فى عصر التراجع الحضارى، ومن قِـبَل تيارات الجمود والتقليد منطلقات لشبهات ضد أهلية المرأة وإنصافها - فنفذنا إلى فقه النصوص التى تصورها البعض شبهات وعقـبات على طريق تحرير المرأة وإنصافها. . فإننا سنجد الآفـاق واسعـة وفسيـحة وممتـدة أمام إنهاض المرأة بـالإسلام. . وليس بتجاوز الإسلام، كما يريد المتغربون من غلاة العلمانيين.

وإذا كان الاجتهاد الإسـلامى - القديم منه والحديث - هو الذى انطلقت منه هذه الدراسة، لتقـرير مشاركة المرأة فى العمل العام، سـائر ما تطيق وتحسن من ميـادين العمل العام. . والذى انطلقت منه للرد على مـا أثير ويثار من شبـهات حول أهلية المرأة لهذه المشاركة فى العمل العام. . فإن هذا الاجتهاد الإسلامى إنما يسـتند إلى النصـوص القرآنيـة التى أشـركت المرأة والرجل فى القـيام بفـرائض التكاليف الاجتماعية لهذا العمل الـعام. . وإلى تطبيقات عصر النبوة - أى السنة العمليـة لهذه النصوص القرآنيـة. . وإلى الآفاق المفتوحة دائـمًا وأبدًا أمام المرأة، لتقتحم المزيد والمزيد من ميادين المشاركـة التى تطيقها وتحسنها كأنثى، وفق السنة النبوية التى فتـحت لها هذه الآفاق، عندما بايعت النساء رسول الله ﷺ بـيعتهن الخاصـة بهن. . فلم ينب عنهن فيهـا الرجال - وفتح الرسول ﷺ أمـامهن هذه الآفاق، وطريق التطور والتقدم نحوها، قائلا لهن: «**فيما استطعتن وأطقتن**».

* * *

وإذا كانت بعض المجتمعات والبيئات الإسلامية، تسود وتتحكم فيها عادات وتقاليـد وأعراف تحجب المرأة عن المـشاركة فيـما هى أهل له وقـادرة عليه من

ميـادين العمل العـام. . فإن المنهـاج الإسلامى يدعو إلى تطويـر هذه العادات والتقاليد والأعـراف نحو النموذج الإسلامى لتحرير المرأة وإنـصافها، فى تدرج لا يقفز على الواقع ولا يتـجاهله - فتجاهل الواقع والقفـز على عاداته وتجاهل تقالـيده وأعرافـه،هو جهل لا يليق بالمـصلحين -. . كـما يدعو هذا المـنهاج الإسلامى إلى رفض - بـل وإدانة - إلباس هذه العادات والتـقاليـد والأعراف لبوسًا إسلاميًا، يُجَمِّلها، ومن ثم يكرسها، بالزور والبهتان. .

وكذلك الحال مع البـيئات والمجتـمعات الإسلاميـة التى اقتحمـها النموذج الغربى «لتحريـر» المرأة، ذلك الذى أرادها «ندًا» للرجل، وتجاهل تميز «الأنوثة» عن «الذكورة» فى تقـسيم العمل الاجتمـاعى بين النساء والرجال، كـما تجاهل منظومة القيم الإسـلامية وضوابط الشريعـة فى الزى والسلوك والأخلاق، على النحو الذى أهان المرأة، واستباح حرماتها، وأهدر -مع حقوقها كأنثى- حقوق الله، سبحانه وتعالى. .

إن هذا النموذج الغربى فى «تحرير» المرأة، لا بد من إدانتـه، وطى صفحات فكره وممارسـاته فى واقـعنا الإسلامى -بالنـقد الموضـوعى، وبتـقديم البـديل الإسلامى. . لا بالمصادرة التعسفية-. . ولا بد، كذلك، من تطوير هذا الواقع الاجتـماعى فى اتجاه التقـبل للنموذج الإسلامى والالتـزام به. . ذلك النموذج الذى كشفت هذه الدراسـة عن معالمه فى مشاركـة المرأة بالعمل العام. . وردت عنه الشـبهـات التى أثارها ويثيـرها غـلاة الإسلامـيين والعلمـانيين على حـد سواء. .

إن المرأة المسلمة خاصة، والمرأة الشرقية عامة، بل ومطلق المرأة، مدعوة إلى استلهام نموذج المرأة التى حررها الإسلام. . وذلك عندما:

* جعل من خديجة بنت خـويلد [٦٨-٣ ق هـ ٥٥٦-٦٢٠م] طليعة الذين سبـقوا إلى الإيمـان بالإسلام، ونصروا دعـوته، وآزروا رسوله ﷺ حـتى لقد

مثلت وحدها التجسيد «لأمـة الإسلام» إلى أن ائتم بها من فتح الله صدره لهذا الدين من السابقين الأولين.

* كما جعل هذا النموذج التحـريرى من سمية بنت خباط [٧ق هـ ٦١٥م] - زوج ياسر، وأم عمّـار - طليعة شهـداء الإسلام وأمته، الأحـياء عند ربهم يرزقون..

* كمـا جعل من عائشـة - أم المؤمنين - [٩ ق هـ - ٥٨ هـ ٦١٣-٦٧٨م] رضى الله عنها، راوية السنة النبوية.. والفـقيهة والمفتيـة فى الدين.. والمشيرة على رسـول الله ﷺ وعلى الأمـة.. والمشاركـة فى الشـأن العـام، سـياسـة واجتماعـًا.. سلمًا وحربًا.. حتى لقد مثلت نموذج ائتـمان الإسلام المرأة على الدين - الذى هو أعز وأشرف من الدنيا - منذ مـا يزيد على أربعة عشر قرنًا، بينما عـجزت كل كنائس النصرانيـة وكل كنس اليهودية عن ائتـمان المرأة على الدين حتى هذا القرن الواحد والعشرين!.

* كما جعل من نسيبـة بنت كعب الأنصارية - أم عمارة - [١٣ هـ ٦٣٤م] المشاركة فى تأسيس الدولة.. وفى بيعة الرضوان -بيعة القتال- تحت الشجرة، عام الحـديبية [٦ هـ ٦٢٨م].. والتى نهـضت فى ساحـات المعارك القتـالية بما قصر عنه كثير من الرجال!.

* كـما جـعل من أسمـاء بنت يزيد بن السكن الأنصـارية [٣٠هـ ٦٥٠م] خطيـبة النسـاء، التى تهـز أعواد المنابر.. ووافـدة النساء إلى رسـول الله ﷺ للمطالبة بحقوق من خلفها من نساء المؤمنين.

* كما جعل من أسماء بنت أبى بكر الصديق [٢٧ ق هـ - ٧٣ هـ ٥٩٧ - ٦٩٢م] الأنثى التى تشـارك فى صناعة الأحـداث الكبرى والمحـورية فى تاريخ الدعوة والـدولة الإسلامية.. والتـى تـرعى منزل زوجها الزبير بن العوام [٢٨ ق هـ - ٣٦هـ].. وفـرس جـهـاده.. وتزرع حـقله.. وتقـاتـل مـعـه فى الغزوات.. وتحافظ على مـشاعره وغيرته الشديدة!.. وتتزيا بـالحشمة التى لا

تكشف ولا تشف ولا تصف.. وتربى ولدها عبدالله بن الزبير [١-٧٣هـ ٦٢٢-٦٩٢م] على بطولة الفداء والاستشهاد.. وتسهم معه، بالشورى، فى أحداث ثورته الكبرى.. وتتصدى لطغيان الحجاج بن يوسف الثقفى [٤٠-٩٥هـ ٦٦٠-٧١٤م] على النحو الذى غدا مضرب الأمثال فى تاريخ الأبطال والبطولات!

إلى آخر نماذج النخبة والصفوة التى تربت فى مدرسة النبوة، والتى زاد عددهن على ألف امرأة، أطلق التحرير الإسلامى طاقاتهن وملكاتهن فى أقل من ربع قرن، هو عمر البعثة النبوية.. وعشر سنوات هى عمر دولة الرسول ﷺ فى المدينة المنورة..

فللإسلام نموذجة المتميز فى تحرير المرأة.. ولهذا النموذج طلائعه فى تاريخ هذا التحرير.

وإذا كانت الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء الأمة، فإن المرأة فيها هى الراعية وصانعة المستقبل، بصياغة وصناعة الإنسان، وتربية وإعداد عدة الغد، وتنمية أعظم رأسمال فى الوجود!.

ومع عظم وعظمة هذه المهمة.. فإن آفاق عمل المرأة لا تقف عند نطاق الأسرة.. فلقد فتح التحرير الإسلامى أمام عملها آفاق الاشتراك فى العمل الاجتماعى العام - مُوَكِّلَةً.. ووكيلة.. ناخِبَةً.. ومُنْتَخَبَة - لتشارك فى شورى صناعة القرارات التى تُرشِّد مسيرة الأسرة والأمة.. نهوضًا - مع الرجل- بأداء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، التى فرضها الله، سبحانه وتعالى، على الجميع. والتى تندرج تحتها وتتفرع منها سائر ميادين العمل العام.. على أن يخضع ذلك كله لتوافر الأهلية والقدرة - وهو شرط عام فيمن ينهض بأى تكليف شرعى، رجلاً كان أو امرأة - وألا يخل هذا الاشتراك فى العمل العام بحق وواجب المرأة لأسرتها، ومملكتها الأولى، وإطار قوامتها الأساسية، أو بضابط من الضوابط الشرعية التى جاء بها الإسلام..

الهوامش:

(١) صحيفة [الأهرام] فى ٢٨ - ٢- ٢٠٠١م.

(٢) د. صلاح الدين سلطان [ميراث المرأة وقضية المساواة] ص ١٠، ٤٦ - طبعة القاهرة - دار نهضة مصر سنة ١٩٩٩م - «سلسلة فى التنوير الإسلامى».

(٣) عواطف عبد الماجد [رؤية تأصيلية لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة] طبعة مركز دراسات المرأة - السودان سنة ١٩٩٩م.

(٤) النكول: هو الامتناع عن اليمين.

(٥) ابن القيم [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٣٤. تحقيق د. محمد جميل غازى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

(٦) أى الكتابة.

(٧) القافة: مفردها قائف - هو الذى يعرف الآثار - آثار الأقدام - ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه..

(٨) القسامة: الأيمان، تقسم على أهل المحلة الذين وجد المقتول فيهم.

(٩) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١٠٣ - ١٠٥، ٢١٩، ٢٣٦.

(١٠) مفردها قمط - بكسر القاف وسكون الميم -: ما تشد به الأخصاص ومكونات البناء ولبناته.

(١١) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص١٩٨.

(١٢) السَّلب - بفتح السين مشددة، وفتح اللام-: هو متاع القتيل وعدته، يأخذه قاتله .. وفى الحديث: «من قتل قتيلاً فله سلبه».

(١٣) الموضحة: هى الجراحات التى هى دون قتل النفس.

(١٤) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص٩٨، ١١٣، ١٢٣.

(١٥) استهلال الصبى: هو أن يحدث منه ما يدل على حياته - ساعة الولادة - من رفع صوت أو حركة عضد أو عين، وهو شرط لتمتعه بحقوق الأحياء.

(١٦) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١١٥ - ١١٧.

(١٧) المصدر السابق. ص ٨٨، ١٩٣.

(١٨) المصدر السابق. ص ٢٢١.

(١٩) [إعلام الموقعين عن رب العالمين] جـ١ ص ٩٠ - ٩٢، ٩٤، ٩٥، ١٠٣، ١٠٤. طبعة بيروت. سنة ١٩٧٣م.

(٢٠) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٤ ص ٧٣٢. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٣م.

(٢١) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٣٩ - ٢٤١. طبعة القاهرة. سنة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

(٢٢) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٢٤٤، ٢٣٦.

(٢٣) المصدر السابق. ص ٣٢٩.

(٢٤) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٢٣٦.

(٢٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٤ ص ٦٠٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٣م.

(٢٦) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٢٣ - ٢٢٨. طبعة القاهرة. سنة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

(٢٧) [الأهرام] فى ٢٩ - ٤ - ٢٠٠١م - ص٢.

(٢٨) الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير - القاهرة. سنة ١٩٩١م.

(٢٩) [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] جـ٢ ص ٤٩٤. طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٤م. والماوردى [أدب القاضى] جـ١ ص ٦٢٥ - ٦٢٨ طبعة بغداد. سنة ١٩٧١م. و[الأحكام السلطانية] ص ٦٥، طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٣م.

(٣٠) [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] جـ٢ ص ٤٩٣، ٤٩٤.

(٣١) [أدب القاضى] جـ١ ص ٦٤٣.

(٣٢) محمد محمد سعيد [كتاب دليل السالك لمذهب الإمام مالك] ص ١٩٠ طبعة القاهرة. سنة ١٩٢٣م.

(٣٣) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ٢٨٣. جمعها وحققها: د. محمد حميد الله. طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦م.

(٣٤) ابن منظور [لسان العرب] طبعة دار المعارف - القاهرة.

(٣٥) انظر: الراغب الأصفهانى [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير - القاهرة. سنة ١٩٩١م. وأبو البقاء الكفوى [الكليات] ق٢ ص ٢٨٧. تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصرى. طبعة دمشق. سنة ١٩٨٢م.

(٣٦) [إعلام الموقعين] جـ٢ ص ١٠٦. طبعة بيروت. سنة ١٩٧٣م. [ولإدراك كيف أن عسكرة الدولة - بحكم المماليك - قد مثلت تراجعًا عن النموذج الإسلامى فى كثير من جنبات الحياة الفكرية والاجتماعية، نسوق عبارة محمد عبده فى الإشارة إلى هؤلاء العسكر، الذين «لم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام، والقلب الذى هذبه الدين، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، لبسوا الإسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شىء إلى وجدانهم، هناك استعجم الإسلام، وانقلب أعجميًا!» - الأعمال الكاملة. جـ٣ ص ٣٣٦].

(٣٧) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٤ ص ٦٠٦ - ٦١١ - وجـ٥ ص ٢٠١، ٢٠٣.

(٣٨) [تفسير القرآن الكريم] ص ١٧٢ - ١٧٤. طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ. سنة ١٩٧٩م.

النموذج الغربى لتحرير المرأة

١- بين التحرير من الظلم.. والتحرير من الفطرة

إن الفارق بين الدعوة إلى تحرير المرأة وإنصافها، والحركات التى عملت على هذا التحرير والإنصاف - سواء فى البلاد الغربية أم الشرقية- وبين النزعة الأنثوية المتطرفة [Feminism] التى تبلورت فى الغرب فى ستينيات القرن العشرين، والتى تقلدها قلة قليلة من النساء الشرقيات.. إن الفارق بين هاتين الدعوتين والحركتين وفلسفتهما ومطالبهما، هو الفارق بين العقل والجنون!..

فأقصى ما طمحت إليه دعوات تحرير المرأة وحركاتها، هو إنصافها.. ورفع الغبن الاجتماعى والتاريخى الذى لحق بها، والذى عانت منه أكثر كثيراً مما عانى منه الرجال.. إنصافها، مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، وتمايز توزيع العمل وتكامله فى الأسرة والمجتمع، على النحو الذى يحقق مساواة الشقين المتكاملين بين الرجال والنساء.. وذلك حفاظًا على شوق كل جنس إلى الآخر، واحتياجه إليه، وأُنسه بما فيه من تمايز، الأمر الذى بدونه لن يسعد أى من الجنسين فى هذه الحياة..

ولقد كانت الدعوة الغربية إلى تحرير المرأة -منذ القرن التاسع عشر -أثرًا من آثار الحداثة الغربية، التى أرادت تجاوز التراث الفلسفى والاجتماعى والقانونى الغربى، المعادى للمرأة والمحقِّر لشأنها.. مع التأويل للتراث الدينى الغربى- اليهودى والنصرانى - المعادى للمرأة.. وذلك دون إعلان للحرب على الدين ذاته، ولا على الفطرة التى فطر الله الناس عليها عندما خلقهم ذكرانًا وإناثًا.. وأيضًا دون إعلان للحرب على الرجال.

أما النزعة الأنثوية المتطرفة [Feminism] التى تبلورت فى ستينيات القرن العشرين، فإنها أثر من آثار «ما بعد الحداثة» الغربية، تحمل كل معالم تطرفها الذى بلغ بها حد الفوضوية والعدمية واللاأدرية والعبثية والتفكيك لكل الأنساق الفكرية الحداثية التى حاولت تحقيق قدر من اليقين الذى يعوض الإنسان عن طمأنينة الإيمان الدينى، التى هدمتها الحداثة بالعلمانية والمادية والوضعية منذ عصر التنوير الغربى العلمانى، فى القرن الثامن عشر.

لذلك، كانت النزعة الأنثوية المتطرفة هذه «ثورة - فوضوية»، تجاوزت وغايرت «ثورات الإصلاح».. وكانت حربًا على «الفطرة السوية»، بما فى ذلك فطرة الأنوثة ذاتها!..

لقد تبنت هذه النزعة الأنثوية مبدأ الصراع بين الجنسين- الإناث والذكور- انطلاقًا من دعوى أن العداء والصراع هما أصل العلاقة بينهما.. ودعت إلى ثورة على الدين.. وعلى الله.. وعلى اللغة.. والثقافة.. والتاريخ.. والعادات والتقاليد والأعراف، بتعميم وإطلاق!.. وسعت إلى عالم تتمحور فيه الأنثى حول ذاتها، مستقلة استقلالاً كاملاً عن عالم الرجال.. وفى سبيل تحقيق ذلك، دعت إلى الشذوذ السحاقى بين النساء، وإلى «التحرر الانحلالى» وبلغت فى الإغراب مبلغًا لا يعرف الحدود!.. الأمر الذى جعل هذه النزعة الأنثوية المتطرفة كارثة على الأنوثة، ووبالاً على المرأة، وعلى الاجتماع الإنسانى بوجه عام.. بل وجعلها - إذا انتصرت وعمت - مهددة للوجود الإنسانى.. نعم، حتى للوجود الإنسانى ذاته!..

وكى لا يظن الذين لا يعلمون أن هناك مبالغة فى التصوير.. وكى لا ندع مجالاً لتمويه المموهين.. فيكفى أن نقدم نماذج شاهدة، ومعبرة من مقومات وشعارات فلسفات هذه الحركات الأنثوية المتطرفة..

* فأبو النزعة الأنثوية الفرنسية - الاشتراكى الفرنسى-«فورييه» [١٧٧٢-١٨٣٧م] قد دعا إلى «تحرير المرأة على كل الأصعدة: البيتى. والمهنى..والمدنى.. والجنسى.. وقال: إن العائلة تكاد تشكل سدًا فى وجه التقدم»!..

* وفيلسوف هذه النزعة «ماركيوز-هربرت» [١٨٩٨-١٩٧٩م] قد جعل من أسس «نظريتـه النقدية»: «التـأكيـد على انعتـاق الغرائز الجنسـية، وإطلاق الحـرية الجنسـية بلا حـدود،سواء مـن ناحيـة الكم أم الكيف، أى حـتى حرية الشـذوذ.. بل وتمجيـده،باعتـباره ثورة وتمرداً ضد قـمع الجنس، وضد مـؤسسات القـمع الجنسى.. معتـبراً التحرر الجنسى عنصراً مكمـلاً ومتممًا لعمـلية التحرر الاجتمـاعى..ورافضًا ربط الجنس بالتناسل والإنجاب»!..

* كما رفضت هذه النزعـة ربط الممارسة الجنسية بالأخلاق، فـقال «فوكو - ميشيل» [١٩٢٦-١٩٨٤م] «لماذا يجعل السلـوك الجنسى مسألة أخـلاقية، ومـسألة أخلاقية مهمة؟!»..

* أما فيلسوفـة هذه النزعة الأنثوية- الكاتبة الوجودية «سـيمون دى بوفوار» [١٩٠٨-١٩٨٦] فلقـد اعتـبرت «الزواج: السـجن الأبدى للمـرأة،يقطع آمـالهـا وأحلامها!» واعتبرت «مؤسسـة الزواج مؤسسة لقهر المرأة،يجب هدمها وإلغاؤها!» وأنكرت أى تميـز طبيـعى للمـرأة عـن الرجل «فـلا يولد المرء امـرأة،بل يصـير كذلك..وسلوك المرأة لا تفـرضه عليها هرموناتهـا ولا تكوين دماغها، بل هو نتيجة لوضعها..»!

وجعلت من الدين ومن الألوهيـة عدواً لهذه الفلسـفة الأنثوية «فـالدين -برأيها- كان مـحايداً عندمـا لم يكن للآلهة جنـس، ثم انحاز الدين للمـرأة عندما أصبحت الآلهة إناثًا، ثم تحوّل إلى عدو للمرأة بسبب التفسيرات الذكورية للدين»!

ولقد نجحت هذه الحركات الأنثوية الغربية فى الضغط على المؤسسات الدينية الغربية.. تلك التى خانت رسالتـها -حتى أصدرت-فى سنة ١٩٩٤م - طبعة جديدة من العهدين القديم والجديد، سميت «الطبعـة المصححة»، تم فيها تغيير المصطلحات والضمائر المذكرة، وتحويلها إلى ضمائر محايدة!..

* ولقد تبلورت لهذه النزعة الأنثوية المتطرفة معالم فلسفتها التى تقرر:

-«أن المرأة مالكة لجسدها.. وحرة فيه، تتصرف فيه جنسيًا مع من تشاء، ووفق ما تشاء.. بما فى ذلك حرية التصرف فى الجنين -بالإجهاض- لأنه جزء من جسدها.. فالتعبير الحر عن الجنس هو جزء من الحرية، حتى لو اتخذ شكل الشذوذ السحاقى.. وحتى لو اتخذ شكل احتراف البغاء، طالما خلا هذا الاحتراف للبغاء من الاستغلال التجارى!..

- كما تقرر هذه الفلسفة «أن الغيرة عاطفة برجوازية ينبغى التخلص منها»! «وأن الحياء مرض يجب العلاج منه»!.. و«أن العفة تخلف وكبت للحرية الجنسية»!.. ولا بد من تجريد الحب من أية ضوابط.. باستثناء العاطفة والشهوة!..

- ورأت هذه الفلسفة فى «الأمومة: قوالب جامدة وجائرة؛ لأنها لا تحقق للمرأة عائدًا ماديًا»!..

- ورأت فى «الإنجاب» عبودية للمرأة.. تسميها «سيمون دى بوفوار»: «عبودية التناسل»!..

-ودعت هذه الفلسفة الأنثوية إلى «حرية الاقتران، وحرية الافتراق فى أى لحظة، وذلك بين أى فردين -مثلين أو مختلفين!».. وإلى جعل «تربية الأطفال مسئولية الدولة والمجتمع، لا المرأة والأسرة»!..

-ووصلت هذه النزعة إلى الحد الذى قامت فيه منظمة أنثوية أمريكية اسمها: «حركة تقطيع أوصال الرجال»!.

* * *

وإذا كانت هذه الفلسفات والأفكار والدعاوى قد بلغت فى الإغراب الشاذ والشذوذ الغريب هذا الحد الذى رأيناه.. فإن الأمر الأكثر شذوذًا وإغرابًا، هو السيطرة والانتشار اللذان حققتهما هذه النزعة الأنثوية المتطرفة فى المجتمعات الغربية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين..

* فـ ٦٠٪ من أعضاء المنظمات الأنثوية فى أمريكا سحاقيات!.. وهذه

المنظمات الأمريكية - وأمثالها فى الغرب- هى المسيطرة على لجنة المرأة فى الأمم المتحدة، ومن خلالها فرضت وتفرض شذوذها الفكرى والسلوكى على العالم أجمع، من خلال المواثيق «الدولية» التى تُعَولَم تحت علم مؤتمرات المنظمة الدولية.. من وثيقة مؤتمر السكان سنة ١٩٩٤م.. إلى وثيقة مؤتمر بكين سنة ١٩٩٥م.. إلى وثيقة مؤتمر المرأة سنة ٢٠٠٠م.. إلى وثيقة الطفل.. ووثيقة إلغاء كافة أشكال التمييز ضد المرأة [CEDAW]..

وكما تقول الأستاذة الأمريكية «كاثرين فورث»: **«إن المواثيق والاتفاقات الدولية التى تخص المرأة والأسرة والسكان..تصاغ الآن فى وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث: (الأنثوية المتطرفة) و(أعداء الإنجاب والسكان) و(الشاذون والشاذات جنسيّا).. وإن لجنة المرأة فى الأمم المتحدة شكلتها امرأة اسكندنافية كانت تؤمن بالزواج المفتوح، ورفض الأسرة، وكانت تعتبر الزواج قيداً، وأن الحرية الشخصية لابد أن تكون مطلقة.. ولقد انعكس هذا المفهوم «للحرية» فى المواثيق التى صدرت عن هذه اللجنة، فالتوقيع على اتفاقية الـ CEDAW يجعل معارضة الشذوذ الجنسى- حتى ولو برسم كاريكاتورى- عملاً يعرض صاحبها للمساءلة القانونية، لكون هذه المعارضة معارضة لحقوق الإنسان»**!..

وبعبارة الأستاذ الأمريكى «ريتشارد ويلكنز»: **«فإنه بموجب اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل، فإن للأطفال حرية التعبير، وحرية التعبير الجنسى.. ولذلك، فمن ينكر حق الطفل فى ممارسة الجنس مع الكبار لا ينتهك حقوق الأطفال فحسب، بل ينتهك حقوق الكبار أيضًا.. ولقد أصبح الاعتراف القانونى بحرية الشذوذ الجنسى شرطًا من شروط الدخول إلى الاتحاد الأوروبى.. وهو ضمن الشروط المطلوب من تركيا المسلمة تحقيقها»**!..

ولقد سارت مظاهرات فى عواصم الغرب تندد بمصر لمحاكمتها بعض الشواذ. وطالبت برلمانات عدة فى تلك العواصم - وخاصة فى أمريكا وألمانيا- بقطع المعونات عن مصر بسبب ذلك الموقف من الشذوذ والشواذ!..

ووفق هذه المواثيق التى فرضتها هذه الحركات الأنثوية المتطرفة على العالم، **أصبح من حق المراهقين والمراهقات ممارسة الشذوذ الجنسى، والإتيان بالرفقاء والرفيقات إلى المخادع،تحت سمع وبصر الوالدين.. ومن يعترض يمكن محاكمته قانونيًا فى البلاد التى صدقت على اتفاقية الـ CEDAW!!**

فنحن أمام دين جديد لقوم لوط الجدد!.. وكما يقول البروفيسور الأمريكى «ويلكنز»: «فإن المجتمع الغربى قد دخل دوامة الموت، ويريد أن يجر العالم وراءه»!.. وكأنما شعارهم يقول **﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾** [النمل: ٥٦].

***

٢- فرض الشذوذ الفكرى على العالم

يعجب المرء ذوالثقافة الشرقية والتراث الفكرى والحضارى الإسلامى، من هذا الانتشار الذى حققته الحركة الأنثوية المتطرفة فى المجتمعات الغربية.. ومن شيوع هذا الجنون الانحلالى الذى بشرت به ودعت إليه هذه الحركة، حتى إن نسبة السحاقيات فى (المنظمة الوطنية للنساء).. بأمريكا - وهى أكبر المنظمات النسائية - تصل إلى ٦٠٪ من عضواتها!..

ويتزايد عجب المثقف الشرقى من تحول هذه النزعة الشاذة -فكريًا وسلوكيًا- إلى قسمة بارزة فى مشروع الهيمنة الغربية على العالم.. فحرية الشذوذ غدت جزءًا أصيلاً من المفاهيم الغربية لحقوق الإنسان، يفرضها الغرب على العالم.. والحرية الجنسية غدت كذلك جزءًا من حق الإنسان فى الحرية.

بل إن السحاقيات قد سيطرن على لجنة المرأة فى الأمم المتحدة، وبدأت مرحلة عولمة هذه الفلسفة الفوضوية الشاذة فى مواثيق دولية، يفرضها مشروع الهيمنة الغربية على العالم، ويقوم بعولمتها تحت علم الأمم المتحدة.. ويكفى أن نشير إلى أن الوفود النسائية الغربية إلى المؤتمر الدولى للسكان - الذى انعقد

بالقاهرة سنة ١٩٩٤م- قد ضمت جمـهورًا من الشاذين والشاذات الذين جاءوا للتظاهر فى شوارع القـاهرة الإسلامية، للدعوة إلى حـرية الشذوذ، ولم يمنع تظاهرهم إلا الخوف على حياتهم من جمهور المسلمين المصريين! . .

وإذا كانت هذه الوفـود الأنثوية المتطرفة، قـد منعت من التظاهر فى شوارع القاهرة، فلقد نجحت فى أن تضمن الوثيقة الصادرة عن المؤتمر الكثير من معالم هذه النزعة الشاذة فى مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان. .

* فدعت هذه الوثيقـة بإلحاح إلى «تغيير هياكل الأسـرة». . أى إلى مصادمة الفطرة التى فطر الله البشر عليـها، والتى اجتمعت عليهـا الديانات - السماوية والوضعـية -وكل الثقافـات والحضارات. . وذلك حتى تقنن «لأسـر» الشاذين والشاذات، و«أسـر» الالتقـاء الحر بين «الأفـراد»! . . وجاء فى هذه الوثيـقة: **«والحكومـات،والمنظمـات الحكومـية الدوليـة، والمنظمـات غـيـر الحكوميـة المعنيـة، ووكالات التـمويل، والمؤسـسات البحـثية مـدعوة بإلحـاح-[لاحظ «بإلحاح»]- إلى إعطاء أولوية - [لاحظ «أولوية»] -للبحوث الحيـوية - [لاحظ «الحيوية»]- المتعلقة بتغيير الهياكل الأسرية»!..**

* وبدلاً من الجنس الشرعى والمشروع والحلال، دعت هذه الوثيقة إلى تقنين الحرية الجنسـية «المسئولـة»، كحق من حقوق الجـسد، يتمـتع بها كل الناشطين جنسـيًا من كل الأجنـاس والأعمـار، ذكرانًا وإناثًا، حـتى البنات والمراهقـين والمراهقـات! . . «فالصـحة التناسليـة - التى هى حـالة من الرفاهيـة الجنسيـة المأمونة- هى حق لجميع الأفراد» **[لاحظ «الأفراد» وليس «الأزواج»]!.. و«ينبغى أن تسعى جمـيع البلدان إلى القيام بتـوفير رعاية صحـية تناسلية لجمـيع الأفراد، من جميع الأعمار..للبنات .. والفـتيات..المراهقات..وتلبية الحاجات التثقيـفية والخدمية للمراهقين كيـما يتمكنوا من التعامل مع نشاطهم الجنسى بطريقة إيجـابية ومسئولة.. وينبغى أن تكون برامج الرعاية الصحية التناسلية والجنسية مـصممة لتلبية احتياجات المرأة والفتـاة المراهقة.. وأن تصل إلى المراهقـين والرجال والبنين والمـراهقات، بدعم**

وإرشاد آبائهم.. ويجب أن توجه الخدمات بدقة، وعلى الخصوص نحو حاجات فرادى النساء والمراهقين.. فالمراهقون الناشطون جنسيًا يحتاجون نوعًا خاصًا من المعلومات والمشورة والخدمات فيما يتعلق بتنظيم الأسرة..كما أن المراهقات اللاتى يحملن يحتجن إلى دعم خاص من أسرهن ومجتمعهن المحلى خلال فترة الحمل ورعاية الطفولة المبكرة»!

فإلى جانب الأسرة- التى سميت تقليدية - والتى رأتها النزعة الأنثوية المتطرفة سجنًا للمرأة، وقيدًا على حريتها. . هناك «أشكال الاقتران الأخرى» التى دعت الوثيقة إلى إباحتها وتقنينها. . وهناك «الثورة الجنسية» التى رأت إباحة وتقنين النشاط الجنسى،لكل الناشطين جنسيًا، من كل الأعمار، بشرط أن يكون مسئولاً - لا يفضى إلى الأمراض- وليس مهمًا أن يكون شرعيًا ومشروعًا!. .

* وإذا كان «الزنا المبكر»- للمراهقين والمراهقات - وحتى للأطفال - هو حقًا من حقوق الجسد الإنسانى -بنص هذه الوثيقة. .التى فاقت وتفوقت على قوم لوط!-. . فلقد ذهبت فى الشذوذ إلى الحد الذى جرمت فيه «الزواج المبكر»!. . فقالت: «**إن الهدف هو الحيلولة دون حدوث الزيجات المبكرة..وعلى الحكومات أن تزيد السن الأدنى للزواج حيثما اقتضى الأمر.. ولا سيما بإتاحة بدائل تغنى عن الزواج المبكر**»!. .

فالتحريم هو للزواج المبكر. .والبدائل لهذا الزواج المبكر هو النشاط الجنسى المسئول، لكل الناشطين جنسيًا من كل الأعمار!

* وعلى درب مصادمة الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها، والتى ارتضتها وسعدت بها الإنسانية عبر تاريخها، على اختلاف الديانات والثقافات والحضارات. . فطرة تكامل عمل المرأة والرجل فى الأسرة والمجتمع. . ذهبت وثيقة مؤتمر السكان إلى إدانة عمل المرأة فى الأسرة؛ لأنها «**أنشطة اقتصادية غير مدفوعة الأجر تضطلع بها المرأة فى الأسرة**»!. . وفى ذات الوقت دعت هذه

الوثيقة «**إلى اشتراك المرأة فى جميع جوانب الإنتاج، والعمالة، والأنشطة المدرة للدخل**»!.. بل ودعت إلى دمج الرجل فى المنزل، ودمج المرأة فى المجتمع، فقالت هذه الوثيقة: «**ويتعين على الزعماء الوطنيين والمجتمعيين أن يشجعوا مشاركة الرجل الكاملة فى حياة الأسرة، بما فى ذلك تنظيم الأسرة وتربية الأطفال والعمل المنزلى.. وإدماج المرأة بشكل تام فى الحياة المجتمعية، مع تخفيفها من مسئوليات العمل المنزلى**»!!..

* * *

نعم.. يعجب المرء ذو الثقافة الشرقية والتراث الفكرى والحضارى الإسلامى، من سيطرة هذا الشذوذ الفكرى والسلوكى على المجتمعات الغربية - وهى مجتمعات زاخرة بالعباقرة والعقلاء والحكماء- ومن تمكن الحركات الأنثوية المتطرفة من بعث وتقنين «مذهب اللذة والشهوة»، والسعى إلى عولمته، وفرضه على العالم، كجزء من حقوق الإنسان..

لكن.. يبدو- وهذا من باب التفسير لا التبرير- أن تراث الحضارة الغربية فى هذا الباب كان عونًا لهذه النزعة الأنثوية المتطرفة على الإغراق والإغراب فى هذا الميدان.. واختلاف هذا التراث الغربى - فى مذهب اللذة - عن تراثنا الشرقى والإسلامى- فى العفة - هو الذى يصيب العقل الشرقى والإسلامى بهذا القدر من الاستغراب والتعجب إزاء هذه الأفكار وهذا السلوك.

إن للغرب تراثًا قديمًا فى مذهب اللذة والإباحية والشذوذ، عرف واشتهر منذ الفيلسوف اليونانى «أبيقور» [٣٤٣- ٢٧٠ ق.م] الذى أعلن أن «**الخير هو اللذيذ.. وأى فعل يعتبر خيرًا بمقدار ما يحقق لنا من لذة**»!..

ولقد أدرك جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ ١٨٣٨-١٨٩٧م] - بعبقريته الإسلامية -أن التنوير الغربى - وخاصة عند فلاسفته « ڤولتير» [١٦٩٤-١٧٧٨م] و«روسو» [١٧١٢-١٧٧٨م] - هو بعث جديد لمذهب اللذة الأبيقورى القديم، وإحياء للدهرية والإلحاد فى مواجهة الدين والإيمان. فقال

- عن هذين الفيلسوفين التنويريين: «إنهما نبشا قبر «أبيقور» الكلبى،وأحييا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف دينى، وغرسا بذور الإباحة والاشتراك. وزعما أن الآداب الإلهية جَعْلّيات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى»..

وهذا الذى بعثه وأحياه التنوير الوضعى المادى الغربى - فى اللذة والإباحية- هو الذى رأيناه ونراه عند النزعة الأنثوية المتطرفة، التى صعدت موجتها المجنونة مع «ما بعد الحداثة»، منذ ستينيات القرن العشرين..

وفى إطار التراث الغربى الحديث لمذهب اللذة والإباحية هذا، نقرأ قول الفيلسوف الإنجليزى «هوبز» [١٥٨٨-١٦٧٩م]: «إن ما يسعد الإنسان ويسره هو الخير، وإن ما يؤلمه هو الشر»!.. ونقرأ قول «فوكو- ميشيل» [١٩٢٦-١٩٨٤م]- وهو من فلاسفة ما بعد الحداثة-: «تُستخلص الحقيقة من اللذة.. وتشكل اللذة غاية بذاتها، فهى لا تخضع لا للمتعة ولا للأخلاق ولا لأية حقيقة علمية»!.. ونقرأ قول «أنجلز» [١٨٢٠-١٨٩٥م] - فيلسوف الشيوعية الجنسية والاقتصادية-: «إن الزواج والأسرة باقيان مدة تأجج الحب الجنسى الفردى..وحين يستنفد الميل استنفاداً كاملاً،أو حين يحل محله حب جديد مشبوب العاطفة، يغدو الطلاق عملاً حسنًا بالنسبة للطرفين، كما بالنسبة للمجتمع..وإن الشيوعية سوف تحوّل العلاقات بين الجنسين إلى مجرد علاقات شخصية، لا تعنى أحداً سوى الأشخاص المرتبطين بها، ولا يكون من حق المجتمع أن يتدخل فيها، ويتحقق هذا التحول يوم يلغى النظام الشيوعى الملكية الفردية، ويشرع بتربية الأطفال تربية جماعية،فيقوض دعائم مؤسسة الزواج الحالية»!..

ونقرأ فى إطار تراث اللذة والإباحية هذا -أيضًا- كلمات المفكر الألمانى «أُجست بيبل» [١٨٤٠-١٩١٣م]: «إن إشباع الغريزة الجنسية مسألة شخصية تمامًا، شأنها شأن إشباع أى غريزة أخرى، فلا أحد يحاسب عليها أمام الآخرين، ولا يملك قاضٍ غير مفوض حق التدخل فيها، إن مسألة ما سآكله، وكيف سأشرب وأنام وألبس، هى من شئونى الخاصة، وكذلك الحال بالنسبة لمضاجعتى لشخص من الجنس الآخر»!

ونقرأ كـذلك، كلمات «إيجور شافـاريفتش» -التى تصف دور الاشتـراكية والشيوعـية الأوروبية فى تحطيم الأسرة، وفى الإباحيـة الجنسية-: **«إن العملية الاشتراكية الرامية لتجانس المجتمع تهدف أصلاً لإفساد الأسرة وتحطيمها، ولن يكون ذلك إلا بتدنيس الحب الزيجى وتهشيم أحاديته (رجل واحد مع امرأة). ومن هنا فإن الحركات الاشتراكية تسعى فى مرحلة التبشير إلى التأكيد على حرية الجنس.. وهذه قمة التساوى أو المساواة»**! . .

وإذا كانت فوضوية ما بعد الحادثة قد اقترنت بفوضوية الإباحة الجنسية، منذ ستينيات القـرن العشرين، فإن لهذه الفوضوية تراثًا أوروبيًا، نجـده عند فلاسفة هذه النزعـة، ومنهم «باكونين» [١٨١٤-١٨٧٦م] الذى قـال: **«إن الدين:جنون جماعى!.. وإن الكنيسة: حانة سماوية للتخدير وأخذ المسكنات»**! . .

هكذا وجدت النزعة الأنثـوية المتطرفة لمذهبها فى اللذة والإباحـية والشذوذ، تراثًا غربيّـا، انطلقت منه على هذا الطريق، دونما قيـود أو حدود. . والمصيبـة الكبرى أنها تسعى لتعميم هذا البلاء على الحضارات ذات المواريث المختلفة عن مواريث الغربيين! . .

* * *

٣- تراث الغرب فى احتقار المرأة

فى تفسير النزعة الصراعية، التى اتخذتها الحركة الأنثوية المتطرفة الغربية ضد الرجل، حتى لقـد طمعت فى عالم بـلا رجال! . . وأطلقت إحدى منظمـاتها على نفسها اسم «حركة تقطيع أوصال الرجال»! معتبرة الرجل مستعمرًا للمرأة، يعاملهـا معاملة الأبيض الغـربى للزنجيـة! . . إذا ذهبنا إلى تفسيـر هذه النزعة الصراعـية المتطـرفة - دون أى تبرير لـها- فلا بد أن نـضع فى الحسـبان تراث «**النزعة الصراعية**» التى ميزت الحضارة الغربية وفلسفاتها ونظرياتها الأساسية. .

* ففلسفة السياسة عند « ماكيافيللى» [١٤٦٩-١٥٢٧م] **هى القوة.. والمجد**

للأقوياء المصارعين لتحقيق السلطة القوية.. والاحتقار للأخلاق المسيحية؛لأنها أخلاق الضعفاء والعبيد!..

* والفيلسوف الإنجليزى «هوبز» [١٥٨٨-١٦٧٩م] هو صاحب شعار: «الإنسان ذئب الإنسان»!..

* وداروين [١٨٠٩-١٨٨٢م] هو الذى حول النزعة الصراعية إلى نظرية، أراد أن يبرهن بها على أن الحياة هى ثمرة للصراع الدائم بين الأحياء..وأن البقاء فى هذا الصراع هو للأقوى؛لأن الأقوى هو الأصلح والأحق بالبقاء! . .

* و«هيجل» [١٧٧٠-١٨٣١م) الذى اعتبر - فى الحداثة الغربية أرسطو العصر- هو الذى جعل التاريخ حقبا تنسخ الواحدة فيه الأخرى، لينتهى هذا التاريخ عند الدولة القومية الأقوى! . .

* و«ماركس» [١٨١٨-١٨٨٣م] هو الذى نقل هذه النزعة الصراعية من عالم الأحياء إلى الاجتماع، فرأى أن المطلق هو التناقض والصراع بين الطبقات.. وأن هذا التناقض والصراع هو سر التقدم والمحرك للتاريخ! . .

ولقد استمرت هذه النزعة الصراعية، مكونًا أساسيًا فى النظريات الغربية، وفى الممارسات الإمبريالية الغربية مع الشعوب التى ابتليت بالاستعمار الغربى، حتى لقد رأى الرجل الأبيض الغربى فى صراعه ضد الشعوب غير الغربية وثقافاتها ومواريثها الحضارية ومنظوماتها القيمية رسالة حضارية تمدينية، يطبق بها الرجل الأبيض «القانون العلمى» فى الصراع! . .

وهو ذات الفكر الذى نراه اليوم عند «صموئيل هنتنجتون» فى [صدام الحضارات]. . وعند «فوكوياما» فى [نهاية التاريخ]. .وهو ذاته الفكر الصراعى الذى تبنته الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة ضد عموم الرجال. . فهو- إذن - التراث الغربى، فى النزعة الصراعية، الذى انطلقت منه هذه الحركة الأنثوية المتطرفة. .

* * *

وفى تفسير هذا الغلو الذى سلكت طريقه هذه الحركة الأنثوية الغربية، عندما لم تقنع بتحرير المرأة وإنصافها. . فطمعت فى عالم تنفرد به المرأة، وتتمكن من التمركز فيه حول ذاتها، مطلقة عنان الفوضوية لمفهومها عن حرية المرأة -فى تفسير هذا الغلو- دون تبريره - لا بد أن نرى هذا الغلو الأنثوى فى سياق نزعات الغلو التى تميزت بها المسيرة الحضارية الغربية. . فالغلو الكهنوتى، الذى جعل الدنيا والدولة وسائر العلوم دينًا خالصًا، لها ثبات الدين وقداسته. . هو الذى أثمر رد فعله، الموازى والمساوى له. . أثمر الغلو العلمانى، الذى جعل الإنسان سيدًا للكون، بدلاً من الله. . وأضفى على العقل الإنسانى الإطلاق، بدلاً من الدين واللاهوت، وذلك عندما رفع شعار: «**لا سلطان على العقل إلا للعقل**»!. . وعزل السماء عن الأرض، بالعلمانية التى رفضت أى تدبير سماوى أو رعاية إلهية للدولة والسياسة والاجتماع، بل وللقيم والأخلاق أيضًا!. .

فنحن - فى المسيرة الحضارية الغربية - أمام نزعة للغلو، سارية فى العديد من النظريات، ومتخذة شكل الثنائيات المتناقضة والمتصارعة: «العقل. . والنقل». . «الفرد. . والمجموع». . «الذات. . والآخر». . «الدين. . والدولة». . «الدنيا. . والآخرة». . «عالم الغيب. . وعالم الشهادة». . «المادية. . والروحانية». . ودونما وسطية جامعة، تجمع عناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة، لتكوّن موقفًا ثالثًا متميزًا لكنه ليس مغايرًا تمامًا لقطبى الظاهرة. .

فلغلو النزعة الأنثوية المتطرفة - أيضًا - تراث فى الغلو الذى تميزت به مسيرة النظريات الفكرية فى النموذج الحضارى الغربى بوجه عام.

ويكفى فى هذا المقام أن نشير إلى نماذج من احتقار المرأة فى التراث الغربى، لنرى كيف كان غلو الحركة الأنثوية الغربية تطرفًا يعالج تطرفًا آخر، وجنوحًا إلى التمركز حول الأنثى يواجه جنوحًا آخر فى احتقار الإناث!. .

*** ففى التراث الفلسفى الغربى .. نقرأ «لسقراط» [٤٧٠-٣٩٩ ق.م]: «للرجال**

السياسة وللنساء البيت»!.. ونعرف أن «أفلاطون» [٤٢٧-٣٤٧ ق م] كان مشجعًا للشذوذ الجنسى- الذى كان شائعًا فى المجتمع اليونانى.. ويقال إنه كان شاذًا.. «وكان يأسف لأنه ابن امرأة!.. وظل يزدرى أمه لأنها أنثى!.. وكان يرى أن الحب الحقيقى هو ما كان بين الرجل والرجل،ويرى الجمال المبهج فى الشبان»!.. ولقد دعا - فى جمهوريته - إلى «أن نساء محاربينا يجب أن يكن مشاعًا للجميع، فليس لواحدة منهن أن تقيم تحت سقف واحد مع رجل بعينه منهم، وليكن الأطفال أيضًا مشاعًا بحيث لا يعرف الأب ابنه ولا الابن أباه»!.. كما دعا إلى «تدريب النساء وهن عاريات تمامًا مع الرجال فى الحلبة»!.. وقال أيضًا: «على نساء الحراس أن يقفن عاريات،ما دمن سيكتسين برداء الفضيلة»!..

ونعرف - أيضًا- أن «نيتشه» [١٨٤٤-١٩٠٠م] هو القائل: «إذا قصدت النساء فخذ السوط معك»!.. وأن «فرويد» [١٨٥٦-١٩٣٩م] قد زعم «أن الرجل يمثل كامل الإنسانية.. وأن المرأة، بما أنها ليست رجلاً، أو أنها رجل ناقص جسديًا-إذ لا قضيب لها - تعيش آسفة أن لا تكون رجلاً»!..

فهذا الغلو فى احتقار المرأة -بالتراث الفلسفى الغربى - قد أثمر غلوًا سلكت طريقه الحركات الأنثوية الغربية..

* ومثل ذلك الغلو فى احتقار المرأة ودونيتها، نجده فى التراث الدينى الغربى..

فالخطيئة الأولى - التى حملت البشرية تبعات أوزارها - هى - فى هذا التراث- مسئولية المرأة وحدها!..

والحمل والولادة واشتياق المرأة لزوجها هى عقوبة أبدية للمرأة على ارتكابها للخطيئة الأولى!..

والزواج ليس مودة ورحمة، وإنما هو تسلط من الرجل على المرأة!..

هكذا جاء فى سفر التكوين-بالعهد القديم.. فلقد سأل الرب آدم:

- «هل أكلت من ثمر الشجرة التى نهيتك عنها»؟

-«فأجاب آدم: **إنها المرأة التى جعلتها رفيقًا لى، هى التى أطعمتنى من ثمر الشجرة فأكلت».**

- فقال الرب للمرأة «**أُكثِّر تكثيراً أوجاع مخاضك، فتنجبى بالآلام أولاداً، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلط عليك»!..**

وفى هذا التراث اليهودى- الذى أصبح مع المسيحية تراثًا للحضارة الغربية «اليهودية-المسيحية» -**يصلى اليهودى كل صباح صلاة الشكر لله؛ لأنه لم يخلقه عبداً ولا وثنيًا ولا امرأة!.. وللرجل- فى هذا التراث - قتل أولاده وتقديمهم قرابين!.. وله بيع بناته إماء!.. وفى سفر الخروج «إذا باع رجل ابنته أمَة لا تخرج كما يخرج العبيد»!..**

ولم يكن موقف التراث النصرانى للحضارة الغربية من المرأة بأفضل من التراث اليهودى.. ففى رسالة «بولس» الأولى إلى أهل «كورنثوس»: «**ذلك لأن الرجل عليه ألا يغطى رأسه، باعتباره صورة الله ومجده، أما المرأة فهى مجد الرجل،فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أُخذت من الرجل، والرجل لم يوجد لأجل المرأة، بل المرأة وجدت لأجل الرجل،لذا يجب على المرأة أن تضع على رأسها علامة الخضوع**»... [إصحاح ١١:٧-١١].

وفى هذه الرسالة أيضًا: «**لتصمت النساء فى الكنائس، فليس مسموحًا لهن أن يتكلمن، بل عليهن أن يكن خاضعات على حد ما توصى به الشريعة أيضًا، ولكن إذا رغبن فى تعلم شىء ما فليسألن أزواجهن فى البيت، لأنه عار على المرأة أن تتكلم فى الجماعة**» [إصحاح ١٤:٣٥].

وبسبب هذا الموقف المحتقر للمرأة، رفضت وترفض كل الكُنس اليهودية وجميع الكنائس النصرانية - ونحن فى القرن الواحد والعشرين- أن تحمل المرأة شرف الكهنوت وولاية رجل الدين، وحمل أمانة الدين وأسرار اللاهوت..

بينمـا حـملـت المرأة هذه الأمـانة-فى الإسـلام-منذ اللحـظة الأولى لظهـور الإسلام! . .

ولقد ظل هذا الموقف المحتقر للمرأة، فى الـتراث الدينى للحضارة الغربية، ثابتًا ومرعـيًا. . فالقديس «بونافنتـيرا» [١٢٢١-١٢٧٤م] يقول: **«إذا رأيتم المرأة فلا تحـسبـوا أنكم شاهـدتم موجودًا بشـريًّا ولا موجـودًا موحـشًا؛ لأن مـا ترونه هو الشيطان نفسه. وإذا ما تكلمت فإن ما تسمعونه هو فحيح الأفعى»! . .**

أما القـديس «توما الأكوينى» [١٢٢٥-١٢٧٣م] فهـو القائل: **«لا وجود فى الحقـيقـة إلا لجنس واحد، هوالجنس المذكـر، وما المرأة إلا ذكر نـاقص،ولا عجب إن كانت المرأة -وهى الكائن المعتـوه والموسوم بميسم الغباء - قد سـقطت فى التجربة - [الخطيئة الأولى] -ولذلك يتعين عليها أن تظل تحت الوصاية»! . .**

أما القديس «أغسطين» [٣٥٤-٤٣٠م] فلقد دعا إلى **«إخضاع النساء للرجال كما يخضع العقل الضعيف للعقل الأقوى»! . .**

فهل نجد غرابة فى غلو النزعة الأنثوية المتطرفة، عندما تمركزت حول ذاتها، واحتقرت الرجل، وأعلنت عليه الحـرب. . هل نجد غرابة فى رد الفعل المغالى هذا أمـام هذا التـراث الدينى للحـضارة الغـربيـة، ذلك الذى حـمل كل هذا الازدراء والاحتقار والدونية تجاه الإناث، مطلق الإناث؟! . .

لقد اكـتفت «الحداثة» الغـربية -منذ عصـر التنوير فى القرن الثامن عـشر- بتأويل هذا التراث الدينى - «اليهودى- النصرانى»- أما «ما بعد الحداثة»، فإنها لم تقنع بالتـأويل، فتجـاوزته إلى إعلان الحرب علـى هذا التراث - الذى رأته تراثًا ذكوريًا، لا بد أن يتحول عن ذكوريتـه - . . ولقد عاملت ما بعد الحداثة هذه المنظومـة الدينية والقـيمـية والأخلاقـية مـعاملتـها لكل الأنسـاق الفكرية الحداثية، فاجتاحتها بالفوضوية والعدمية والتفكيك. .

وفى إطار ما بـعد الحداثة هذه كـان غلو النزعة الأنثـوية المتطرفة رد الـفعل

المغالى على الاحتقار والدونية تجاه المرأة فى تراث الحضارة الغربية، الفلسفى منه والدينى على حد سواء!..

* * *

٤- الثمرات المرة للشذوذ الفكرى

لم يكن موقف التراث الغربى، القانونى والسياسى، إزاء احتقار المرأة ودونيتها بأقل غلواً من موقف التراث الفلسفى والدينى.. وفى هذا تفسير -وليس تبريراً- لغلو النزعة الأنثوية الغربية فى الرفض لكل هذه المواريث.

* ففى القانون الرومانى -الذى يمثل مع الفلسفة اليونانية كلاسيكيات النهضة الأوروبية - كان الاحتقار للمرأة، وحذفها من الحياة، هما موقف هذا القانون.. **فلم يكن للعبد ولا للمرأة أى كيان**.. وكل الحقوق وجميع الشرف كانا وقفًا على الرجال السادة الملاك الأشراف من الرومان.. ومن عدا هؤلاء - وفيهم جميع النساء والعبيد والفقراء وسكان المستعمرات - هم برابرة وهمج، محرومون من كل الحقوق.. حتى حقوق تطبيق القانون الرومانى عليهم!.

* وحتى التراث السياسى والقانونى للثورة الفرنسية -سنة١٧٨٩م- لم يكن موقفه من المرأة بأحسن حالاً ولا أقل احتقاراً لها من المواريث الغربية فى الفلسفة. والدين.. والقانون.

ورغم إسهام المرأة فى هذه الثورة، فلقد أعدمت حكومة الثورة داعية حقوق النساء «مارى كوز» سنة ١٧٩٣م.. وأغلقت جميع النوادى والجمعيات النسائية.. بل وقررت الجمعية التأسيسية - التى لا يزال المتغربون يتغزلون فيما أصدرت من مواثيق لحقوق الإنسان والمواطنة - أصدرت هذه الجمعية التأسيسية قراراً يقول: **«إن الأولاد، وفاقدى العقل، والقاصرين،والنساء، والمحكومين بعقوبات بدنية وشائنة، لن يكونوا مواطنين»**!..

لقد جردت هذه الثورة المرأة من حقوق المواطنة.. حتى شاع فى الفكر الاجتماعى والسياسى الغربى:

-**«أن المرأة سوداء بالنسبة للرجل الأبيض»!..**

- **«وأن النساء آخر مستعمرة للرجل»!..**

واستمر هذا الوضع المزرى والدونى للمرأة -بدرجات متفاوته فى المجتمعات الغربية - حتى منتصف القرن العشرين.. ففى سنة ١٩٠٣م كانت سيدة مصرية -نفيسة إسماعيل باشا حمدى- مالكة لبعض الأسهم فى شركة قناة السويس - الفرنسية - فلما طلبت من الشركة بيع أسهمها، كان جواب الشركة أن هذا ليس من حقها، وإنما هو حق زوجها؛ لأن القانون الفرنسى - حتى سنة ١٩٠٣م -لم يكن يعترف بحق المرأة فى التصرف بأموالها!.. ولما استفتت المرأة مفتى الديار المصرية يومئذ، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥-١٣٢٣ هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م] أفتى برأى الإسلام الذى قرر للمرأة ذمة مالية مستقلة، وحرية فى التملك والاستثمار والإنفاق، مثلها مثل الرجل تمامًا، منذ ظهور الإسلام!..

وظلت المرأة الأمريكية محرومة من الحقوق المدنية، وتعامل معاملة الزنوج، حتى أصدر الكونجرس الأمريكى إعلان الحقوق المدنية فى سنة ١٩٦٤م!..

وإلى ما قبل سنة ١٩٢٠م كان الفكر السائد فى أمريكا يقول: **«لأن المرأة والعبيد قد وهبوا أنفسهم لتوفير احتياجات الحياة، فقد تمتع رجل الأسرة بحرية الاشتغال بالسياسة»!..** وحتى ستينيات القرن العشرين، وقبل سن الكونجرس الأمريكى لإعلان الحقوق المدنية سنة ١٩٦٤م، **«لم تكن مسئولية المرأة الأمريكية عن تصرفاتها تزيد على مسئولية الأطفال والحمقى والمجانين»!..**

بل وحتى اليوم.. فإن ٢٥٪ من نساء أمريكا ما زلن يتقاضين أجورًا أقل من الرجال عن العمل المتساوى، فى ذات الموقع،وبذات المؤهلات!.. ونسبة النساء المحرومات من تكافؤ الفرص فى الحصول على العمل هى ضعف نسبتها فى الرجال!.. ولم يدخل مجلس الشيوخ الأمريكى سوى امرأة واحدة!.. أما مجلس

النواب فلم تزد عضـواته عن إحدى عشـرة امرأة!.. ومن بين ٦٧٥ قاضـيًا فيـدراليًا ليس هناك سوى ٨ قاضيات! . .

فهل يستطيع منصف أن ينكر صلة احتقـار التراث الغربى للمرأة - الفلسفى منه. . والدينى. . والقانونى. . والسياسى - وغلو هذا التراث فى هذا الاحتقار برد الفعل العنيف فى غلوه، ذلك الذى اتخذته الحركـة الأنثوية فى الغرب تجاه الرجل. . والدين. . والله. . والـلغـة. . والتـراث. . والتـاريـخ. . والقـيم. . والعادات والتـقاليد والأعـراف؟! . . إنها دوامة الغلو، فى الأفـعال وفى ردود الأفعال، تلك التى حكمت موقف الـتراث الغربى من المرأة، وموقف المرأة من هذا التراث. . وهى الدوامة التى أثمرت - من بين ما أثمرت - حركة أنثوية - فى أمريكا- ٦٠٪ من أعضائها سحاقيات. . وجعلت هؤلاء السحاقيات يسيطرن على لجنة المرأة فى الأمم المتـحدة، فيصـغن شذوذهن «دينًا» جـديدًا لقوم لوط الجدد، ثم يعملن على عولمة هذا «الدين» الشاذ والبائس فى أرجاء العالمين! . .

لقد عـرفت الحداثة الغربية الصـيحات المنكرة التى زعـمت «موت الإله». . و«موت الميتـافيزيقا» (أى الغـيب والدين). . ثم جاءت ما بعد الحـداثة الغربية بالفوضوية والعدمية واللاأدرية، فزعـمت «موت المؤلف». . و«موت الحقيقة». . و«موت المعنى». . و«مـوت التاريخ». . و«مـوت الأسرة». . و«موت العـفة». . و«موت الحياء». . وأخيرًا - فـى النزعة الأنثوية المتطرفة -«موت الرجل». . بل لقد تحدث البعض - من الغـربيين - عن «موت الغرب» - الذى أعلن كل هذه الوفيات!! . .

* * *

ولقد كان طبيعيًا أن يثـمر هذا الشذوذ الفكرى للحركات الأنثوية شذوذًا فى الممارسة والسلوك. . وكان طبيعيـا لكل ذلك أن يثمر الثمرات المرة والبائسة فى تلك المجتـمعات. . وهى ثمرات تعـبر عنها الأرقام الصـارخة، التى تنظر فى شذر واسـتغراب لـلقلة من النساء الشـرقيات اللاتى مـا زلن يبشـرن بالنموذج

الغربى فى «تحرير» المرأة، وللقلة المتغربة من مثقفينا الذين يتجاهلون الواقع الاجتماعى البائس لكثير من المجتمعات الغربية، فلا يرعوون عن الدعوة إلى «اللحاق بالغرب» وإلى التبشير بالنموذج الغربى حلاً للمأزق الذى يعيش فيه العرب والمسلمون..

إن الثمرات المرة للشذوذ الفكرى وللثورة الجنسية التى قننتها المجتمعات الغربية حقوقًا للإنسان، تجسدها الأرقام التى تقول:

* إن ٩٥٪ من الجنسين فى السويد عندهم تجارب جنسية قبل الزواج.. لا كمجرد نزوة أو خطأ.. وإنما كممارسة طبيعية وعادية.. تبدأ منذ التلمذة فى المدارس، التى يتم فيها التدريب - نعم التدريب - على الممارسة الجنسية والنشاط الجنسى.. والتى تقوم فيها صيدليات لتوزيع الواقى الذكرى وحبوب منع الحمل على التلاميذ والتلميذات.. وتتم فيها الرعاية للحوامل المراهقات!..

* وفى النمسا:- سنة ١٩٨٥م- ٥٩٪ من حوادث الطلاق تتم بسبب العنف المنزلى!..

* وفى انجلترا: أكثر من ٥٠٪ من القتيلات كن ضحايا الزوج أو الشريك.. وفى سنة ١٩٩٢م ارتفع العنف المنزلى ٤٦٪..وبلغت نسبة النساء اللائى يتعرضن لضرب الزوج أو الشريك ٢٥٪ من النساء!.. وفى سنة ١٩٨١م كانت نسبة النساء اللاتى يعشن مع رجل دون رباط رسمى ٨٪.. فارتفعت هذه النسبة سنة ١٩٨٨م إلى ٢٠٪ وكانت نسبة العائلات المنفردة - أى الأطفال الذين يعيشون مع عائل واحد - ١٤٪ سنة ١٩٦١م.. فارتفعت إلى ٢٧٪ سنة ١٩٩١م.. وتشكل النساء ٩٠٪ من هذه العائلات المنفردة.. وفى سنة١٩٨٤م كانت نسبة طلب الزوجة للطلاق ٧١٪ من حالات الطلاق.. وعدد حالات الطلاق ١٦٠,٠٠٠ حالة، بينما كان هذا العدد قبل خمسين عامًا ٧,٠٠٠ حالة فقط - أى أن الزيادة بلغت ثلاثة وعشرين ضعفًا!. وتراجعت

نسبة الزواج ١٦٪. . وأصبحت نسبة الأطفال غير الشرعيين ثلث أطفال انجلترا. . وهم فى إيسلندا ٥٧,٣٪ من الأطفال!. .

* وفى الدنمارك: كانت نسبة المواليد غير الشرعيين ٥٪ سنة ١٩٦٠م. . فارتفعت إلى ١١٪ سنة ١٩٧٠م. . ثم إلى ٣٣٪ سنة ١٩٨٠م. . ثم إلى ٤٦٪ سنة ١٩٩٠م. . وقريب من هذه النسبة فى الدول السبع الغنية فى أوروبا - فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وإيرلندا-. .

* وفى ثلاث دول أوروبية فقط - هى ألمانيا وبريطانيا وفرنسا - ٢٥ مليون امرأة تعيش وحيدة، إما لعدم الزواج، أو بسبب الطلاق والتفكك الأسرى. .

* وفى بنجلاديش والبرازيل وكندا وكينيا وبابوا -فى استراليا- وغينيا الجديدة وتايلاند، تمثل جرائم قتل الشريك لشريكته أزيد من نصف جرائم القتل ضد النساء!. .

* وفى الفيليبين وسريلانكا وتايلاند تعمل نصف مليون طفلة فى البغاء الرسمى -فقط الرسمى -للأطفال!. .

* والإنفاق العالمى سنة ١٩٩٩م على تجارة الدعارة يبلغ ٢٠ تريليون دولار. . وهذه هى التجارة العالمية الثالثة، بعد تجارة السلاح. . وتجارة المخدرات!. .

* وفى هذا العالم ٦٠ مليون امرأة تحاول الإجهاض كل عام. .وهو ما يعنى قتل ٦٠ مليون طفل سنويًا!. .حتى لكأن حرب الإباحية الجنسية التى أعلنتها الحركات الأنثوية المتطرفة قد فاقت فى ضحاياها كل الحروب العالمية!. .

ومع إباحة الإجهاض فى روسيا سنة ١٩٢٠م. . وفى انجلترا سنة ١٩٦٧م. . وفى كندا سنة ١٩٦٩م. . وفى أمريكا سنة ١٩٧٣م، فلقد استمرت نسبة المواليد غير الشرغيين فى الازدياد!. .

* أما أمريكا، التى تريد عولمة نموذجها القيمى، وفرض طريقتها فى الحياة

على العالمين، فـإن ٨٠٪ من نسائها قد فقـدن البكارة قبل الزواج.. وفى سنة ١٩٨٤م حدث ٢٩٢٨ حادثة قتل على يد أحد أفـراد العائلة.. وثلث القتيلات قتلن على يد الزوج أو الشـريك.. وأكثر من مليون امـرأة سنويا تُبلِّغ الشرطة باعتداء زوجـها أو شريكها عليها..و٩١٪ من الاعـتداءات لا تبلغ للشرطة.. وتقتل يومـيًا أربع نساء بسـبب الضرب المبرح بـالمنزل.. ومن ٢ إلى ٤ ملايين امرأة تتعـرض للاعتداء عليها سنويًا.. و١,٥ مليـون زيارة للطبيب تتم سنويًا بسبـب اعتداء الزوج.. وفـى سنة ١٩٩٣م كانت تغـتصب امـرأة كل دقيـقة، وغالب الضحايا فى سن تقل عن ١٧ عامًا.. وفى أمريكا أعلى نسبة طلاق فى العالم..ونصف عدد الزيجات ينتهى بالطلاق.. ولقد نشرت مجلة (يو.إس. نيوز) - فى أغـسطس سنة ١٩٩٤م دراسة عن مكتب الإحصـاء تقول: إن ٢٧٪ من أطفال أمريكا - ١٨ مليون طفل- يعـيشون مع أحد الوالدين.. بعد تفكك الأسرة -وهذا الـرقم هو ضعف ما كـان عليه سنة ١٩٧٠م.. وغـالـب هؤلاء الأطفال يعيشون على الإعانات الاجتماعـية للدولة.. وهم الأكثر تعرضًا للفقر والحرمان.. والأكـثر رسوبًا فى المدارس.. و٨٠٪ من جرائم القـتل عائلية.. و٤٨٪ منها مـسرحـها البيت.. ومن سنة ١٩٦٠م إلى سـنة ١٩٩٠م ارتفعت معدلات الجـريمة ٥٠٠٪!.. وفى سنة ١٩٨٥م كان فى أمـريكا نصف مليون مدمن هيروين ومليـون متعاطى مهـلوسات و٢٠ مليون متعـاطى ماريجوانا أو كانابيس و٦ ملايين مـزور وصفات طبية للحصـول على المخدرات و٢٠ مليون متـعاطـى كوكايـين بصورة منتظمـة - ومجـموعـهم نحو من ٤٧,٥ ملـيون أمريكى، أى نحـو ٢٠٪ من سكان أمريكا!.. وهناك ربع مليون مـراهق يقتل سنويًا بسـبب المخدرات.. وفى إحـصاء سنة ١٩٨٥م فـإن ثلثى طلبة الثـانوية العامة فى أمـريكا يتعاطون أحد أنواع المخدرات و٩٣٪ منهم يشـربون الخمر.. وحوالى ٤٠٪ منهم يشربونها بإفراط!..

ولقد بلغ عائد الرأسمالية الأمريكية - التى يقولون إنها «نهاية التاريخ» -بلغ

عائدها من الاستغلال الجنسى لدعارة الأطفال - الأطفال فقط - مليارى دولار سنويًا!..

ومع كل هذه الإباحية فلقد تناقص عدد سكان أمريكا - بالنسبة للعالم- من ٦٪ سنة ١٩٥٠م إلى ٥٪ سنة ١٩٨٨م.. إلى ٤٪ سنة ٢٠١٠م -كما هو متوقع-!..

* أما فرنسا: فإن تقرير «المعهد الوطنى الفرنسى للأبحاث الديموجرافية» - ديسمبرسنة ١٩٩٩م- يقول: إن من بين كل عشرة أزواج يوجد تسعة منهم خارج الإطار الشرعى للزواج - أى بدون عقد كنسى أو مدنى أو حتى عرفى-!.. وإن ٥٣٪ من الأمهات الفرنسيات يضعن مولودهن الأول خارج مؤسسة الزواج.. وربع هؤلاء المواليد يفقدون الأب مدى الحياة.. وهذه النسبة فى زيادة مطردة، فلقد كانت ٦٪ سنة ١٩٦٧م.. ووصلت إلى ٢٠٪ سنة ١٩٨٥م.. وتجاوزت الـ ٤٠٪ سنة ١٩٩٧م.

فهل بعد هذا الجنون الفكرى والأخلاقى للحركات الأنثوية الغربية.. وهذه الثمرات الاجتماعية المرة والمدمرة، يجوز لنفر من المتغربين والمتغربات فى بلادنا الدعوة إلى اتخاذ ذلك النموذج الغربى فى «تحرير» المرأة قدوة لنا نحن العرب والمسلمين؟.. والدعوة إلى اللحاق بالغرب فى هذا الميدان؟!..أى الدعوة إلى السقوط فى هذا المستنقع الذى تجاوز أصحابه ما ذهب إليه القدماء من قوم لوط.. أولئك الذين استحقوا سخط الله وغضبه، فأنزل عليهم ما أنزل من العذاب!.. وهل هذا هو «التقدم».. وهذه هى «التقدمية» التى يدعوننا إليها هؤلاء المتغربون البؤساء؟!..

* * *

٥- التقليد الأعمى لهذا الشذوذ الفكرى

لو أن الأفكار والفلسفات والممارسات الشاذة للحركة الأنثوية الغربية، والتى تدعو إلى التمركز حول الأنثى، والطمع فى استقلال المرأة عن عالم

الرجال، حتى ولو بالشذوذ السحاقى. . واعتبار المعركة ضد الرجل. . ومحاربة الزواج الشرعى، والأسرة، والإنجاب. . والثورة على الله. . والدين. . واللغة. . والتاريخ. . والفطرة. . والأعراف. .

لو أن هذه الأفكار والفلسفات والممارسات كانت وقفًا على المؤمنين والمؤمنات بها، والداعين والداعيات إليها - فى الغرب - لما استحقت منا كثير اهتمام. . بل لو أن هذه الأفكار والفلسفات الشاذة كانت مذهبًا للحضارة الغربية، لقلنا: إن هذا هو حقهم فى الاختيار وفى الاختلاف. . ولكل وجهة هو موليها. . وليس فى جهنم أزمة إسكان!.

لكن الذى يفرض علينا الاهتمام بهذا الشذوذ الفكرى، الذى وضع فى الممارسة والتطبيق، هو أن الغرب، كحضارة مهيمنة، يفرض علينا - نحن المسلمين والشرقيين - وعلى كل عالم الجنوب هذه الأفكار والفلسفات، وذلك عندما يعولمها، ويضع عليها أختام وشعارات وأعلام منظمات دولية - التى يسيطر عليها. . والتى استولت الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة على لجنة المرأة فيها. . ونجحت فى صياغة هذا الشذوذ «وثائق دولية» منذ مؤتمر السكان سنة ١٩٩٤م وحتى اتفاقية الـ CEDAW ووثيقة حقوق الطفل. . فغدا هذا العوج الفكرى والشذوذ السلوكى جزءًا من المنظومة الغربية التى يراد فرضها - بالعولمة- على العالمين. .

ومن نافذة التغريب، الذى نجح فى تحويل نفر من مثقفينا إلى «صنابير» يسيل منها كل ما هو غربى، بدأ التبشير فى بلادنا بهذا الشذوذ الفكرى فى الحركة النسوية الشرقية - العربية والإسلامية.

* فالكاتبة المغربية «فاطمة المرنيسى» - التى تعيش فى باريس وتكتب بالفرنسية -تقول: «**لقد قدس الزواج الإسلامى هيمنة الرجل المطلقة**»!. .

* والكاتب السورى «د. محمد شحرور» يرى أن عورة المرأة هى -فقط-

ما بين الإلية وما تحت الإبطين والثديين، وما عدا هذه «الجيوب» من جسد المرأة لا عورة فيه، ولا جناح فى عرضه على الكافة!..

* والكاتب الفلسطينى «د. هشام شرابى» - الذى أصبح أمريكيّا، يكتب بالإنجليزية - يدعو «إلى ترجمة القرآن للغة العامية ليحصل له ما حصل للكتاب المقدس فى المناخ الأوروبى»!.. كما يدعو إلى تعميم «الأتاتوركية» فى العالم الإسلامى، لاستئصال التقاليد الإسلامية!..

* والكاتب المصرى المرموق «أحمد بهاء الدين»، يدعو إلى ربط الأخلاق بالضمير، بدلاً من الإسلام.. وإلى تاريخية الشريعة الإسلامية، باعتبارها «شريعة البداوة» التى لا تصلح للمجتمعات المتحضرة، فيقول: «لا بد من مواجهة الدعوات الإسلامية فى أيامنا مواجهة شجاعة، بعيدًا عن اللف والدوران. إن الإسلام، كغيره من الأديان، يتضمن قيمًا خلقية يمكن أن تستمد كنوع من وازع الضمير، أما ما جاء فيه من أحكام وتشريعات دنيوية، فقد كانت من قبيل ضرب المثل، ومن باب تنظيم حياة فى مجتمع بدائى إلى حد كبير، ومن ثم فهى لا تلزم عصرنا ومجتمعنا..»!

* أما الأديبة المصرية «د. نوال السعداوى»، فلقد ذهبت إلى حد القول: «شعرت أن الله تحيّز للصبيان فى كل شىء»!!..

ولم يقف زحف هذا الشذوذ الفكرى عند قطاعات النخبة المتغربة.. وإنما ذهبت العولمة إلى استخدام التمويل لمئات المنظمات - التى تسمى «منظمات المجتمع المدنى» - التى تبشر بهذا العوج الفكرى، والتى يحدد لها الغرب جدول أعمالها مع الميزانيات التى تمول تنفيذ جدول الأعمال هذا..

ولمعرفة حجم هذا الاختراق، يكفى أن نعلم حالة المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧م من فلسطين.. ففيها ١٢٠٠ منظمة غير حكومية، تلقت سنة ١٩٩٧م معونات قدرها ٦٨,٩ مليون دولار، من أصل إجمالى المعونات المقدمة

لفلسطين والبالغة ١٥٢٧ مليون دولار. أى أن هذه المنظمات - العاملة فى خدمة الأچندة الاجتماعية الغربية - قد حصلت على ٥٪ من المعونات، بينما لم تحصل الزراعة والصناعة الفلسطينية إلا على ٢٤ مليون دولار، أى ١,٢٪ من المعونات! . .

وعن رسالة هذه المنظمات، تقول الباحثة الفلسطينية «خلود المصرى»: «**إن الأُطر النسوية المدعومة لا تخرج فى وضع أولوياتها عن الالتزام بأولويات وثقافة الجهات المانحة لها من أجل استمرار الدعم المالى فحسب، وهى بالضرورة تختلف عن أولويات مجتمعنا الفلسطينى**».

ويكفى أن نشير إلى أن هذه المنظمات، «التى تضرب بسيوف الممولين»! قد أقامت الدنيا ولم تقعدها حول موضوع «ختان الإناث» -الذى هو عادة قديمة منذ الفراعنة، وليس تشريعًا دينيًا. . والذى تقل ممارسته بالتطور الاجتماعى والتعليمى -فى الوقت الذى صمتت فيه هذه المنظمات «النسائية» عن الاغتصاب المنظم الذى مارسه الصرب ضد أكثر من ستين ألف امرأة بوسنية، تحت سمع وبصر الممولين الغربيين! . . فضلاً عن الصمت القاتل لهذه المنظمات إزاء ما يحدث للمرأة الفلسطينية بواسطة الوحشية «الصهيونية -الأمريكية»! . .

* * *

إن أحدًا لا يطلب إغلاق المنافذ الفكرية التى يأتى منها الوافد الغربى، حتى ولو كان هذا الوافد شاذًا - كأفكار الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة - لكننا ندعو، عند تبنى الأفكار الوافدة، إلى النظر فى سياقها وملابساتها والمواريث الفكرية والدينية والقانونية والسياسية التى أثمرتها، لندرك هل هى «مشترك إنسانى عام» نفتح له عقولنا ومجتمعاتنا؟ . . أم أنها ردود فعل مغالية لفعل مغالٍ فى احتقار المرأة ودونيتها؟ . .

لقد ثارت الحركة الأنثوية الغربية ضد الدين - فى اليهودية والنصرانية-

الذى حمّل المرأة وحدها وزر الخطيئة الأولى، والذى جعل زواجها واشتياقها لزوجها وحملها وولادتها عقوبة لها على هذه الخطيئة، إلى غير ذلك من الأفكار، التى حملت الكثير من التمييز ضد المرأة إلى حد الدونية والاحتقار. . فإذا جاز تفسير أو حتى تبرير ثورة الحركة الأنثوية الغربية ضد موروثها الدينى باعتباره رد فعل مغالى فيه ضد تراث مغالٍ فى احتقارها كامرأة. . فهل يجوز لعاقل أن يأخذ هذه الثمرة الغربية والنتيجة الغربية - وهى خصوصية غربية - ليغرسها فى سياق إسلامى، مواريثة الدينية والحضارية مغايرة تمامًا - بل مناقضة - لهذه المواريث الغربية؟!

* لقد حمّلت اليهودية المرأة كل أوزار الخطيئة الأولى، وبرّأت آدم منها. . وذلك عندما سأل الرب آدم - كما جاء فى سفر التكوين -:

-هل أكلت من ثمر الشجرة التى نهيتك عنها ؟. .

-فأجاب آدم: **«إنها المرأة التى جعلتها رفيقًا لى هى التى أطعمتنى من ثمر الشجرة فأكلت»**.

-فقال الرب للمرأة: **«أُكثِّر تكثيرًا أوجاع مخاضك، فتنجبى بالآلام أولادًا، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلط عليك»**!

فإذا جاءت الحركة الأنثوية الغربية لتثور على هذا التراث الدينى، الذى كتب عليها اللعنة. . وتثور على الزواج والإنجاب، اللذين تحدث عنهما هذا التراث كعقاب! . . فهل يجوز لأى منا أن يردد هذه المقولات كالببغاوات، ويسير فى طريق التقليد لهذه المواريث الغربية وردود أفعالها، كما يصنع القردة المحترفون للتقليد؟!.

إن القرآن الكريم قد أرسى دعائم المساواة بين آدم وحواء. . فهما مخلوقان من نفس واحدة. . ومتساويان فى أهلية الخطاب الإلهى لهما. . وفى

التكليف. . وفى وسوسة الشيطان لهما معًا. . وفى استجابتهما معًا لهذه الوسوسة الشيطانية. . وفى الفعل. . وفى نتيجة الفعل. . وفى المراجعة. . وفى العتاب. . وفى الأوبة والتوبة. . وفى القبول والغفران. . متساويان فى كل ذلك، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩-٢٥].

بل إن القرآن الكريم كأنه يحمّل آدم قدرًا أكبر من المسئولية، فيقول: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١].

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥].

فهل هناك عقل لدى الذين يثورون على هذا القرآن تقليدًا للذين ثاروا على العهد القديم ؟!. .

واذا كانت النصرانية قد جعلت **«الرجل صورة الله ومجده، أما المرأة فهى مجد الرجل. والرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أُخذت من الرجل، والرجل لم يوجد من أجل المرأة، بل المرأة وُجدت لأجل الرجل»**. . فإن القرآن الكريم قد قال: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. . فالذكور والإناث جميعًا من نفس واحدة. .

وبعضهم من بعض. . ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. . ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. . وحتى [الدرجة] التى للرجال على النساء، فى الأسرة، وهى «القوامة»، فإنها زيادة فى المسئولية، وليست استبدادًا. . فالقوّام هو دائم القيام . . وبعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٥-١٣٢٣هـ ١٨٤٩هـ-١٩٠٥م] «**فإن هذه القوامة تفرض على المرأة شيئًا وعلى الرجل أشياء**»!. . ثم إن هذه «القوامة»، التى هى القيادة والرعاية، للمرأة فيها نصيب كبير يشير إليه الحديث النبوى «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته.. الرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهى مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته**» - رواه البخارى ومسلم - وصدق رسول الله ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**» - رواه الترمذى والدارمى وأبو داود - . . فهل مع اختلاف موقف موروثنا الدينى من المرأة عن موقف الموروث الغربى منها، يجوز لعاقل تبنى الدعوات الأنثوية الغربية، وإعلان الحرب على الإسلام؟!. .

* * *

وبعــــد..

فهل هناك ظلم أشد من ذلك الظلم الذى رأيناه- فى ساحات الفكر وميادين الممـارسـة والتطبـيق - من مـشـروع الهـيـمنة الغـربيـة،على الإسـلام.. وأمته.. وحضارته.. وعالمه ؟..

لقـد رأينا- بالأرقـام.. والوثائق.. والوقـائع- عـبر فـصـول هذا الكتـاب وصفحاته- وبشهادات الثقاة من العلماء الغربيين المنصفين ، أيضًا .. رأينا:

* أن عداء الغرب للإسلام،ليس مسئولية الإنسان الغربى.. وإنما هو مسئولية «الإمبريالية» الغربية،الطامعـة فى ثروات عالم الإسلام ،والساعية - انطلاقًا من نزعة «المركزية.. والهيمنة» - إلى مسخ ونسخ الهوية المتميزة للإسلام وحضارته ..

* ورأينا سماحة الإسلام -غير المسبوقة ولا الملحوقة- فى رؤية الآخرين - كل الآخرين -.. وفى التـعامل معهم ،عـلى النحو الذى جعل فيـه الإسلام هؤلاء «الآخـرين» جزءًا من «الذات»، لهم مـا للمسلمـين، وعليهم مـا على المسلمين ، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..

* ورأينا صـورة الإسلام فى الخطاب الغـربى - خطاب الهـيمنة- وجـذور العـداء التاريخى القـديم ، منذ اللحظات الأولى لظهـور الإسلام ، وتحـريره الشرق من هيـمنة الرومان البيـزنطيين. حـتى لقد لخص أحد القـادة والكتّاب الغربيـين هذه الحقيقـة عندما قال :«إن تاريخ مشكلة الشـرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!!..

ولقـد رصدنا مظاهر ونظريات ومـقولات هذا العـداء فى مشـاريع الهيـمنة الغربية-السـياسية. . والدينية. . والحـضارية. . والاقتصادية- تلك التى مـارسها الغرب الاستـعمارى ضد الشرق الإسلامـى عـبر ذلك التاريخ الطـويل. . والتى لا يزال يمارسها حتى هذه الحظات !. .

* ورأينا قـصـة الحروب الدينيـة عـبر تـاريخ الأديان السمـاوية الثـلاثة. . والمواريث الحـضـارية لهـذه الأديـان. . وكـيف برئت كل تلـك الديانات - اليـهوديه. . والنـصرانيـة. . والإسلام- مـن نزعات الحـرب الدينيـة والقهـر والإكراه. . ثم، كيف سقط «التراث اليهـودى»، و«تراث النصرانية الغربية» فى مسـتنقع الحروب الدينيـة، فكراً وتطبيقًـا - عندما يسـرت القوة الغاشـمة هذا التطبيق. . وفكراً عنصريّا لا إنسانيّا عندما عزَّ هذا التطبيق-!. .

* ورأينا - فى قضية المرأة - التى هى نصف الإنسانيـة. . وصانعة المستقبل فى كل الحضـارات -كيف حرر الإسـلام المرأة تحريراً حـقيقـيّا ومتـميزاً وغـير مسبوق. . ورددنا على الشبهات -الشـهيرة- المثارة حول النموذج الإسلامى فى هذا التحـرير . .وهى الشبـهات التى يزعم أصـحابهـا- من أهل الغلو الدينى واللادينى-أن الإسلام قد جـعل من المرأة «نصف إنسان»!. .ولقد ظهـر للعيان كذب هذا الادّعاء. .

* كمـا رأينا ذلك «الجنون الفكرى والعـملى» الذى ساد ويسـود فى الغرب المعاصر . .جنون النزعـة الأنثوية الغربية، الرافضة للفطرة الإنسـانية السوية. . والثائرة على الله. . والدين . . والقيم والأخـلاق . . واللغة . . والتاريخ . . والأعراف . . بل وعلى الأنوثة أيضًا!. .

ذلك «الجنون الفكرى»،الذى أثمر الثمـرات الاجتماعية والقـيمية المرة،التى تهدد «بموت الغـرب» -كحضارة- بعـد أن أعلنت «حداثته» «وما بعـد الحداثة» موت الله. . والدين. . والحـقيقة. . والـلغة. . والنص. . والمؤلف. . والمعنى والتاريخ. . والإنسان- إلى آخر هذه السلسلة التى لا تنتهى من الوفيات!. .

* * *

نعم... رأينا الصورة الحقيقية للإسلام-الدين..والحضارة..والتاريخ.

ورأينا موقف مشروع الهيمنة الغربى من الإسلام..ومدى الظلم الذى افتراه وأوقعه الغرب الإمپريالى بالإسلام.. وأمته..وبالشرق الإسلامى..بل وبالإنسان الغربى أيضًا، عندما ضلله الإعلام الغربى-بثقافة الكراهية السوداء- عن حقيقة الإسلام..

رأينا كل ذلك،عبر فصول هذا الكتاب ..

وذلك وصولاً إلى مقصد: الاحتكام- بالمنطق - إلى عقل القارئ- فى الغرب والشرق -..وإلى «العدل»،الذى هو أساس القيام والدوام للحضارات..والذى هو-قبل ذلك وبعده- فريضة إلهية وضرورة لإنسانية الإنسان..حتى لقد كتب الله، سبحانه وتعالى،هذا العدل على ذاته العظمى،عندما جعله صفة من صفات الكمال والجلال الإلهى،واسمًا من أسمائه الحسنى..

* وما على الذين تراودهم أية شكوك فى حقائق ومقاصد فصول هذا الكتاب،إلا أن يعيدوا النظر والتأمل مرة ثانية فى الحقائق التى بسطتها هذه الفصول..

فالحكمة ضالة المؤمن،أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،الذى نسأله أن يجعلنا من أهل الحكمة وأهل الإيمان..إنه - سبحانه وتعالى- خير مسئول ، وأكرم مجيب.

* * *

المصادر.. والمراجع

القرآن الكريم

العهد القديم - طبعة دار الكتاب المقدس - القاهرة سنة ١٩٧٠م.

العهد الجديد - طبعة دار الكتاب المقدس - القاهرة سنة ١٩٧٠م.

صحيح البخارى - طبعة القاهرة - دار الشعب - القاهرة.

صحيح مسلم - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

سنن الترمذى - طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧م.

سنن النسائى - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

سنن أبى داود - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م.

سنن ابن ماجة - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.

سنن الدارمى - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

الموطأ - للإمام مالك - طبعة دار الشعب - القاهرة.

مسند الإمام أحمد - طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ.

* * *

آدم متز : [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] ترجمة د. محمد عبدالهادى أبو ريدة. طبعة بيروت. سنة ١٩٦٧م.

ابن أبى الحديد : [شرح نهج البلاغة] تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٩م.

ابن رشد (أبو الوليد): [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٤م.

ابن عبدالبر : [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٦م.

ابن عبدالحكم : [فتوح مصر وأخبارها] طبعة ليدن. سنة ١٩٢٠م.

ابن القيم : [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] تحقيق: د. جميل غازى. طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٧م.
[إعلام الموقعين] طبعة بيروت. سنة ١٩٧٣م
ابن منظور : [لسان العرب] طبعة دار المعارف. القاهرة.
أبو البقاء (الكفوى): [الكليات] تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصرى. طبعة دمشق. سنة ١٩٨٢م.
أرنولد(سير. توماس): [الدعوة إلى الإسلام] ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٠م.
إسرائيل شاحاك : [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ترجمة: حسن خضر. طبعة القاهرة. سنة١٩٩٤م.
الأفغانى(جمال الدين): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٨م.
الأمم المتحدة : [تقرير التنمية البشرية لسنة ١٩٨٨م] - البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة.
الباقلانى : [التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة] تحقيق: محمود محمد الخضرى، د. محمد عبدالهادى أبو ريدة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٤٧م.
بطرس البستانى : [دائرة المعارف] طبعة القاهرة - الأولى.
البلاذرى : [فتوح البلدان] تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦م.
د. توفيق الطويل : [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩١م.
ثابت عيد- مترجم-: [تقييمات غربية لأسلوب القرآن]- طبعة خاصة -. .

د. چاك تاجر : [أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى سنة ١٩٢٢م] طبعة مصورة -مدينة چرسى -أمريكا - سنة ١٩٨٤م.

الجبرتى : [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، السيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٥م.

جوتفرايد كونزلن : [مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروپا] دراسة وتعليق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٩م.

جورج قرم : [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوچية مقارنة] طبعة بيروت. سنة ١٩٧٥م.

الراغب الأصفهانى: [مفردات غريب القرآن] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩١م.

زالمان شازار - محرر-: [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث] ترجمة: أحمد محمد هويدى. مراجعة: د. محمد خليفة حسن. طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٠م.

د. سعد الدين إبراهيم: [الملل والنحل والأعراق] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٠م.

د. صبرى أبوالخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٠م.

د. صلاح سلطان : [ميراث المرأة وقضية المساواة] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٩م.

الطهطاوى (رفاعة رافع): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت. سنة ١٩٨١م.

د. عبدالوهاب المسيرى: [موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٩م.

عواطف عبدالماجد: [رؤية تأصيلية لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة] طبعة السودان - مركز دراسات المرأة - سنة ١٩٩٩م.

الغزالى (أبو حامد): [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] طبعة القاهرة. سنة ١٩٠٧م.
: [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة مكتبة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ.
د. فؤاد حسنين على: [التوراة: عرض وتحليل] طبعة القاهرة. سنة ١٩٤٦م.
فيليب فارج، يوسف كرباج : [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ترجمة: بشير السباعى. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.
لوثروب استودارد: [حاضر العالم الإسلامى] تعليقات: شكيب أرسلان. ترجمة: عجاج نويهض. طبعة بيروت. سنة ١٣٩١ هـ ١٩٧١م.
مؤتمر كولورادو : [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] طبعة مالطا. سنة ١٩٩١م.
الماوردى : [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٣م.
[أدب القاضى] طبعة بغداد. سنة ١٩٧١م.
مثنى أمين نادر الكردى : [أفكار الحركات الأنثوية الغربية]- رسالة ماجستير -جامعة أم درمان - تحت الطبع.
مجمع اللغة العربية: [المعجم الفلسفى] طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٩م.
: [معجم ألفاظ القرآن الكريم] طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٠م.
د. محمد جلاء إدريس: [فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠١م.
د. محمد حميد الله: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الحيدر آبادى -محقق الراشدة] - طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦م.
محمد السماك : [الأقليات بين العروبة والإسلام] طبعة بيروت. سنة ١٩٩١م.
محمد عبده - (الأستاذ الإمام) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٣م.

د. محمد عمارة : [الإسلام والآخر] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠١م.
: [الغارة الجديدة على الإسلام] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٨م.
: [هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٥م
: [فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٣م.
: [التحرير الإسلامى للمرأة] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٢م.
: [قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٣م.

محمد فؤاد عبدالباقى: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب - القاهرة.

محمد محمد سنعيد: [كتاب دليل السالك لمذهب الإمام مالك] طبعة القاهرة. سنة ١٩٢٣م.

محمود شلتوت : [الإسلام عقيدة وشريعة] طبعة القاهرة. سنة ١٩٨٠م.
[تفسير القرآن الكريم] طبعة القاهرة. سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

المقريزى : [اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا] طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٧م.
[الخطط] طبعة دار التحرير - القاهرة.
[كتاب السلوك إلى دول الملوك] تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦م.

مكسيموس مونروند: [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب] ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم. سنة ١٨٦٥م.

مونتجمرى وات : [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ. طبعة مكتبة الأسرة. القاهرة.

النقيوس - يوحنا [تاريخ مصر ليوحنا النقيوس] ترجمة ودراسة وتعليق: د. عمر صابر عبدالجليل. طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٠م.
نيكسون- ريتشارد [الفرصة السانحة] ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٢م.
هوبرت هيركومر [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ترجمة: ثابت عيد. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٩م.
وزارة الأوقاف- الكويت [الموسوعة الفقهية] طبعة الكويت.
ول ديورانت [قصة الحضارة] - المجلد ٦ جـ٣، ٤. ترجمة: د. عبدالحميد يونس. طبعة القاهرة. سنة ١٩٧١، ١٩٧٢م.
وينسنك (أ. ى) [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن. سنة ١٩٣٦م - سنة ١٩٦٩م.
[مفتاح كنوز السنة] ترجمة: محمد فؤاد عبدالباقى. طبعة لاهور. سنة ١٣٩١ هـ ١٩٧١م.

دوريات:

آفاق عربية - القاهرة.
الأسبوع - القاهرة.
الأهرام - القاهرة.
الحياة - لندن.
الشرق الأوسط - لندن.
العالم الإسلامى - مكة.
العربى - القاهرة.
نيوزويك - الأمريكية.
نيويورك تايمز - الأمريكية.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

رقم الإيداع: ٢٠٦٣٣/٢٠٠٣
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-09-1024-4

مطابع آمــون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظـة
لاظوغلى - القـاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ ـ ٧٩٤٤٣٥٦

• لأن الأطماع لا تمشي عارية، دون غطاء من الأكاذيب.. فلقد ارتبطت أطماع الغرب في الشرق بالأكاذيب ضد الإسلام.. المقاوم لهذه الأطماع!..

• حدث ذلك في الحقبة الصليبية القديمة.. وفي الغزوة الإمبريالية الحديثة.. ويحدث اليوم في الحملة الصليبية الجديدة التي يقودها اليمين الديني الأمريكي والصهيونية/ المسيحية ضد الإسلام والمسلمين..

• ولأن الدراسة المقارنة - التي تكشف حقيقة الإسلام، وتهافت الدعاوى الغربية.. مستعينة بشهادات المنصفين من علماء الغرب هي السبيل إلى:

- زيادة إيماننا بعدالة قضيتنا..
- وإزالة غشاوات الأكاذيب عن عيون الشعوب الغربية..
- وفتح أبواب الحوار المثمر مع كل الآخرين..

كانت فصول هذا الكتاب - التي تكشف مواطن الخطأ.. ومواقع الصواب، في هذه العلاقة المتوترة دائما.. والدامية أحيانا.. بين الغرب والإسلام.

